

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [رَبِّ يَسَّرْ]

الحمد لله العزيز الغفار ، القوي القهار ، المتعالى عن أن تدركه الأبصار ، أو تحيط به الخواطر والأفكار ، أحمده على أنعمه المتوالية الغزار ، وأصلى على رسوله محمد المنتجب من أشرف نِجَار (١) ، المخصوص بأعظم فخار ، وعلى آله الأكرمين الأطهار ، وأصحابه البررة الأخيار .

وبعد ؛ فهذا كتاب أوردت فيه أخبار ملوك بني أيوب ، وجملة من محاسنهم ومناقبهم ، إذ كانوا أعظم ممن تقدمهم من الملوك شأنا ، وأجلهم سلطانا ؛ فتح الله تعالى بهم القدس الشريف من أبدى الكافرين ، وأذل بسيوفهم أعناق الملحدين ، وطهروا الديار المصرية من بدع الباطنية (٢) ، وشيّدوا بها أركان الملة الخفية ، فشكر الله سبحانه سعيهم ، وقُدّس أرواحهم الشريفة ، وأنالهم من الآخرة أعلا الرتب المنيفة .

وخدمتُ به خزانة الجَناب (٣) الكريم المولوى الأميرى الكبيرى العضدى

(١) النجار الأصل ، ويوجد أمام هذا اللفظ في الهامش مايلي : « نجار : Color, Natura, Radix, Diversitas » ويبدو أن أحد المستشرقين الذين اطلعوا على هذه النسخة في مكتبة جامعة كمبروج استعصى عليه فهم لفظ « نجار » فكتب أمامها معانيها المختلفة في اللغة اللاتينية .
(٢) يقصد المؤلف أن الأيوبيين قضوا على الدولة الفاطمية الشيعية التي ظلت تحكم مصر نحو قرنين من الزمن .

(٣) كان للألقاب الإسلامية في العصر المملوكى خاصة نظام دقيق عرّفه ديوان الانشاء وحذقه كتابه ، وأفرد القلقشندي الجزء السادس من كتابه صبح الأعشى للحديث عن هذا النظام ، وقسمها ابتداء من ص ١٣٠ إلى خمس درجات : الدرجة الأولى درجة المقر ، والدرجة الثانية درجة الجَناب ، وأورد أمثلة مما كان يكتب لنواب الشام مما يبدأ بافظ جناب ، وهي لا تختلف كثيراً من هذه الألقاب التي لقب بها المؤلف هنا الملك المنصور صاحب حماة الذي ألف الكتاب باسمه .

النصيري الاسنهلاري (١) العالى العادلى المظفرى المؤيدى ، ملك الامراء ، مقدم الجيوش ، مبارز الدين ، سيد الغزاة والمجاهدين ، الملكى المصورى (٢) أعز الله أنصاره ، وضاعف اقتداره ؛ إذ كان الله سبحانه قد خصه من بين سائر أمراء عصره بالرأى الصائب ، والفكر الثاقب ، والفضل الغزير الباهر ، والعقل الرصين الوافر ، والأخلاق الكاملة الرضية ، والمحاسن الجميلة السنية ، ومحبة العلم والعلماء ، وإيثار الفضيلة والفضلاء ، وسميته : «مفرج الكروب فى أخبار بنى أبوب» وبالله المستعان ، وعليه التكلان .

(١) اسنهلار كلمة مكونة من لفظين ، أحدهما فارسي وهو « أسفه » ومعناه المقدم ، والثاني تركي وهو « سلار » ومعناه المسكر ؛ فكأن معناها : « مقدم المسكر » ، وقد استعمل هذا المصطلح فى مصر فى عهد الدولة الفاطمية ، وكان حامله صاحب وظيفة تلى صاحب الباب وهو كما ذكر (القلقشندي : ج ٣ ، ص ٤٨٣) : « زمام كل زمام ، وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم ، وفى خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم » ، ثم أصبح هذا القرب فى مصر المملوكى مما يختص به أمراء الطباخانة أو من م فى مرتبتهم ، ويذكر القلقشندي أن الأمراء فى زمانه تركوا استعمال هذا القرب لأن العامة اعتادوا أن يقولوا لبعض من يقف بباب السلطان من الأعوان « اسنهلار » فكريه الأمراء « مشاركة بعض الأعوان فيه ، فأضربوا عنه لذلك ، أو لم يفهموا معناه فتركوه » . (صبح الأعشى : ج ٦ ، ص ٧ و ٨) .

(٢) هو الملك المنصور الثانى سيف الدين محمد صاحب حماة ، من نسل الملك المظفر الأول تقي الدين عمر بن شاهنشاه — ابن أخى صلاح الدين — ؛ ولى المنصور الثانى حكم حماة سنة ٦٤٢ هـ وظل على عرشها إلى أن توفى سنة ٦٨٣ ، وكان عالما محبا للعلماء ، فعاش ابن واصل سنين طويلة فى كنفه ، وله ألف كتابين من أم كتبه : مفرج الكروب هذا — كما يتضح من النص — ، وشرح كتاب الأغاني .

ذكر نسب بنى أيوب

لا خلاف في أن الملك الأفضل نجم الدين أيوب — رحمه الله — والد الملوك ، وأخاه الملك المنصور أسد الدين شيركوه ، وهما ابنا شاذي^(١) بن مروان ، ثم قيل إن مروان هو ابن محمد بن يعقوب ، وقيل مروان هو ابن يعقوب نفسه . وأختلف في أصلهم : فذكر عز الدين بن الأثير — المؤرخ الموصلي — أن أصلهم من الأكراد الروادية^(٢) ، وهم فخذ من الهذبانية .

وأنكر جماعة من ملوك بنى أيوب النسبة إلى الأكراد ، وقال : « إنما نحن عرب ، نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم » [٢] . وادعى بعضهم النسب إلى بنى أمية . وكان الملك المزمع إسماعيل^(٣) بن سيف الإسلام ظهير الدين

(١) هكذا ضبطه (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ١٥٢) ، وقال إن هذا الاسم مجمى ومعناه بالعربي فرحان .

(٢) في الأصل : « الروادية » ، وقد صحح اللفظ بعد مراجعة : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٢٨) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٩) و (المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤) و (ابن تفرى بردى : النجوم ، ج ٦ ، ص ٤) ، والحديث عن نسب بنى أيوب وأصلهم الكردي أو الأهوى العربي طويل ، أنظر لهذا ولذاك : (ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ١٨٧) و (المسعودى : التتبيه والاشراف ، ص ٨٩) و (الخبلي : شفاء القلوب ، ص ١٣ — ب) و (Enc. Isl. Art. Kurds.)

(٣) خرج من مصر في أوائل عهد صلاح الدين (٥٦٩ = ١١٧٣) جيش أيوبى لفتح اليمن ، وقد تولى هذا الفتح الملك المعظم تورانشاه الأخ الأكبر لصلاح الدين ، وقد تولى هذا الملك حكم اليمن بعد فتحها (٥٦٩ — ٥٧٧ = ١١٧٣ — ١١٨١) ثم خلفه أخ آخر هو سيف الإسلام طفتكين (٥٧٧ — ٥٩٣ = ١١٨١ — ١١٩٦) ، وبعد موته خلفه ابنه الملك المزمع إسماعيل (٥٩٣ — ٥٩٨ = ١١٩٦ — ١٢٠١) .

أنظر : (Lane-Poole: *Nohammadan Dynasties*, p. 98.) و (Zambaur: *Manuel de Genealogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam*, p. 98.)

وسيوخ ابن واصل فيما يلي لفتح اليمن ولكل ملك من هؤلاء في شيء من التفصيل .

طُفَيْكِين (١) بن أيوب — صاحب اليمن بعد أبيه سيف الإسلام ظهير الدين —
يَدْعَى ذلك ، وسمى نفسه : « المعز لدين الله » ، وخطب لنفسه بالخلافة (٢) في اليمن ،
وذلك في أيام عمه الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ، فأنكر ذلك الملك
العادل — رحمه الله — وقال : « لقد كذب إسماعيل ، ما نحن من بني أمية أصلاً » .
والذين ادَّعوا هذا النسب قالوا : « أيوب ، بن شاذي ، بن مروان ، بن الحكم ،
ابن عبد الرحمن ، بن محمد ، بن عبد الله ، بن محمد ، بن محمد ، بن عبد الرحمن ،
ابن الحكم ، بن هشام ، بن عبد الرحمن الداخل ، بن معاوية ، بن هشام ،
ابن عبد الملك ، بن مروان ، بن الحكم ، بن أبي العاص ، بن أمية ، بن عبد شمس ،
ابن عبد مناف » ، وفي عبد مناف يجتمع نسب رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
ونسب بني أمية . فهذا قول من جعل نسبهم في بني أمية .

وجاعة آخرون أثبتوا نسبهم في بني مرة بن عوف ، ومن أثبت ذلك الحسن
ابن غريب [بن عمران] الحرسي (٣) ، فإنه أوصل نسبهم إلى علي بن أحمد

(١) ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ٤٢٥ — ٢٦)
والكنه لم يعرفه وإنما قال : « وهو اسم تركي » ، وقد ضبطه صاحب (شفاء القلوب ص ٥٤ ب) :
« طُفَيْكِين » وذكر أنه يقال له أيضاً « طغتكين » .

(٢) ذكر هذه الحقيقة عنه كثرة المؤرخين ، فما ذكره (الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ١٧٤)
مثلاً أنه « ادعى أنه أموي ، ورام الخلافة ، ولبس ثيابها ، وكان طول الكم نحو عشرين ذراعاً ،
وسمى نفسه المهدي ، وأرسل إليه عمه العادل ينهيه عن ذلك ، وينكر فعله ، وقيل إنه ادعى
النبوة » . انظر أيضاً : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧١ — ترجمة صلاح الدين) ،
(المقرزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢) .

(٣) في الأصل : « حسن بن غريب الحرسي » ، وفي (شفاء القلوب ، ص ١٣ — ب) :
« ابن غريب » فقط ، وقد صحح الأسم وأضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (ابن خلكان :
الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧١) فهو أول من نقل هذا النسب عن هذا المؤرخ النسابة ،
الحسن بن غريب حيث قال : « ورأيت مدرجاً رتبة الحسن بن غريب الحرسي يتضمن أن أيوب
ابن شاذي بن مروان . . الخ » وعن ابن خلكان نقل هذا النسب المؤرخون اللاحقون
كابن واصل وغيره ، هذا ولم أعتز فيما بين يدي من مراجع على ترجمة أو تعريف للحسن بن غريب =

المُرِّي (١) الذي امتدحه المتنبي بقواه :

شَرِقَ الْجَوُّ بِالغِبَارِ إِذَا سَا رَ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الْقَمَّامُ
وأحضر هذا النسب إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى ، بن الملك العادل
— صاحب دمشق — ، فسمع النسب عليه ، وأسمعه ولده الملك الناصر صلاح الدين
داود ، في سنة تسع عشرة وستائة .

والنسب هو هذا :

« أيوب ، بن شاذي ، بن مروان ، بن أبي علي ، بن عثيرة (٢) ، بن الحسن ،
ابن علي ، [بن أحمد بن علي] (٣) ، بن عبد العزيز ، بن هُدَيْبَة ، بن الحَصِين ،
ابن الحرث ، بن سنان ، بن عمرو ، بن مُرَّة ، بن عَوْف » . ثم اختلف النسابون
بعد ذلك ، فالأكثرون قالوا :

« عوف ، بن سعد ، بن ذُبْيَان ، بن بَغِيض ، بن رَيْث ، بن غَطَفَان ، بن سعد ،
ابن قَيْس [بن] عَيْلَان (٤) ، [بن إلياس] (٥) ، بن مَضْر ، بن نَزَار ، بن مَعَدَّ ،
ابن عَدْنَان » . وبعضهم قالوا :

= الحرسي هذا . ثم قال ابن خلكان بعد أن ذكر الخبر والنسب : « هذا آخر ما ذكره
في المخرج ، وكان قد قدمه إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق ،
وسمه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود بن الملك المعظم ، وكتب
لها بسماها عليه في آخر رجب سنة تسع عشرة وستائة » .

(١) لعله يقصد أنه ينتسب بنسبه إلى مرة بن عوف ، وإلا فإن نص ابن خلكان — وهو المصدر
الذي ينقل عنه ابن واصل هنا — هو : « إن علي بن أحمد بن علي بن عبد العزيز يقال إنه ممدوح
المتنبي ويعرف بالحراساني ، وفيه يقول من جملة نصيدة . . الخ » .

(٢) كذا في الأصل ، وفي (شفاء القلوب ، ص ١٢) : « عثيرة » ، وفي (ابن خلكان :
الوفيات ، ج ٣ ص ٤٧١) : « عثرة » : أنظر أيضا : (ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ،
ج ٦ ص ١٣ هامش ٣) .

(٣) في الأصل : « ابن الحسن بن أبي علي بن عبد العزيز » وقد صححت وأضيف ما بين
الحاصرتين بعد مراجعة : (ابن خلكان) و (النجوم الزاهرة) ، الأجزاء والصفحات المذكورة
في الهامش السابق .

(٤) في الأصل : « قيس عيلان » وقد صححت بعد مراجعة : (ابن خلكان ، الوفيات)
و (ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة) . (٥) ما بين الحاصرتين عن الوفيات والنجوم .

« عَوْف ، بن لُؤي ، بن غالب ، بن قَهْر ، بن مالك ، بن النَّصْر — وهو الذي ينتمى إليه نسب قريش كلهم — ابن كِنانة ، بن خَزَيْمَة ، بن مُدْرِكَة ، بن إِبِاس ، بن مُضَرَّ ، ابن يَزَار ، بن مَعَدَّة ، بن عَدْنَان » . والنسابون مختلفون فيما وراء ذلك ، أى عدنان .
والذي ذكره صاحب السيرة ، أنه : « عدنان ، بن أدد ، بن مُقَمَّم ، [بن ناحور] (١) ، بن تيرح (٢) ، بن يعرب ، بن يشجب (٣) ، بن نابت ، ابن إسماعيل [٣] ، بن إبراهيم الخليل — صلوات الله عليهما — بن تارخ . وهو آزر ، ابن ناحور ، بن شاروخ ، بن أرغُو ، بن فالغ ، بن عابر ، بن أرفخشذ ، بن سام ، ابن نوح — عليه السلام — بن ملك ، بن متوشلخ ، بن أخنوخ — وهو إدريس عليه السلام — بن يرد (٤) ، بن مهليل (٤) ، بن قينان ، بن أنوش ، بن شيث ، ابن آدم — أبى البشر عليه السلام — » .

فهذا جملة ما قيل في نسبهم (٥) ، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

-
- (١) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (السيرة لابن هشام ، ص ٥ ؛ ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢٩ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ، ج ١ ، ص ١٩ ؛ انقشندى : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٠٦ — ٣٠٧) .
- (٢) فى الاصل : « نبرح » وقد صححت بعد مراجعة المراجع المذكورة فى الهامش السابق .
- (٣) فى الاصل : « شخب » ، وقد صححت بعد مراجعة المراجع السابقة .
- (٤) فى الاصل : « بن البارذ بن مهليل » والتصحيح عن المراجع السابقة .
- (٥) واضح من دراسة موطن الأيوبيين الاصلى ونشأتهم الاولى أنهم أكراد الجنس ؛ أما نسبتهم إلى أصل عربى فواضح أيضا أنها مسألة طارئة جدت بعد قيام دولتهم وإقامة ملكهم ، يؤيد هذا أسانيد تاريخية كثيرة ، منها ما يرويه ابن خلسكان عن شيخه وأستاذه بهاء الدين بن شداد — مؤرخ صلاح الدين — فقد ذكر أنه سمع شيخه بهاء الدين يحكى عن السلطان صلاح الدين أنه عندما سمع هذا النسب العربى أنكره ، وقال : « ليس لهذا أصل أصلا » ومنها ما ذكره (المقرئى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٧٨) فقد سرد هذا النسب العربى المدعى ثم علق عليه بقوله : « وهذه أقوال الفقهاء لهم من أراد الحظ لديهم لما صار الملك إليهم » ؛ أنظر أيضا : (الدكتور محمد مصطفى زياده ، المؤرخون فى مصر فى القرن ١٥ ، ص ١١) .

ذكر ابتداء أمر نجم الدين أيوب

وأخيه أسد الدين شيركوه

كان أسد الدين شيركوه (١) أكبر سنًا من نجم الدين أيوب ، وكانا من أهل مدينة دوين (٢) — وهي بلد من بلاد العجم قريب من أخلاط (٣) — فاتفق أنهما سافرا منها ، وقصدا العراق ، وخدموا الأمير مجاهد الدين بهروز (٤) الخادم ، وكان شحنة (٥) بغداد من قبل السلاطين السلجوقية ، وكانت تكريت (٦)

(١) شيركوه كلمة فارسية تتكون من لفظين : شير ومعناها أسد ، وكوه ومعناها جبل ؛ فالسكامة في جماتها تعني أسد الجبل .

(٢) هكذا ضبطها (ياقوت ، معجم البلدان) وعرفها بأنها بلدة من نواحي أران في آخر حدود أذربيجان بقرب من تفليس ، ومنها ملوك الشام بنو أيوب ؛ ولكن (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧٠) ضبطها دوين . وعرفها بما لا يختلف كثيراً عن ياقوت ، قال : هي بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج .

(٣) هكذا ضبطها (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٥٣) ، ويقال فيها أيضاً خلط ، وهي إحدى مدن إرمينية الكبرى .

(٤) هكذا ضبطه (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧٢) . وقال إنه لفظ عجمي معناه يوم جيد على التقديم والتأخير على طاعة كلام العجم ، وذلك أن به معناها جيد ، وروز معناها يوم ؛ وقد كان مجاهد الدين بهروز بن عبد الله الفياثي خادماً رومياً أبيض اللون ، تولى شحنة العراق من جهة السلطان مسعود السلجوقي . وكان صاحب مهمة في عمل المصالح الجليلة وسمارة البلاد ، واسع الصدر والصبر في البذل والانفاقات والمطاولة والمراجعة إذا امتنع عليه الغرض ، وبني في بغداد رباطاً وقف عليه وفقاً جيداً ، ومات في رجب سنة ٤٠ هـ .

(٥) جاء في اللسان : « وشحن البلد بالحيل ملاءم ، وبالبلد شحنة من الحيل أي رابطة ، قال ابن بري : وقول العامة في الشحنة إنه الأمير غلط » غير أن هذا اللفظ هو ما كان يستعمله الناس دائماً ويتردد في كتب التاريخ العربية في العصور الوسطى ، فالشحنة — ويقال الشحنة — رياسة الشرطة ، أو محافظ المدينة أو الأمير المنترف على حراستها ؛ ويجمع هذا اللفظ على : شحن ، وشحناني . انظر أيضاً : (المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٩٧٩ ، ٩٨٢ : Dozy: Sup. Dict. Arab) .

(٦) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال : والعامة تقول : تكريت ، وذكر أنها بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، وهي إلى بغداد أقرب ، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى وراكبة على دجلة ، وهي غربي دجلة .

إقطاعه فتقدما عند مجاهد الدين ، وفَوْضَ [مجاهد الدين] إلى نجم الدين أيوب دُزْدَارِيَّةَ (١) تَكَرَّيْتُ ، فسارا إليها ، ونزلا بقلعتها ، فأقاما بها مدة .

ولما وقعت الحرب بين الخليفة المسترشد بالله (٢) والأمير عماد الدين زنكي ابن آق سنقر سنة ست وعشرين وخمسة — على ما سنذكره — وكسر الخليفة عماد الدين زنكي ، خدم نجم الدين أيوب أتابك زنكي ، وأقام له السفن حتى عبر هناك دجلة ، واتبعه أصحابه ، وأحسن نجم الدين أيوب وأخوه (٣) أسد الدين شيركوه صحبته . وكان هذا أول المرفقة بين عماد الدين زنكي وبين نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه ، ومبدأ سعادتهما ، ولكل شيء سبب .

ثم جرى لنجم الدين أيوب ما أوجب صرفه عن ولاية تَكَرَّيْتُ ، فقيل : كان السبب أن أسد الدين شيركوه قتل إنساناً بتكريت ظلاماً ، فعزل مجاهد الدين أخاه [نجم الدين] (٤) لذلك ؛ وقيل : إن نجم الدين أيوب رمى مملوكاً من ممالك مجاهد الدين بهروز بسهم فقتله ، فغشى نجم الدين ، فتوجه نحو الموصل ومعه أخوه أسد الدين ، فحدا عماد الدين زنكي بن آق سنقر — صاحب الموصل — فأحسن إليهما ، وقربهما ، ورعى لهما خدمتهما له ، وبالغ في إكرامهما ، وأقطعهما إقطاعات جليلة وَتَرَقَّتْ [٤] أحوالهما عنده ، فلما فتح عماد الدين زنكي بعلبك ، جعل نجم الدين أيوب

(١) كلمة فارسية مكونة من لفظين : دُزْ — ويقال دُزْ — أي قلعة ، ودار الحافظ أو المسك ، فكان معناها صاحب القلعة أو متوليها ؛ انظر : (الجواليقي : العرب ، ص ٢٦٧ ؛ ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧٢ ؛ Dozy : Sup. Dict. Arab) .

(٢) المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله (٥١٢ — ٥٢٩) ؛ انظر تفاصيل هذه الحرب بينه وبين زنكي في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٨٩ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧) .

(٣) في الأصل : « وأخاه » .

(٤) أضفنا ما بين الحاصرتين ليتضح المعنى .

دِرْذَارًا فِيهَا ، فَلَمْ يَزَلْ مَتَوَلِبَهَا إِلَى أَنْ قُتِلَ عَمَادُ الدِّينِ زَنْكِي عَلَى قَلْعَةِ جَعْبَرِ سَنَةَ إِحْدَى^(١) وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةَ — عَلَى مَا سَنَدَ كَرَهُ .

وَكَانَ صَاحِبَ دِمَشْقَ إِذْ ذَاكَ مَجِيرُ الدِّينِ أَبَقَ^(٢) ، بَنُ جَمَالِ الدِّينِ مُحَمَّدٌ ، ابْنُ تَاجِ المُلُوكِ بُورِي^(٣) ، بَنُ ظَهْرِ الدِّينِ طُفَيْكِيْنَ ؛ وَكَانَ طُفَيْكِيْنَ هَذَا أَتَابِكُ المَلِكِ شَمْسِ المُلُوكِ دُقَاقَ ، بَنُ تَاجِ الدَّوْلَةِ تُتُّشَ ، بَنُ السُّلْطَانِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ السَّاجُوقِيْ ؛ فَلَمَّا مَاتَ دُقَاقَ اسْتَقَلَّ طُفَيْكِيْنَ بِمَلِكِ دِمَشْقَ ، وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ تَاجِ المُلُوكِ بُورِيْ ، ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَ تَاجِ المُلُوكِ ابْنُهُ شَمْسِ المُلُوكِ إِسْمَاعِيلُ ، فَقَتَلْتَهُ وَالدَّيْهَ ، وَمَلَكَتْ أَخَاهُ شَهَابُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ ، بَنُ بُورِيْ^(٣) ؛ ثُمَّ قَتَلَ شَهَابُ الدِّينَ ، وَوَلِيَ أَخُوهُ جَمَالُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ ، ثُمَّ تَوَفَّى جَمَالُ الدِّينَ ، وَمَلَكَ بَعْدَهُ وَوَلَدَهُ مَجِيرُ الدِّينِ أَبَقَ^(٢) ، وَكَانَ أَتَابِكُهُ وَالْقِيَمَ بِأَمْرِهِ مَعِينُ الدِّينِ أَنْزَرُ^(٤) — مَمْلُوكُ جَدِّهِ طُفَيْكِيْنَ — .

فَلَمَّا قُتِلَ عَمَادُ الدِّينِ زَنْكِي عَلَى قَلْعَةِ جَعْبَرِ ، رَاسَلَ مَجِيرُ الدِّينِ وَأَتَابِكُهُ مَعِينُ الدِّينِ نَجْمَ الدِّينِ أَيُّوبَ لِيَسْلَمَ إِلَيْهِمَا بَعْلَبِكَ ، عَلَى أَنْ يَعْطُوهُ إِقْطَاعًا جَلِيلًا بِدِمَشْقَ ، فَأَجَابَهُمَا إِلَى ذَلِكَ ، وَسَلَّمَ إِلَيْهِمَا بَعْلَبِكَ ، وَنَزَلَ نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبُ بِدِمَشْقَ ، وَتَسَلَّمَ الإِقْطَاعَ الَّذِي عُيِّنَ لَهُ ؛ وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ تَسْلِيمَ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ بَعْلَبِكَ

(١) فِي الأَصْلِ : « أَحَدٌ » .

(٢) فِي الأَصْلِ : « أَتَقَى » ، وَقَدْ صَحَّحَ الأَسْمُ بَعْدَ مَرَاجَعَةٍ : (Zambaur, Op. Cit. P. 225) وَمَجِيرُ الدِّينِ أَبَقُ هُوَ سَادِسٌ وَآخِرُ مَنْ حَكَمَ دِمَشْقَ مِنْ بَنِي بُورِيْ ، حَكَمَهَا فِي سَنَةِ ٥٣٤ ، وَظَلَّ بِحُكْمِهَا إِلَى أَنْ عَزَلَهُ عَنْهَا نُورُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ زَنْكِي فِي سَنَةِ ٥٤٩

(٣) فِي الأَصْلِ « نُورِيٌّ » .

(٤) تَكَادَ تَجْمَعُ المَرَاجِعُ عَلَى ضَبْطِ هَذَا الأَسْمِ هَكَذَا « أَنْزَرٌ » وَلَكِنْ القَدِيمِيٌّ انْفَرَدَ بِضَبْطِهِ كَمَا فِي المَثْنِ وَنَسَّ عَلَيْهِ « عَلَى الأَلْفِ ضَمًّا وَقَطَعَ الذَّوْنَ » وَقَدْ تَوَفَّى مَعِينُ الدِّينِ أَنْزَرُ فِي سَنَةِ ٥٤٤ ، وَدُفِنَ بِدِمَشْقَ بَقْبَتِهِ بَيْنَ هَارِ البَطِيخِ وَالشَّامِيَةِ ، وَبَنَى فِي دِمَشْقَ مَدْرَسَتَهُ العَيْنِيَّةَ لِتَدْرِيسِ المَذْهَبِ الحَنْفِيِّ . انظُرْ : (النِّعْمِيُّ : الدَّارِسُ فِي المَدَارِسِ ، ج ١ ، ص ٥٨٨ ؛ Zambaur: Op.

إلى صاحب دمشق كان سببه أنه راسل الأمير سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي - وهو أكبر من أخيه نور الدين محمود - رحمه الله - ليسلم إليه بعلبك ويرسل إليه من يحفظها ، فأبطأ عليه بسبب اشتغال سيف الدين بترتيب الممالك الشرقية ، وخاف نجم الدين أن تؤخذ منه عنوة ، وبناله أذى ، فسلمها إلى صاحب دمشق بسبب ذلك .

واتصل الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي - أخو نجم الدين أيوب - بخدمة نور الدين محمود ، بن عماد الدين زنكي ، وصار من أخص أصحابه ، ومقدماً على سائر أمرائه ، لما عرفه من شهامته وشجاعته ، وإقدامه في الحرب على ما لا يقدم عليه غيره ، ولم يزل حاله ينمو عنده إلى أن أقطعه مدينتي حمص والرحبة .

ولما قويت أطماع نور الدين محمود بن زنكي في ملك دمشق [٥] وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد ، أمر أسد الدين شيركوه بمكاتبة أخيه نجم الدين أيوب ، وكان بها مقيماً ، وطلب منه مساعدته على ما هو بصدده ، فطلب هو وأخوه نجم الدين أيوب من الإقطاع شيئاً كثيراً ببلد دمشق ، فبذل لها نور الدين ما طلبا ، وحلف لها على ذلك فساعد نجم الدين في تسليم البلد إلى نور الدين ، فتمسكه ، ووفى لها بما حلف لها عليه ، وصارت منزلتهما عنده في أعلا الرتب ، وصار أسد الدين شيركوه مقدم جيوشه وعساكره .

ثم كان من قصد أسد الدين الديار المصرية بعساكر نور الدين ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ولما كان ابتداء أمر نجم الدين وأخيه أسد الدين مبني على الدولة الأتابكية كان الأولى الابتداء بذكر الدولة الأتابكية .

ذكر ابتداء الدولة الأتابكية

كان قسيم الدولة آق سُنْقُرُ الحَاجِب . جَدُّ نور الدين محمود بن زَنْبِكِي — مملوكاً للسلطان العادل عضد الدولة ألب أرسلان ، بن داود ، بن ميكائيل ، بن سلجوق ، فربى مع ولده السلطان العادل جلال الدولة ملكشاه ، واستمر في صحبته إلى حين كبره ، وإفضاء السلطنة إليه ، فجعله من أعيان دولته ، وأكابر أمراءه ، وأخص أوليائه ، واعتمد عليه في أموره كلها ، وعلت مرتبته ومنزلته إلى أن لُقِّبَ : « قسيم الدولة » .

وفي سنة ست وسبعين وأربعماية سَيَّرَ السلطانُ جلالُ الدولة [ملكشاه] فخرَ الدولة بن جَهِير^(١) إلى ديار بكر ليتسلمها ، وأعطاه الكوسات^(٢) ، وسَيَّرَ معه العساكر ، فسار إليها ، ونزل بنواحي آمد .

وفي سنة سبع وسبعين وأربعماية أردفه السلطان بجيش كثيف من جملتهم الأمير أرتُقُ بن أكَسَب^(٣) — أبو الملوك الأرتُقية — وكان صاحبها وهو ابن مروان

(١) هو أبو نصر فخر الدولة محمد بن محمد بن جَهِير ، ولي الوزارة للخليفين القائم والمقتدى ، وتوفي سنة ٤٨٣ ؛ انظر أخباره في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢ وما بعدها ؛ ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٦٠ — ٢٦٤) .

(٢) عرفها (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٩ و ١٣) بأنها صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ، ومن يتولى ذلك يسمى الكوسى ؛ ويشبه أن يكون المقصود بها موسيقى الجيش أو (الطباخانة) — كما كانت تسمى في مصطلح العصور الوسطى — ؛ وفي (المنتظم : ج ٩ ، ص ٦) جملة توضح هذا المعنى وتؤكدده ، قال : « وعقد للوزير فخر الدولة على ديار بكر ، وخلع عليه الخلع ، وأعطى الكوسات ، وأذن له في ضربها أوقات الصلوات الخمس بديار بكر ، والصلوات الثلاث : الفجر والغرب والعشاء في المسكر السلطاني » .

(٣) في الأصل : « أكَسَت » ، وقد ضبط الاسم بعد مراجعة (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ١٠٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٤ ؛ Lane-Poole : *M. Dynasties*, P. 166) وذكر ابن خلكان أنه يقال فيه أيضاً : « أكَسَك » وبهذا النطق أخذ (Zambaur : Op. Cit. P. 230) فرسه هكذا : « Ortoq b. Eksek » ؛ أنظر ترجمة حياته وبياناته بأفراد أسرته في هذه المراجع جميعاً نفس الأجزاء والملاحظات .

الكردي (١) — لما نازلته العساكر السلطانية قد مضى إلى الأمير شرف الدولة مسلم ابن قريش بن بدران العقيلي — صاحب الموصل — رغباً في أن ينصره ويساعده على من قصده ، على أن يسلم إليه آمد ، فأجابته إلى ذلك ، واتفقا عليه ، وتحالفا ، واجتمعا على حرب فخر الدولة بن جبير .

فلما رأى فخر الدولة اجتماعهما مال إلى الصلح ، وقال : « لا أوتر [٦] أن يجل بالعرب بلاء على يدي . » فلم التركان ما قد عزم عليه ، فركبوا ليلاً ، وأتوا إلى العرب ، واحتاطوا بهم ، وذلك في ربيع الأول من هذه السنة ؛ والتحم القتال واشتد ، وانهمزت العرب ، ولم يحضر هذه الوقعة فخر الدولة ، ولا أرتق ؛ وغنم التركان حلل العرب ودوابهم ، وانهمز شرف الدولة ، وحمى نفسه حتى دخل إلى آمد ، فأنحصر فيها ، ونازله فخر الدولة ومن معه ، فراسل شرف الدولة [مسلم بن قريش] الأمير أرتق ، وبذل له مالا ، وسأله أن يمن عليه بنفسه (٢) ويمكنه من الخروج [من آمد (٣)] وكان هو على حفظ الطرق [والحصار (٣)] ، فأذن له في الخروج ، فخرج لتسع (٤) بقين من ربيع الأول ، وقصد الرقة وأرسل إلى الأمير أرتق

(١) ابن سروان المذكور هنا هو واحد من بني مروان حكام ميافارقين وآمد في القرن الخامس الهجري ، وهو أبو المظفر منصور بن نظام الدين أبو القاسم نصر بن نصر الدولة أبي نصر أحمد بن مروان الكردي ، حكم ميافارقين وآمد في المدة بين سنتي ٤٧٢ و ٤٧٨ ، (Zambaur: Op. Cit. P. 136) .

(٢) في الأصل : « أن يمن على نفسه » ، وما هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٤) . ويلاحظ أن المؤلف ينقل هذه الحوادث عن ابن الأثير نقلاً حرفياً في مظهره وبإيجاز يسير في أقله دون أن ينص على ذلك ؟ والرأي عندي أن ابن واصل إما أنه ينقل عن ابن الأثير للتشابه التام بين النصين وإما أنه ينقل عن المرجع الذي أخذ عنه ابن الأثير ، وذلك لأن ابن الأثير لم يكن معاصراً لهذه الحوادث .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات عن ابن الأثير للايضاح .

(٤) في ابن الأثير : « فخرج منها في الحادي والعشرين من ربيع الأول » ، وما فعله ابن واصل في المتن نموذج لأسلوبه في الإيجاز عن ابن الأثير أو عن مرجع ابن الأثير .

ابن أكتب بما [كان (١)] وعده [به (١)] ، ثم سار فخر الدولة بن جبير إلى ميفارقين ، ومعه الأمير بهاء الدولة [منصور (١)] بن مزيد — صاحب الحلة — وابنه الأمير سيف الدولة صدقة ، ففارقوه ، وعاد إلى العراق . ثم نازل فخر الدولة خلائط . ولما بلغ السلطان جلال الدولة (ملكشاه) انهزام شرف الدولة وحصره بآمد ، لم يشك في أسره ، فخلع على الوزير عميد الدولة بن فخر الدولة بن جبير ، وصيّره في جيش كثيف إلى الموصل ، وصيّر معه من الأصراء : الأمير قسيم الدولة آق سنقر الحاجب — المقدم ذكره — ؛ وكان الأمير أرتق قد رجع إلى السلطان ، وعاد صحبته (٢) عميد الدولة من الطريق ، ونازلوا الموصل وأرسلوا إلى أهلها يشيرون عليهم بطاعة السلطان ، ففتحوا البلد وسلموه إليهم ؛ وسار السلطان بنفسه إلى بلاد شرف الدولة ليملكها ، (٣) وكانت بلاده الموصل ، وديار ربيعة أجمع ، ومدينة حلب ، ومنبج ، وما بينهما من البلاد الجزيرية والفراتية (٣) ؛ فأنه انخبر بحركة أخيه تكش بخراسان ، ورأى شرف الدولة قد خرج من الحصر ، فأرسل مؤيد الملك بن نظام الملك إلى شرف الدولة — وهو مقابل الرحبة — فأعطاه العهود والمواثيق ، فحضر إلى عند السلطان — وهو بالبوازيج (٤) — فخلع عليه ، وذلك سلخ رجب ، وكانت أمواله قد ذهبت ، فاقترض ما خدم به [٧] ، وحمل للسلطان خيلاً رائقة (٥) ،

(١) ما بين الحاصرتين زيادات عن ابن الأثير للايضاح .

(٢) في الأصل : « واحد عن صحبه عميد الدولة » . والتصحيح عن : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٥٤ — ٥٥) .

(٣) هذه الجملة غير موجودة في ابن الأثير ، وإنما أضافها ابن واصل للايضاح ، وهكذا اعتماد عند ذكر أسماء الأعلام والبلدان أن يضيف إليها ما يعرف بها .

(٤) في الأصل : « البوازيج » ، وقد ضبطت بمد مراجعة ابن الأثير وياقوت ، وقد عرفها الأخير في (معجم البلدان) بأنها بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة ، ويقال لها بوازيج الملك وهي من أعمال الموصل ؛ ثم قال : وبوازيج الأنبار موضع آخر .

(٥) في الأصل : « رابطة » ، والتصحيح عن ابن الأثير .

من جملتها فرسه بشار — وهو فرسه المشهور الذي نجاه من المعركة على ما هو مذكور في أخباره — وكان لا يجارى ، فأمر السلطان أن يُسابق به الخيل ، فجاها سابقاً لها كلها ، فقام السلطان قائماً لما بداخله من العجب .

وأقر السلطان شرف الدولة على بلاده ، وأعاد إليه الموصل ، وهذا كله مذكور في موضع آخر يليق به ، وإنما سقناه هنا لتتصل أخبار آق سنقر التي نحن بصددتها . وكان صاحب قونية وأقصر ما يتصل بهما من البلاد الرومية الملك سليمان ابن قطلمش — وهو ابن عم السلطان جلال الدولة ملكشاه — قصد في هذه السنة — أعني سنة سبع وسبعين وأربعمائة — مدينة أنطاكية وهي بيد الروم — وكان ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة .

وكان صاحبها الفردوس الرومي قد سار عنها إلى بلاد الشام ، ورتب فيها شحنة ، — وكان الفردوس سيء السيرة في رعيته وفي جنده جداً — ، وكاتب (سليمان) الشحنة وابن الفردوس . لأن أباه (الفردوس) كان قد حبسه ، فكاتبها سليمان ليدلوا البلد إليه ، وركب البحر وقصدها في ثلاثمائة فارس ، وراجل كثير ، ثم خرج من البحر ، وسار في جبال وعرة ومضايق شديدة حتى وصل إليها للموعد . فنصب عليها السلايم باتفاق من الشحنة وابن الفردوس ، وصعد السور ، واجتمع بالشحنة ، ودخل البلد ، وذلك في شعبان ، فقاتله أهلها ، فهزمهم (مرة) بعد أخرى ، وقتل كثير من أهلها ، ثم عفا عنهم ، وتسلم القلعة المعروفة بالقسيان (١) ، وأخذ من الأموال ما يجاوز الإحصاء وأحسن إلى الرعية وعدل فيهم ، وأمر بعارة ماخرَّب ، ومنع أصحابه من النزول في دورهم ومخالطتهم ، وأرسل إلى السلطان جلال الدولة ملكشاه يبشره بذلك .

(١) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها واد ولم يزد .

وأرسل الأمير شرف الدولة [مسلم بن قريش ^(١)] - صاحب حلب والموصل - إلى الملك سليمان يطلب منه ما كان الفردوس يحمله من المال ، ويُخَوِّفه معصية السلطان ، فأجابته : « أما الطاعة للسلطان فهي شعاري وديناري ، والخطبة له والسكة في بلادى [٨] وقد كاتبته بما فتح الله على يدي بسعادته من هذا البلد [وأعمال الكفار ^(١)] ، وأما المال الذي كان يحمله صاحب أنطاكية [قبلى ^(١)] فهو كان كافراً ، وكان يحمل جزيته وجزية أصحابه ، وأنا بحمد الله مؤمن ، ولا أحمل شيئاً ، قهب شرف الدولة بلد أنطاكية ، قهب سليمان بلد حلب ؛ ووقعت بينهما فتنة ^(٢) اقتضت أنهما التقيا في يوم الجمعة الرابع والعشرين من صفر في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فانهزم شرف الدولة وأصحابه بعد أن قتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب [ثم قُتل شرف الدولة مسلم بن قريش في نفس اليوم - الرابع والعشرين من صفر ^(٣)] .

[ولما قُتل شرف الدولة سار سليمان بن قتلش إلى حلب] ، فحصرها إلى خامس ربيع الآخر ، فلم يبلغ منها غرضاً ، فوكل عنها . وكان [سليمان بن قتلش ^(٣)]

(١) ما بين الحاصرتين زيادات عن ابن الأثير للايضاح .
(٢) انظر تفاصيل هذه الفتنة في (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٦) فقد تجاوز ابن واصل عنها هنا إيجازاً .
(٣) النص هنا لا يستقيم مع المعنى ، لأن شرف الدولة قتل في هذه السنة بعد هزيمته مباشرة ، والذي تولى حصار حلب بعد موته هو سليمان بن قتلش ؛ والراجح عندي أن المؤلف لم يلتفت إلى هذا الخطأ وهو يوجب عن ابن الأثير ، أو أن هنا سقطا من عمل الناسخ سبب هذا الاضطراب في المعنى ، وقد أضفنا ما بين الحاصرتين لتصحيح والايضاح بعد مراجعة (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٥٧) ، وقد ترجم هناك لشرف الدولة بعد ذكر موته ترجمة مختصرة مفيدة تؤثر نقلها هنا إتماماً لفائدة ، قال : « وكان أحول ، وكان قد ملك من السندية التي على نهر عيسى إلى منبع من الشام وما والاها من البلاد ، وكان في يده ديار ربيعة ومضر من أرض الجزيرة والموصل وحلب ، وما كان لأبيه وعمه قرواش ، وكان طادلاً حسن السيرة ، والأمن في بلاده تام والرخس شامل ، وكان بسوس بلاده سياسة عظيمة بحيث يدبر الراكب =

قد أرسل إلى ابن الحنيتي (١) العباسي — مقدم حلب — يطلب منه تسليمها إليه ،
فأنفذ إليه مالا ، واستمهله إلى أن يكتب السلطان جلال الدولة ملكشاه ، وأرسل
ابن الحنيتي إلى الملك تاج الدولة تثنش ابن السلطان العادل عضد الدولة ألب
أرسلان — أخى السلطان — وهو يومئذ صاحب دمشق ، يعده أن يسلم إليه حلب ،
فسار تاج الدولة [تثنش] طالبا حلب ، وذلك في (٢) سنة تسع وسبعين وأربعمائة ،
فسار إليه ابن عمه سليمان بن قطامش (٣) ، ومع تاج الدولة الأمير أرتق بن أكسب ،
وكان قد فارق ابن جبير خوفاً أن ينهى إلى السلطان إطلاق شرف الدولة من آمد
— كما ذكرنا — وصار إلى خدمة تاج الدولة ، فأقطعه البيت المقدس وما يتصل به .
ثم التقى السكران ، فانهزم أصحاب الملك سليمان ، وثبتت هوى القلب ، فلما رأى
انهزام عساكره قيل إنه أخرج مكيناً [كانت] معه فقتل بها نفسه ، وقيل بل قتل
في المعركة ، واستولى تاج الدولة على معسكره .

وكان سليمان في السنة الماضية — في صفر — أنفذ جثة شرف الدولة ملفوفة
في إزار على بغل ، وطلب من أهل حلب أن يسلموها إليه ، وفي هذه السنة — في صفر —
أرسل الملك تاج الدولة جثة الملك سليمان في إزار على بغل ، وطلب من أهل حلب
أن يسلموها إليه ، فأجابته [ابن] الحنيتي أنه يكتب السلطان ، ومهما أمره فعل ،
فحصرت تاج الدولة البلد ، وضيق على أهله ، وسلم ابن الحنيتي كل برج من أبراجها

= والراكان فلا يخافان شيئاً ، وكان له في كل بلد قرية عامل وقاض وصاحب خبر بحيث لا يتعدى
أحد على أحد .

أنظر أيضاً : (Zambaur: O p. Cit. p. 135).

(١) في الأصل : « الحنيتي » والتصحيح عن ابن الأثير .

(٢) في الأصل : « وذلك في » وبها انتهى السطر ، ثم بدأ السطر التالي بقوله :

« وفي سنة تسع وسبعين الخ » وقد صححت بعد مراجعة (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٦٠) .

(٣) رسم هذا اللفظ في الأصل تارة بالتاء وتارة بالطاء .

إلى رجل من أعيان البلد ليحفظه ، [٩] وسلم برجاً من أبراجها إلى إنسان يعرف
بإبن الراعوني (١) .

ثم إن ابن الحتيتي أوحش هذا الرجل بكلام أغلظ له فيه ، وكان شديد القوة ،
ورأى ما الناس فيه من ضيق الحصار ، فراسل تاج الدولة يستدعيه ، وواعده ليلة
يرفع الرجال إلى السور في الجبال ، فأتى تاج الدولة [تُنش (٢)] للميعاد ، فأصعد الرجال
في الجبال والسلام ، وملك تاج الدولة البلد .

واستجار ابن الحتيتي بالأمير أرتق فشفع فيه ، وكان بالقلعة سالم بن مالك
ابن بدران العقيلي — وهو ابن عم شرف الدولة [مسلم بن قريش (٢)] — فأقام
تاج الدولة يحصر القلعة سبعة عشر يوماً ، ثم بلغه وصول مقدمة أخيه السلطان ،
فرحل عنها إلى دمشق .

وكان ابن الحتيتي قد كاتب السلطان [ملكشاه (٢)] ليسلم إليه حلب ،
فسار إليه من أصفهان ، وعلى مقدمته الأمير برسق ، وُبُرَّان (٣) ، وغيرها من الأمراء ،
وجعل طريقه على الموصل ، فوصلها في رجب ، وسار عنها ووصل إلى حَرَّان فسلمها
إليه ابن الشاطر ، فأقطعها الأمير محمد بن شرف الدولة بن بدران ، ثم سار إلى الرُّها
— وهي بيد الروم — فحصرها وملكها ، وكانوا قد اشتروها من ابن عطير .

ثم سار إلى قلعة جَبَّير ، فحصرها يوماً وليلة وملكها ، وقتل جماعاً من بني قَشِير (٤) ،
وأخذ جَبَّيراً صاحب القلعة (٥) — وكان شيخاً أعمى — وولدين له ، وكانوا يقطعون
الطريق ويخيفون السبيل ، ثم عبر منها الفرات ، فملك مدينة منبج في طريقه

(١) كذا في الأصل ، وفي ابن الأثير : « ابن الرعوى » .

(٢) أضفنا ما بين الحاصرتين للايضاح .

(٣) كذا في الأصل ، وفي ابن الأثير : « بوزان » .

(٤) في الأصل : « بشير » ، والنصحیح عن : (ياقوت : معجم البلدان ، مادة جبر) .

(٥) ذكر (ياقوت : معجم البلدان) أن جبر قلعة على الفرات بين بلس والرقة قرب صُفِين ،
وكانت قديماً تسمى « دوسر » فملكها رجل من بني قَشِير أعمى يقال له جبر بن مالك ، ولما قصد السلطان
جلال الدين ملك شاه بن أرسلان ديار ريعة وهضر نازلها وأخذها من جبر ونفى عنها بني قَشِير .

ولما قارب حلب رحل أخوه تاج الدولة — كما ذكرنا — على البرية ،
ومعه الأمير أرتق ، وكان أشار أرتق على تاج الدولة أن يكبس السلطان ، وكانوا
قد وصلوا ، وبهم وبدوابهم من التعب ما لم يبق معه امتناع ، ولو فعل لظفر بهم ؛
فقال تاج الدولة : « لا أكره جاه أخى الذى أنا مستظل بظله ، فإنه يعود على بالوهن
أولا » . وسار إلى دمشق .

ولما وصل السلطان إلى حلب تسلم المدينة ، وسلم إليه شمس الدولة سالم
ابن مالك^(١) بن بدران القلعة على أن يعوضه عنها قلعة جبر ، وكان قد امتنع
بالقلعة أولاً [١٠] فأمر السلطان أن يرمى إليه بالنشاب رشقاً واحداً ، فرمى الجيش كله
عن يد واحدة ، فكادت الشمس أن تحتجب من كثرة النشاب فعوضه السلطان عنها
قلعة جبر ، ولم تزل بيده ويد أولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين
محمود بن زنكى^(٢) — رحمهم الله — على ما سنذكره .

وأرسل الأمير نصر^(٣) بن على بن منقذ الكنانى — صاحب شيزر — إلى السلطان ،
ودخل في طاعته ، وسلم إليه اللاذقية ، وكفر طاب ، وظامية ، [فأجابه إلى المسالمة ،
وترك قصده ، وأقر عليه شيزر^(٤)] .

(١) فى الأصل « مالك بن سالم » ، والتصحيح عن ابن الأثير و (Zambaur: Op. Cit. p. 135)

(٢) ولى شمس الدولة سالم بن مالك بن بدران العقيلي قلعة جبر من سنة ٤٧٩ إلى ٥١٩ ،
ثم وإيها من بعده شهاب الدولة مالك بن على بن سالم إلى سنة ٥٦٤ حيث ملكها نور الدين محمود ،
أنظر : (Zambaur: Op. Cit, P. 135) .

(٣) فى الأصل : « نصير » وهو الأمير عز الدولة أبو مرهف نصر بن على بن نصر بن منقذ .
(Zambaur: Op. Cit. p.104)

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن ابن الأثير للايضاح ، وقد أسقطها المؤلف عند الاختصار ،
هذا وفى ابن الأثير فقرة أخرى — أسقطها المؤلف أيضاً — تشير إلى مصير ابن الحتيتي ،
وقد آثرنا ذكرها هنا لتم الفائدة ، قال : « وأما ابن الحتيتي فكان واثقاً باحسان السلطان
ونظام الملك إليه ، فانه استدعاهما ، فلما ملك السلطان البلد طلب أهله أن يعفيهم من ابن الحتيتي ،
فأجابهم إلى ذلك واستصعبه معه ، وأرسله إلى ديار بكر ، فافتقر وتوفى بها على حال تنديدة
من الفقر ، وقتل ولده بأنطاكية ، قتله الفرنج لما ملكوها » .

ذكر استيلاء الأمير قسيم الدولة آق سنقر

الحاجب على مدينة حلب

ولما تسلّم السلطان حلب سلمها إلى حاجبه الأمير قسيم الدولة آق سنقر في هذه السنة - أعني سنة تسع وسبعين وأربعمائة - وقيل بل سلمها إليه سنة ثمانين ، فاستولى عليها وعلى أعمالها : كمنبج ، واللاذقية ، وكفر طاب ، وأقطع السلطان مدينة الرّها مجاهد الدولة بزّان (١) ، وأقطع أنطاكية الأمير ياغى سيان (٢) ، وظهرت كفاة الأمير قسيم الدولة وحمايته ، وعظمت هيئته في جميع بلاده .

ثم إن السلطان استدعاه إلى العراق فقدم عليه في تيجل عظيم ، ولم يكن في عسكر السلطان من يقاربه ، فاستحسن ذلك منه ، وعظم محله عنده ، ثم أمره بالعود إلى حلب ، فعاد إليها ، ورخصت الأسعار في أيام الأمير قسيم الدولة ، وأقيمت الحدود الشرعية ، وعمرت الطرقات ، وأمنت السبل ، وقتل المفسدون بكل فج ، وكان كلما سمع بمفسد أو بقاطع طريق أمر بصلبه على أبواب المدينة .

وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة جمع الأمير قسيم الدولة عسكره ، وقصد شيزر وحاصرها وصاحبها نصر بن علي بن منقذ ، وضايقها ونهب ريفها ، ثم صالحه صاحبها وعاد إلى حلب .

(١) هو أبو الفوارس مجاهد الدين بوزان بن مامين الكردي ، توفي سنة ٥٥٥ هـ ، أنظر أخباره وترجمته في : (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٩ والصفحات المذكورة في الفهرس الأبجدي) .

(٢) في الأصل : « ياغى سيار » ، وقد ضبط الاسم بعد مراجعة : (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١٧) ، وهو في (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ١١٣) : « ياغيسيان » وفي (ياقوت : معجم البلدان ، مادة أنطاكية) : « بيسغان » ، وعن أخباره واستيلاء الفرنج على أنطاكية أثناء حكمه لها أنظر : (حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، ج ٤٨ وما بعدها وما به من مراجع) .

وفي سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة أسس القاضي أبو الحسن بن الخشاب (١) منارة حلب ، وكان بحلب بيت معبد نار ، قديم العمارة ، صار بعد ذلك أتون حمام ، فأخذ ابن الخشاب حجارتها ، وبني بها المنارة ، فأتهى بهض حسّاده إلى الأمير قسيم الدولة خبره ، فغضب على القاضي ابن الخشاب ، فاستحضره وقال : « هدمت معبداً هو لي وملكي » . فقال : « أيها الأمير ، هذا معبد للنار ، وقد صار أتوناً [١١] فأخذت حجارتها لأعمر بها معبداً للإسلام ، يُذكر فيه الله وحده لا شريك له ، وكتبتُ اسمك عليه ، وجعلت الثواب لك ، فإن رسمت غرمت ثمنه لك (٢) ، ويكون الثواب لي ، فعلتُ » . فأعجب الأمير كلامه ، واستصوب رأيه ، وقال : « بل الثواب لي ، وافعل ما تريد » . فشرع في عمارة المنارة وانتهى في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة .

منازلة قسيم الدولة حمص واستيلائه عليها

في هذه السنة نازل الملك جلال الدولة توتش بن السلطان ألب أرسلان ، والأمير قسيم الدولة آق سنقر ، والأمير مجاهد الدولة بُزّان (٣) — صاحب الرُّها — حمص ، وسبب

(١) هو القاضي أبو الحسن محمد بن يحيى بن محمد بن الخشاب ؛ والمؤلف لا ينقل هنا عن ابن الأثير ، وإنما ينقل قطعا عن تاريخ حلب لابن العديم ، فقد نقل هذا النص عنه ابن الشحنة في : (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، ص ٦٦ — ٦٧) ، وعليه راجعنا النص هنا وصحناه لأننا لم نتمكن من مراجعة تاريخ ابن العديم فإنه لم يطبع بعد ؛ وأنظر ترجمة القاضي أبي الحسن في : (ابن الشحنة ، ص ٦٨) .

(٢) النص في ابن الشحنة : « فان رسمت لي أن أهرم ثمن الأُحجار ويكون الثواب لي فعلت » وانظر هناك أخباراً تفصيلية عن هذه المنارة وتاريخها .

(٣) في الأصل : « مجاهد الدولة بن ألب أرسلان » وهو خطأ ، والصحيح ما ذكرناه بعد مراجعة : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٨٣) أنظر أيضاً ما فات ، ص ١٩ ، هامش ١

ذلك أنها كانت بيد سيف الدولة خلف بن ملاعب الأشهبي^(١) ، فأساء السيرة ، ونزل على سلمية ، وأخذ الشريف إبراهيم الهاشمي ، ورماه بالمنجنيق إلى برج سلمية ، وأخذ قوماً من بني عمه مأسورين ، فمضى من بقي منهم واستغاثوا إلى السلطان جلال الدولة ملكشاه ، فخرج أمر السلطان إلى أخيه تاج الدولة - صاحب دمشق - وقسيم الدولة - صاحب [حلب - ومجاهد الدولة بزّان - صاحب (٢)] الرّها - بالتزول على حمص ، والقبض على ابن ملاعب وتسييره ، فنزلوا على حمص وحاصروها ، وأخذوه وسبّروه إلى السلطان ، فأقام في الحبس إلى أن توفي السلطان ، فأطلقتها خاتون زوجة السلطان . وتسلم آق سنقر قلعة حمص ومدينتها ، ولما خلاص ابن ملاعب من الحبس صار إلى مصر ثم عاد منها وتسلم حصن أقمية ، وبقيت في يده سبع عشرة سنة وكان مدة ملكه بحمص سبع عشرة سنة .

وفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة تسلم قسيم الدولة حصن أقمية .

ثم سارت تاج الدولة ، ومعه قسيم الدولة آق سنقر ، إلى طرابلس ، فحاصرها ، وبها صاحبها جلال الملك بن عمار ، فرأى جيشاً لا يدفع بحيلة ، ولم يرفههم مطعماً ، وكان مع الأمير قسيم الدولة آق سنقر وزير^(٣) فراسله ابن عمار ، فرأى فيه لنا ، فأتحفه وأعطاه ، فسعى مع صاحبه قسيم الدولة في إصلاح حاله ، ليدفع عنه ، وبجمل إليه ثلاثين ألف دينار ونحوها بثمنها ، وعرض عليه [١٢] المناشير التي بيده

(١) كذا بالأصل ، ولم أجد أحداً من المؤرخين نعت هذا النمت غير ابن واصل ، وإنما اتفقوا جميعاً على تسميته بخلف بن ملاعب الكلابي ، أنظر : (ابن القلانسي ، ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٤٩) و (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٨٣ وما بعدها) و (كرد علي : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٢٦٩ وما بعدها) .

(٢) ما بين الحاصرتين ورد بهامش الأصل ، وأشير إلى مكانه بعلامة في المتن .

(٣) في الأصل : « وزيراً » وقد ذكر (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٨٣) أن هذا الوزير

كان اسمه : « زرين كمر (؟) » .

من السلطان بالبلد ، والتقدم إلى النواب بتلك البلاد بمساعدته ، والشد معه (١) والتحذير من مخالفته ؛ فقال قسيم الدولة لتاج الدولة : « لا أقاتل من هذه المناشير بيده » . فأغلظ له تاج الدولة ، وقال : « هل أنت إلا تابع لي ؟ » فقال قسيم الدولة : « أنا أتابعك ، إلا في معصية السلطان فلا » . ورحل من الغد عن موضعه ، فاضطر تاج الدولة إلى الرحيل ، فرحل غضبان ، وعاد بجاهد الدولة بُزَّان إلى بلاده .

وفي سنة خمس وثمانين وأربعمائة اجتمع مع الأمير شرف الدين إبراهيم ابن قريش بن بدران العقيلي — صاحب الموصل — عرب كثير ، وكان معتقلا في قبضة أخيه ، فلما قتل استبد بالأمر ، وانضاف إليه خلق كثير من العرب ، وكان محبوباً كريماً ، فلقبه الملك جلال الدولة ، والأمير قسيم الدولة ، فهزموه ، ونهبوا من معه من العرب ، وسبوا نساءهم (٢) .

وفي هذه السنة توفي السلطان جلال الدولة ملكشاه ببغداد ، فطمع أخوه (٣) تاج الدولة — صاحب دمشق — في السلطنة ، واستمال قسيم الدولة — صاحب حلب — ، ومجاهد الدولة بُزَّان — صاحب الرُّها — ، وكان تاج الدولة — قبل ذلك — في خدمة أخيه ببغداد ، فلما انفصل راجعاً إلى بلاده ، بلغته وفاة أخيه وهو بهيئت ، فسار إلى دمشق ، وتجهز وجمع العساكر ، وأنفق الأموال ، وسار نحو حلب ، فخرج قسيم الدولة إلى خدمته ، ودخل في طاعته ، وأرسل إلى ياغيسيان (٤) — صاحب أنطاكية — ، وبُزَّان — صاحب الرُّها — وأشار عليهما بالدخول في طاعة السلطان تاج الدولة حتى يروا ما يكون من أولاد السلطان ملكشاه ،

(١) في الأصل : « منه » ، والتصحيح عن ابن الأثير .

(٢) أنظر أخبار إبراهيم بن قريش بن بدران العقيلي التفصيلية من سنة ٤٨٢ إلى أن تمت عليه

الجزيمة في هذه السنة ٤٨٥ في : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١) .

(٣) في الأصل : « أخاه » .

(٤) في الأصل : « ياغى سيار » ؛ أنظر ماقات ، ص ١٩ ، هامش ٢

فإنه كان بينهم يومئذ حلف كبير ، ففعلوا ذلك ، ودخلوا تحت طاعته ، واتفقوا على الخطبة له على منابر بلادهم ، ثم قصدوا الرحبة ، وحاصروها ، وملكوها في المحرم (١) سنة ست وثمانين وأربعمائة ، وخطب لنفسه بالسلطنة ، ثم سار إلى نصيبين — وبها نواب إبراهيم بن قريش بن بدران العقيلي — صاحب الموصل — فحصرها وفتحها عنوة [١٣] وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ، ونهب الأموال ، وفعل الأفعال القبيحة ، ثم سلمها إلى الأمير محمد بن شرف الدولة بن بدران ، وسار يريد الموصل .

وكان الأمير إبراهيم بن قريش بن بدران قد استدعاه السلطان ملكشاه سنة اثنتين وثمانين ليحاسبه ، فلما حضر عنده اعتقله ، وأنفذ فخر الدولة بن جهير إلى البلاد ، فملك الموصل وغيرها ، وبقى إبراهيم مع ملكشاه ، وسار معه إلى سمرقند ، وعاد إلى بغداد ، فلما مات السلطان [ملك شاه] أطلقت زوجته تركان (٢) خاتون ، فسار إلى الموصل .

وكانت صفية — عمة السلطان [ملكشاه (٣)] وزوجة شرف الدولة (٤) ، [ولها منه ابنه (٥)] على — ثم تزوجت بعد شرف الدولة بأخيه إبراهيم ، فأقطعها

(١) يتفق هذا التاريخ مع ما جاء في (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١) فهو ينقل عنه نقلاً يكاد يكون حرفياً ، أما (Zambaur, Op. Cit. P. 30) فيذكر أن السلاجقة استولوا على الرحبة ونصيبين في سنة ٤٨٥

(٢) في الأصل : « بركات » ، والتصحيح عن : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١) و (أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٢٠٣) .

(٣) أضفنا ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير للإيضاح .

(٤) في الأصل : « شرف الدين » والتصحيح عن ابن الأثير ، أنظر أيضاً السطور التالية هنا .

(٥) في الأصل : « وابنه علي » وبها يفسد المعنى ، والتصحيح عن : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١) حيث ينقل عنه ابن واصل هنا نقلاً يكاد يكون حرفياً .

السلطان [مدينة (١)] بَلَدٍ؛ فلما مات السلطان قصدت الموصل ومعا ابنها علي ،
فقصدها محمد بن شرف الدولة ، وأراد أخذ الموصل ، فافترق العرب فرقتين : فرقة معه ،
وفرقة مع صفية — عمة السلطان — وابنها علي ؛ فاقتلوا بالموصل عند الكناسة ،
فظهر (٢) علي ، وانهزم محمد ، وملك سعد الدولة علي بن شرف الدولة الموصل .

فلما وصل إبراهيم إلى جهبنة — وبينه (٣) وبين الموصل أربعة فراسخ —
سمع أن الأمير علياً — ابن أخيه — قد ملك الموصل ، ومعه أمه صفية خاتون
— عمة السلطان [ملكشاه (١)] — ، فأقام مكانه ، وراسل صفية ، وترددت الرسل
بينهما ، فسلمت إليه البلد ، فأقام به ، فلما ملك تاج الدولة [تَنْشُ (١)] نصيبين ،
أرسل إليه يأمره أن يخطب له بالسلطنة ، ويعطيه طريقاً إلى بغداد لينحدر إليها ،
[ويطلب الخطبة بالسلطنة (١)] فامتنع إبراهيم من ذلك ، فسار إليه تاج الدولة ،
وتقدم [إبراهيم أيضاً (٤)] نحوه ، فالتقوا بالمضيق (٥) — من أعمال الموصل —
في ربيع الأول ؛ وكان إبراهيم في ثلاثين ألفاً ، وتاج الدولة في عشرة آلاف ؛
وكان قسيم الدولة في الميمنة ، وبُزْآن في الميسرة ، فتمت الهزيمة على العرب ، وأسر
إبراهيم ، وجماعة من أمراء العرب ، فقتلوا صبراً ، وأخذت أموالهم ، وسُبيت
نساؤهم ، وقتل كثيرٌ من نساء العرب أنفسهن ، خوفاً من الفضيحة .

وملك تاج الدولة [تَنْشُ] الموصل ، وولاهها للأمير سعد الدولة علي بن
شرف الدولة — ابن عمته — ، وأرسل إلى بغداد يطلب من الخليفة المقتدى

(١) أضفنا ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير للايضاح .

(٢) في ابن الأثير « فظفر » .

(٣) في الأصل : « وبينها » ، والتصحيح عن ابن الأثير .

(٤) في الأصل : « تاج الدولة » ولا يستقيم المعنى به ، والتصحيح عن ابن الأثير .

(٥) في الأصل : « بالمضيق » وما هنا عن ابن الأثير ، ولم أجد لهذا المكان تعريفاً

فيما بين يدي من مراجع .

بأمر الله الخطبة [١٤] له بالسلطنة ، — وكان الشحنة ببغداد كوهرايين — (١) وقيل لرسوله : « إنا ننتظر وصول الرسل من العسكر » . وعاد إلى تاج الدولة الجواب . ثم سار السلطان تاج الدولة تُنْشُ فَمَلِكُ مِيَّافَرَقِينَ ، وديار بكر أجمع ، وقويت شوكته ، وعظم أمره ، وسار إلى أذربيجان ؛ وكان ابن أخيه — السلطان ركن الدين بركيارق بن ملكشاه — قد قوى ، وصارت بيده الريّ وهمذان وما يليهما ، فسار بالمساكر ليمنع عمه من البلاد ، فقارق قسيم الدولة آق سنقر ومجاهد الدين بزان تاج الدولة ، وانحازا إلى السلطان ركن الدين بركيارق ، فعاد تاج الدولة إلى الشام .

ذكر مقتل الأمير قسيم الدولة آق سنقر

ولما عاد السلطان تاج الدولة من أذربيجان لم يزل يجمع المساكر حتى عظمت جموعه ، وكثر حشده ، فسار في جمادى الأولى (٢) سنة سبع وثمانين وأربعمائة [عن دمشق (٣)] نحو حلب ، فحشد الأمير قسيم الدولة والأمير مجاهد الدين [بوزان (٤)] — صاحب الرها — وأمدهما السلطان بركيارق بالأمير كزبوقا (٤) ،

(١) في الأصل : « كوهراوتين » ، والتصحيح عن ابن الأثير ؛ وقد رسم هذا الاسم في (صدر الدين أبو الحسن علي بن ناصر : أخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد إقبال ، ص ٥١ ، ٥٤ ، ٧٢) « كهرائين » . أنظر ترجمة سمد الدولة الكوهرايين بالتفصيل في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ، ص ١١٥ — ١١٦) .

(٢) في الأصل : « جمادى الآخر » ، والتصحيح عن (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٩٥) فهو الأصل الذي ينقل عنه ابن واصل . أنظر أيضا ما يأتي ص ٢٦ .

(٣) ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير للايضاح .

(٤) في الأصل : « كزنوقا » والتصحيح عن ابن الأثير ، وهو أبو سبید قوام الدولة كزبوقا أو كزبوقا حاكم الموصل ، أنظر أخباره في : (ابن القلانسي ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٤٠) و (Zambaur, Op. Cit. P. 38) وقد توفي كزبوقا سنة ٤٩٤

فالتقى الجمعان بمكان يعرف بنهر سبّعين (١) ، قريباً من تل السلطان (٢) ، بينه وبين حلب ستة فراسخ ، فقتلوا قتالاً شديداً ، فحاصر بعض العسكر الذين مع قسيم الدولة ، فانهزموا ، وتمت الهزيمة بسبب انهزامهم ، وأخذ آق سنقر أسيراً ، وأحضر بين يدي السلطان تاج الدولة ، فقال : « لو ظفرت بي ما كنت صنعت بي ؟ » قال : « كنت أرى قتلك » . قال : « فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم علي » ، فقتله صبراً .

وسار [تاج الدولة] نحو حلب ، وكان قد دخلها (٣) : كَرْبُوقًا ، و بُرْزَانَ (٤) ، فحفظاها ، فحصرها تاج الدولة ، ولجّ في حصرها ، فسلمها إليه المقيم بقلعة الشريف (٥) ، ومنها دخل البلد ، وكانت الواقعة التي قُتل فيها قسيم الدولة يوم السبت لتسع مضين من جمادى الأولى ، وكان نزوله على حلب يوم الأحد غد هذا اليوم ، ومعه رأس قسيم الدولة ، وتسلمها العصر من ذلك اليوم ، وبات بقلعة الشريف ، وتسلم قلعة حلب يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة مضت من جمادى [الأولى] ، وأخذ بُرْزَانَ

(١) ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) ، ولكنه لم يذكر أنه نهر ، وإنما عرفه بقوله : سبعين قرية بباب حلب كانت إقطاطا لمتني من سيف الدولة .

(٢) كان يعرف هذا المكان قبل بالمرج الأحمر ، وإنما عرف بتل السلطان بعد ذلك لأن السلطان ألب أرسلان الساجوق خيم به مدة فنسب إليه ، هكذا ذكر (ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، ص ١٣٦) .

(٣) كذا في الأصل ، ويلاحظ أن ابن واصل كثيرا ما يلتزم مذهب « أكلوني البراغيث » فيستعمل الفعل المتني والفعل الجمع مع وجود الفاعل ، ولم نشأ نحن أن نغير ما التزمه المؤلف محافظة على أسلوبه .

(٤) في الأصل : « كرنوقا و زاب » والتصحيح عن (ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٩٦) أنظر أيضا ما فات .

(٥) لم أجد لهذا المكان تعريفا في المراجع التي بين يدي ، والظاهر أنها كانت إحدى القلاع الهامة القائمة في حلب وقتذاك ، فقد قال (ابن القلانسي ، ص ١١٨) في حوادث سنة ٤٧٨ : « وفيها شرع في هجارة القلعة الشريف بحلب وترميم ما كان مدم منها وإعادتها إلى ما كانت عليه في حال هجارتها » .

وَكِرْبُوقًا [١٥] أُسِيرِينَ ، وَبُعْثَ إِلَى حَرَانِ وَالرُّهَا ، — وَكَانَتْ لِبِرْزَانَ —
أَنْ [يَسْلُمَهَا مِنْ بَيْهَا (١)] إِلَيْهِ ، فَامْتَنَعَ أَهْلُهَا مِنَ التَّسْلِيمِ ، فَقَتَلَ بِرْزَانَ ، وَأَنْفَذَ
رَأْسَهُ إِلَيْهِمْ ، وَتَسَلَّمَ الْبَلَدَيْنِ ، وَبُعْثَ كِرْبُوقًا إِلَى حَمَصَ ، فَجَبَسَ بِهَا ، وَكَانَتْ لَأَقِ
سَنْقَرًا ، فَتَسَلَّمَهَا ، وَسَلَّمَهَا إِلَى جَنَاحِ الدَّوْلَةِ حَسِينَ أُنَابَكَ وَوَلَدَهُ الْمَلِكِ فَخْرَ الْمَلِكِ رِضْوَانَ ،
فَلَمَّا قُتِلَ تَاجُ الدَّوْلَةِ أَخْرَجَ الْمَلِكُ رِضْوَانَ كِرْبُوقًا مِنَ الْحَبْسِ .

ذِكْرُ سِيرَةِ الْأَمِيرِ قَسِيمِ الدَّوْلَةِ (٢) — رَحِمَهُ اللَّهُ —

[كَانَ] أَمِيرًا عَادِلًا ، حَسَنَ السَّيْرَةِ ، جَمِيلَ السِّيَاسَةِ ، وَكَانَ شَرْطَ عَلَى أَهْلِ
كُلِّ قَرْيَةٍ مِنْ بِلَادِهِ أَنْهُمْ مَتَى أَخَذَ عِنْدَهُمْ قَتْلًا أَوْ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ، غَرَّمَهُمْ جَمِيعَ
مَا يَتَّخِذُونَ مِنَ الْأَمْوَالِ — قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا — ، فَكَانَتْ السِّيَارَةُ إِذَا بَلَّغُوا قَرْيَةً
مِنْ بِلَادِهِ ، أَلْقَوْا رِحَالَهُمْ ، وَنَامُوا ، وَحَرَسَهُمْ أَهْلُ تِلْكَ الْقَرْيَةِ إِلَى أَنْ يَرْحَلُوا ،
فَأَمَّنْتَ السَّبِيلَ .

وَكَانَ عِنْدَهُ وِفَاءٌ عَظِيمٌ وَحَسَنٌ عَهْدٌ ، وَصَرُوءَةٌ غَزِيرَةٌ ، وَإِنَّمَا كَانَ قَتْلُهُ وَفَاءً
لِسُلْطَانِهِ وَرَبِّ نِعْمَتِهِ جَلَالِ الدَّوْلَةِ ، وَحَفِظًا لَوْلَدِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَإِنَّمَا صَارَ مَعَ تَاجِ
الدَّوْلَةِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ خَوْفًا مِنْهُ ، وَلِأَنَّ بَنِي صَاحِبِهِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ اتِّفَاقٌ ، فَلَمَّا اسْتَفْجَلَ
أَمْرَ السُّلْطَانِ بَرَكِيَارِقَ — وَوَلَدَ صَاحِبِهِ — انْحَازَ إِلَيْهِ وَقَتَلَ فِي هَوَاهُ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَكَاتَبَ لِبِرْزَانَ أَنْ يَسْلُمَهَا إِلَيْهِ » ، وَهُوَ خَطَأٌ فَضَّلَاهُ أَنْ يَخْتَصِرَ مَخْلُ
بِالْمَعْنَى ، وَقَدْ صَحَّحَتِ الْعِبَارَةُ وَأَضْيَفَ مَا بَيْنَ الْحَاصِرَيْنِ بَعْدَ مَرَاجَعَةِ ابْنِ الْأَثِيرِ .
(٢) أَنْظَرَ تَرْجَمَتَهُ فِي : (ابْنُ خُلْكَانَ : ج ١ ، ص ١٣٩) .

ذكر أخبار عماد الدين زنكي

ابن قسيم الدولة آق سنقر - رحمه الله -

لم يخلف [آق سنقر] من الولد غير أتابك زنكي ، وكان عمره حين توفي والده عشر سنين ، فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه ، وفيهم الأمير زين الدين علي كوجك بن بكتكين^(١) ، وهو صبي أيضاً ، ولما تخلص كزبوقا من سجن حمص - بعد مقتل تاج الدولة تئش - توجه إلى حران ، واجتمع إليه جماعة ، فلحقها ، وملك نصيبين ، ثم ملك الموصل وماردين ، وعظم شأنه وأحضر مماليك قسيم الدولة آق سنقر ، وأمرهم بإحضار عماد الدين زنكي ، وقال : « هو ابن أخي ، وأنا أولى الناس به وبتريته » . فأحضره عنده ، وأقطعهم الإقطاعات السنية ، وجمع عماد الدين زنكي مماليك أبيه ، واستعان بهم في حروبه ، وأقام عماد الدين في صحبة كزبوقا إلى أن توفي في سنة أربع وتسعين وأربعمائة .

وملك الموصل موسى التركماني^(٢) ، ثم شمس الدولة جكرمش^(٢) - أحد مماليك السلطان [١٦] جلال الدولة ملكشاه - فقرب عماد الدين زنكي ، واتخذه ولداً إلى أن توفي جكرمش في سنة خمسمائة .

ثم ولي بعد جكرمش جاولي سقا ، واتصل به عماد الدين زنكي .

(١) في الأصل هنا وفيها يلى دائماً « علي كوجل بن بكتكين » وقد ضبط الاسم بعد مراجعة : (ابن القلانسي ، ص ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٧ ، ٣٣٧ ، ٣١٦) و (Zambaur, Op. Cit.) P. 38 وسنوا إلى ضبط الاسم كما بالمتن كلما ورد ذكره بعد ذلك دون الإشارة .

(٢) ملك الموصل ستة شهور من سنة ٤٩٥ هـ ، ثم أخذها منه جكرمش (Djekermish) في ذي الحجة من نفس السنة وظل يتولاها إلى سنة ٥٠٠ هـ ؛ انظر : (Zambaur, Op. Cit.)

ثم ولي الموصل الأمير مودود^(١) — من نسل السلطان غياث الدين محمد ابن ملكشاه — وصحبه عماد الدين زنكي ، وحضر معه حروبه .

ثم قُتل مودود بدمشق ، فأقطع السلطانُ الموصل لجيوش بك ، وسيرَّ معه الملك مسعود — ولده — ، وسيرَّ قسيم الدولة اسباسلار^(٢) البرُسُقي^(٣) آق سنقر في الجيوش لقتال الفرنج^(٤) ، وكانوا قد ملكوا سواحل الشام وفتحوا البيت المقدس ، فسار وصحبه عماد الدين زنكي ، فحاصروا الرُّها ، وأخربوا بلاد سروج وسنجار وميساط ، ثم عادوا ، وأقام عماد الدين زنكي بالموصل في صحبة الملك مسعود بن السلطان محمد ، والأمير جيوش بك .

وفي سنة إحدى عشرة وخمسة وألذ نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، وفيها توفي السلطان محمد ، فأقر ولده السلطان محمود بن محمد أخاه مسعوداً^(٥) بالموصل مع جيوش بك .

وفي سنة أربع عشرة وخمسة خرج مسعود عن طاعة أخيه السلطان محمود ، فخطب لنفسه بالسلطنة ، ثم التقى الاخوان ، فكسر مسعود ، وأمنه السلطان ، وأمن جيوش بك ، وأقطع الموصل قسيم الدولة آق سنقر البرُسُقي سنة خمس عشرة

(١) وليها من سنة ٥٠٢ إلى سنة ٥٠٧ ، أنظر المرجع بالهامش الثاني من الصفحة السابقة .

(٢) أنظر ماكات ص ٢ هامش ١

(٣) في الاصل هنا وفيما يلي : « البرسقي » وقد ضبط الاسم بعد مراجعة : (ابن خلكان ، الوفيات ، ج ١ ، ص ١٤٠) ، وهو أبو سعيد سيف الدين قسيم الدولة آق سنقر البرسقي : صاحب الموصل ، ملكها بعد قتل الأمير مودود سنة ٥٠٧ ، وقتل البرسقي سنة ٥٢٠ فلك الموصل بعده ابنه عز الدين إلى أن مات في سنة ٥٢١ فملكها بعده عماد الدين زنكي ، وسيضبط الاسم فيما يلي دون الاشارة إلى ذلك في الهوامش .

(٤) في الأصل : « لقتال آق سنقر الفرنجي » وهو لاشك خطأ من الناسخ .

(٥) في الأصل : « مسعود » .

وخمسة ، وأمر السلطانُ آق سنقر [البرُسُقي] بحفظ عماد الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند إشارته ، ففعل ذلك .

وفي سنة ست عشرة وخمسة أقطع عماد الدين زنكي شُحْنَكِيَّة (١) البصرة وواسط ، وعِظْم شأنه ، وهابه الأمير دُبَيْس بن صدقة — صاحب الحلة — وهم دُبَيْس بقصد بغداد ، فسار إليه آق سنقر البرُسُقي بنفسه ، وتبعه الخليفة المسترشد بالله ، فانهزم عسكر دُبَيْس ، وقتل منهم وأسر خلق كثير ، وكان لعماد الدين أثر حسن في هذه الواقعة ، وذلك في أول المحرم سنة سبع عشرة وخمسة

ولحق دُبَيْس بالسلطان طُغْرُل بن السلطان محمد ، [١٧] وكان معه عاصياً على السلطان محمود ، وأمر السلطان لآق سنقر البرُسُقي أن يرجع إلى الموصل فعاد ، فقال عماد الدين لأصحابه : « قد ضجرتنا مما نحن فيه ، كل يوم يملك البلد أمير ، ويؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته ، فتارة نحن بالعراق ، وتارة بالشام ، وتارة بالموصل ، وتارة بالجزيرة » . فسار من البصرة إلى السلطان محمود ، وأقام عنده ، فكان يقف إلى جانب تخت الملك عن يمينه ، لا يتقدم عليه أحد ، وهو مقام والده قسيم الدولة [آق سنقر] من قبله ، وبقي لعقبه من بعده .

ثم بلغ السلطان أن العرب قد اجتمعت ، ونهبت البصرة ، فأعلم عماد الدين زنكي بالمسير إليها ، وأقطعه إياها ، لما بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي وقت اختلاف المساكر والحروب ، ففعل ذلك ، فعظم عند السلطان ، وزاد محله عنده ، وكان جرى بين برتقش (٢) الزكوى — شُحْنَة (١) بغداد — وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة ، فتهدهه المسترشد ، فسار عن بغداد إلى السلطان شاكياً

(١) أنظر ماقات ، ص ٧ ، هامش ه

(٢) كذالى الأصل ، وفي (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢٤٩) : « برتقش » .

من المسترشد ، وحذر السلطان جانبه ، وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه من العراق ، فسار السلطانُ إلى بغداد ، وجرت حروب ووقائع ، ليس هذا موضع (١) ذكرها .

ذكر تولى الأمير عماد الدين زنكى (٢)

شحنكية (٣) بغداد

ثم نظر السلطان محمود بن محمد فيمن يصلح لشحنكية العراق ، بحيث يأمن معه من الخليفة ، ويضبط الأمور ، فرأى أن زنكى أصلح الناس لذلك ، فولأه الشحنكية — مضافاً إلى ما بيده من البلاد والإقطاع — وسار السلطان من بغداد .
وفي سنة عشرين وخمسة مائة قُتل آق سنقر البرُستى ، قتله الباطنية (٤) ، وكانت بيده الموصل وحلب .

ذكر استيلاء عماد الدين زنكى على الموصل

لما توفى البرُستى فوَّض السلطان الأمر بعده بالموصل إلى ولده الأمير عز الدين مسعود بن آق سنقر [البرستى] ، فلم تطل أيامه ، وتوفى في سنة إحدى وعشرين وخمسة مائة ، وولى بعده أخ له ، وقام بتدبير أمره مملوك لأبيه ، يقال له جاولى ، فأرسل إلى السلطان محمود [١٨] يطلب تقرير البلاد على ولد آق سنقر البرُستى ،

(١) أنظر تفاصيل هذه الحروب والوقائع في (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢٤٩ وما بعدها) .

(٢) أنظر ترجمته في : (ابن خلكان : الوفيات ج ١ ، ص ٣٤٣ — ٣٤٤) و (أبوشامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧ وما بعدها) .

(٣) أنظر ما فات ، ص ٧ ، هامش .

(٤) أنظر تفاصيل قتله في : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ١٤٠) .

وبذل الأموال الكثيرة على ذلك ، وكان الرسول في ذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن
على بن القاسم الشهرزوري ، صلاح الدين محمد الباغيساني (١) — أمير حاجب
البرسقي — فحضرا دركاة (٢) السلطان ليخطباه في ذلك ، وكانا يخافان (٣) جاولي
ولا يرضيان بطاعته ، فاجتمع صلاح الدين [محمد الباغيساني] ونصير الدين جقر (٤) ،
وكانت بينهما مصاهرة ، وذكر له صلاح الدين ما ورد فيه ، وأفشى (٥) إليه سره ،
فخوفه نصير الدين [من (٦)] جاولي ، وقبح عنده طاعته ، وقرّر في نفسه [أنه (٦)]
إنما أبقاه وأمثاله لحاجته إليهم ، ومتى أجيب إلى مطلوبه لا يبقى على أحد منهم .

وتحدث معه صلاح الدين في أن يخاطب السلطان في ولاية عماد الدين زنكي ،
وضمن له الولايات والإقطاع الكثير ، وكذلك للقاضي بهاء الدين بن الشهرزوري ،
وخطباه في ذلك ، وضمننا له كلما أراد ، فوافقهما على ما طلبا .

وركب هو وصلاح الدين إلى دار الوزير شرف الدين أنوشروان [بن (٧)] خالد ،
فقالا : « إنه قد علمت أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها ،

(١) في الأصل : « الباعساني » ، أنظر ماقات ص ١٩ ، هامش ٢

(٢) الدركاة — والجمع دركاوات — عرفها (Dozy, Supp Dict Arab.) فقال إنها
لفظ فارسي معناه القضاء أو للمر المؤدى إلى مدخل قصر أو بناء كبير : (Cour devant un
palais, vestibule, portique. porte)

(٣) في الأصل : « يخافا » .

(٤) هو نصير الدين جقر بن يعقوب نائب عماد الدين زنكي على الموصل إلى سنة ٥٣٩
حيث قتل ، وقد رسم هذا الاسم في (Zambaur, Op. Cit. P. 38) هكذا : « نصير الدين
تشرافا Nasiraddin Tschaghra » ، أنظر بعض أخباره في : (ابن القلانسي : ص ٢١٧ ،
٢٦٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨١) .

(٥) في الأصل : « وأفشا » بالألف .

(٦) أضفنا ما بين الحاصرتين عن : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٤)
وذلك للايضاح .

(٧) ما بين الحاصرتين عن ابن الاثير ، نفس الجزء ، والصفحة ، وهو شرف الدين أنوشروان
ابن خالد بن محمد الكاشاني ، ولي الوزارة لسلطان محمود السلجوقي في العراق من ويبيع الثاني
سنة ٥٢١ إلى رجب سنة ٥٢٢ ، أنظر : (Zambaur, Op. Cit. P. 225) .

وقد قويت شوكتهم فاستولوا على أكثرها ، وقد أصبحت ولايتهم من حدّ مارد بن إلى عريش مصر — ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين — ، وقد كان البرسقي — مع شجاعته — يكفّ بعض عاديّتهم ، فمذ قُتل زاد طمعهم ، وولده طفل ، ولا بد للبلاد من رجل شهيم شجاع ذى (١) رأى وتجربة يذبّ عنها ويحمي حوزتها ، وقد أنهيينا الحال إليك لئلا يجرى خلل أو وهن على المسلمين ، فيختص اللوم بنا ، ويقال لنا : لم لا أنهيتم إلينا جليلة الحال . فأنهى الوزير ذلك إلى السلطان ، فشكرها عليه ، وأحضرها ، واستشارها (٢) فيمن يصلح للولاية ، فذكر (٣) جماعة ، منهم : عماد الدين زنكى ، وبذلا عنه — تقربا إلى خزانة السلطان — مالا جليلاً ، فأجاب [السلطان] إلى ذلك ، لما يعلمه من كفايته لما يليه ، وولاه البلاد كلها ، وكتب منشوره بذلك (٤) وضم إليه ولده الملك ألب أرسلان — المعروف بالخفاجى — وجعله أتابكه ، فمن ثم قيل لزنكى : « أتابك (٥) » ، فسار أتابك زنكى (٤) .

(١) فى الأصل : « ذو » .

(٢) فى الأصل : « واستشاره » والتصحيح عن ابن الأثير حيث ينقل عنه هنا ابن واصل نقلا يكاد يكون حرفياً مع تغييرات طفيفة فى اللفظ دون المعنى .

(٣) فى الأصل : « فذكروا » والتصحيح عن ابن الأثير .

(٤) هذه الجملة لا توجد فى ابن الأثير وإنما أضافها ابن واصل من عنده للإيضاح ، وهو إيضاح له أهميته لتحديد التاريخ الذى لقب فيه عماد الدين بلقب أتابك وهو اللقب الذى ميز الدولة التى حكمت من نسله .

(٥) « أتابك » لقب يتكون من لفظين تركيبين : أطا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير ، وذكر صاحب (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨) أن أول من لقب بهذا اللقب هو نظام الملك وزير ملكشاه بن أب أرسلان الساجوقى (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة ، ثم أصبح ملوك السلاجقة يطلقون هذا اللقب على كبار قواد جيشهم الذين يولونهم الوصاية على أبنائهم القاصرين . وكثيراً ما كان الأمير الأتابك يتزوج أم الطفل الموصى به ، وبذلك تصبح العلاقة بينه وبين هذا السلطان القاصر علاقة شبه أبوية . أنظر أيضاً : (Demombynes: *La Syrie à l'Époque des Mamlouks*, Pref P. XXVII, LVI) و (دائرة المعارف الإسلامية : مادة أتابك) .

وبدأ بالبوازيج^(١) [١٩] فلكها ، وتقوى بها ، وجعلها وراء ظهره ،
لأنه خاف من جاولى أنه ربما صدّه عن البلاد ، ثم سار من البوازيج إلى الموصل ،
فلما سمع جاولى يقربه من البلد ، خرج إلى تلقيه ، ومعه سائر العسكر ، فلما رآه
جاولى نزل عن فرسه ، وقبّل الأرض بين يديه ، وعاد في خدمته إلى الموصل ،
فدخلها في رمضان ، وأقطع [عماد الدين زنكى] جاولى الرحبة ، وسبّره إليها ،
وأقام بالموصل يصلح أمورها ويقرر قواعدها ، وولّى نصير الدين جقر دزدارية^(٢)
[القلعة^(٣)] بالموصل ، وجعل إليه دزدارية سائر القلاع ، وجعل صلاح الدين محمداً
أميراً حاجباً^(٤) ، وبهاء الدين قاضى القضاة في البلاد جميعها .

ذكر استيلاء عماد الدين

على جزيرة ابن عمر^(٥)

ثم سار عماد الدين إلى جزيرة ابن عمر ، وبها ممالك البرشقي ، فامتنعوا
من التسليم ، فحصرهم وراسلهم ، وبذل لهم البذول الكثيرة على أن يجيبوه ،
فلم يجيبوا ، فجدّ في قتالها ، وبينه وبين البلد دجلة ، فأمر الناس بالقاء أنفسهم
في الماء ، ليعبروا إلى البلد ، ففعلوا ، وعبر بعضهم سباحة ، وبعضهم في السفن ،

(١) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بأنها بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل
حيث يصب في دجلة ، ويقال لها بوازيج الملك ، وهي الآن (أى في زمن ياقوت) من أعمال
الموصل ؛ ثم قال : وبوازيج الأنبار موضع آخر .

(٢) أنظر ماقت ص ٨ ، هامش ١

(٣) ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥) .

(٤) في الاصل : « أمير حاجب » والتصحيح عن ابن الأثير .

(٥) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بأنها بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام تحيط
بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلاك ، ثم قال : وأحسب أن أول من عمرها الحسن بن عمر
ابن الخطاب النخعي وكانت له امرأة بالجزيرة .

وبعضهم في الأكلاك (١) ، وتكاثروا على أهل الجزيرة ، وكانوا قد خرجوا من الجزيرة إلى أرض بين الجزيرة ودجلة ، تعرف بالزلاقة ، ليمنعوا من يريد عبور دجلة ، فلما عبر العسكر إليهم قاتلوهم ومانعهم ، فتكاثر عسكر عماد الدين عليهم ، فانهزم أهل البلد ، وتحصنوا بأسواره ، واستولى عماد الدين على الزلاقة ، فلما رأى ذلك أهل البلد علموا أن لا خلاص لهم منه ، فسلموا إليه البلد بالأمان ، فدخل إليه هو وعسكره ، وزادت دجلة في تلك الليلة زيادة منكرة ، بحيث لحقت (٢) سور البلد ، وامتلات الزلاقة ماء ، ولو أنهم أقاموا ذلك اليوم ، ولم يتفق لهم الدخول للبلد ، لغرقوا ولم يسلم منهم أحد ، فلم الناس أن ذلك بداية سعادة ، وأن أمر هذه الدولة لعظيم .

استيلاء عماد الدين زنكي على نصيبين

ثم سار عماد الدين زنكي إلى نصيبين ، وكانت للأمير حسام الدين نمرتاش ابن إيلغازي ابن أرتق (٣) — صاحب ماردين — فلما نازلها سار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة (٤) داوود ابن معين [٢٠] الدين [سُقمان (٥)] بن أرتق

(١) الكَّك — والجمع كلكات أو أكلاك — لفظ فارسي معناه السفينة الصغيرة وجاء في (محيط المحيط) : « الكك مركب يركب في أنهر العراق ويعرف بالطوف » أنظر أيضاً : (Dozy : Supp. Dict. Arab.) حيث ذكر أن هذا اللفظ استعمل في قصة السندباد البحري ، وللإيضاح كذلك أنظر : (قامم الدجيلي في مجلة لغة العرب ، الأجزاء ١ و ٢ و ٣ سنة ١٩٠١) و (Kindermann : Schiff im Arabischen) وما به من مراجع . وراجع أيضاً : (البطريك أغناطيوس أفرام الأوك : الألفاظ السريانية في المعاجم العربية . بحث نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، أعداد سنة ١٩٥٠) حيث يرى أن اللفظ من أصل سرياني .

(٢) في س « أخفت » ، وما هنا من ابن الأثير .

(٣) في الأصل « يرتق » ، وقد صححت بعد مراجعة (Zambaur , Op.cit. p. 228, 230)

وقد حكم حسام الدين هذا ماردين من سنة ٥١٦ إلى ٥٤٧ هـ .

(٤) في الأصل : « الدين » والتصحيح عن : (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥)

و (Zambaur. p. 228)

(٥) في الأصل : « شهاب الدين بن أرتق » والتصحيح عن المرجعين المذكورين

في الماهش السابق . وقد حكم ركن الدولة داود هذا حصن كيفا من سنة ٥٠٢ إلى سنة ٥٥٣٩ هـ .

صاحب حصن كيفا ، فوعده النجدة ، وجمع العسكر ، وعاد حسام الدين إلى ماردين ، وأرسل رقاعا على جناح طائر إلى نصيبين ، يعرف من بها من العسكر أنه وابن عمه ساثران إليهم في العسكر الكثير ، ويأمرهم بحفظ البلد خمسة أيام ، فسقط الطائر على خيمة عماد الدين ، فقرأها ، وأمر أن يكتب بطاقة غيرها ، مضمونها : إني قصدت ابن عمي ركن الدولة (١) ، وقد وعدني النصر ، وجمع العساكر ، وما نتأخر عن الوصول أكثر من عشرين يوماً ، ويأمرهم بحفظ البلد هذه المدة إلى أن يصل ، وجعل البطاقة في الطائر وأرسله ، فوقع بنصيبين ، فلما وقف أهل البلد على البطاقة أسقط في أيديهم ، وعلموا عجزهم عن حفظ البلد هذه المدة ، فسلموا البلد إلى عماد الدين ، فتسلمه ، وهذا من غرائب الاتفاق .

استيلاء عماد الدين زنكي على سنجار والخابور

ثم سار إلى سنجار ، فامتنع من بها عليه ، ثم صالحوه ، وسلموها إليه ، وسير منها الشَّحْن إلى الخابور ، فملكه جميعه ، ثم سار إلى حرَّان .

استيلاؤه على حرَّان

ولما قاربها ، خرج أهلها مدعين له بالطاعة ، لأنهم كانوا في ضرر عظيم وضيق من الفرنج — لعنهم الله — فإنه كانت بأيديهم يومئذ الرُّها وسرُّوج والبيرة ، وتلك البلاد ، وتلك النواحي جميعها .

ولما ملك حرَّان أرسل إلى جوساين — صاحب الرُّها وتلك البلاد — وهادنه مدة يسيرة ، ليتفرغ لإصلاح البلاد ، وتجنيد الأجناد ، وكان أهم الأمور إليه أن يعبر الفرات ويملك البلاد الشامية .

(١) في الأصل : « الدين » أنظر ما فات ص ٣٥ ، هامش ٤

ذكر استيلاء الشهيد عماد الدين زنكي

على مدينة حلب

وكان آق سنقر البرُستقي قد ملك حلب ، فلما قُتل آق سنقر [هذا (١)] بالموصل كان ولده عز الدين مسعود بقلعتها (٢) فسار إلى الموصل وملكها ، واستناب بقاتها رجلا يقال له : « قومان (٣) » ، ولما استتب أمره (٤) سار إلى الرحبة ليحاصرها . وورد إلى حلب غلام السلطان محمود ، يقال له : « خُتْلُغُ أَبَه (٥) » أتى بتوقيع من الأمير عز الدين يتضمن تسليم حلب إليه ، وصحبته سنقر [٢١] الطويل الملقب عمدة الدين — صاحب حُرَّان — المعروف بدران (٦) ، فسلمَّ التوقيع إلى قومان (٣) ، فلم يقبل واحتج بعلامة بينه وبين عز الدين لم يتضمنها التوقيع ، واعترف بالخط ، وكان بينهما العلامة صورة غزال ، لأن عز الدين كان أحسن الناس نقوشاً وتصاور ، وكان مفرط الذكاء ، وطال الأمر على خُتْلُغُ أَبَه ، ولم يسلم إليه البلد ، فأشير إليه بالعود ، فعاد ، وكان عز الدين محاصراً الرحبة ، فوصل [ختلغ (١)] في خمسة أيام ، فوجد مسعوداً قد مات ، وهو مطروح على قطعة بساط ، والعسكر مشغولون عن دفنه ،

(١) أضفنا ما بين الحاصرتين للإيضاح .

(٢) الضمير هنا يعود على حلب .

(٣) في الأصل : «نومان» ، والتصحيح عن (ابن الأثير) و (Zombaur: Op. Cit. p. 34)

(٤) الضمير هنا طائد على عز الدين مسعود بن آق سنقر البرستقي صاحب حلب .

(٥) كذا في الأصل ، ويرسم أيضاً « قتلغ » أنظر المرجعين بهامش ٣

(٦) كذا في الأصل ، ولم أستطع تحقيق الاسم بعد مراجعة المراجع المتداولة هنا في الحواشي ، ويلاحظ أن ابن واصل لا ينقل في هذا الجزء عن ابن الأثير ، وفيما أورده هنا عن الاستيلاء على حلب تفاصيل كثيرة لا توجد في الكامل لابن الأثير أو ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي أو المختصر لأبي الفدا . وأهلب الظن أنه ينقل هنا عن تاريخ حلب لابن العديم وإن كنت لم أطلع عليه فهو لا يزال مخطوطاً ، وهذا الاختلاف جيناً والاتفاق جيناً آخر بين النصين يؤكد ما ذهبنا إليه من أن المؤرخين يأخذان عن مرجع واحد .

وقد نهب بمضهم بعضا ، فعاد خُتَنُغُ أبه إلى حلب في ثلاثة أيام ، وعرف الناس موته ، فأدخله الرئيس فضائل بن بديع — رئيس حلب — المدينة ، واستنزلوا قومان من القلعة بعد ماصح عنده وفاة صاحبه ، فصانعهم على ألف دينار ، وسلم القلعة إلى خُتَنُغُ أبه ، واستحلفه الحلبيون ، واستوثقوا منه .

وطلع [خُتَنُغُ] إلى القلعة لست بقين من جهادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمس مائة ، فبقي أياماً يظهر منه شر عظيم وفسق كبير ، فتشوشت قلوب الرعايا منه ، وحمله قوم على الطمع ، فصار يختم على تركة من يموت ، ويرفعها إليه ، ولا يكشف : هل له ورثة أم لا ؟ فاشتدت نفرة الناس منه وعرف الرئيس فضائل والأمير بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق — الذى كان قبل ذلك صاحب حلب — أنه قد عزم على قبضهما ، فتحالفا ، واتفقا ، واتفق معهما أحداث حلب ، فثاروا ليلة الثلاثاء ثانى شوال من هذه السنة ، وكان خُتَنُغُ أبه وحجابه وخواصه فى قلة ، وكلهم يشربون فى البلد عند أصحابهم ، لانه عشية يوم العيد ، فقبض عليهم الحلبيون ، وملأوا منهم الحبوس والمساجد ودار ابن الاقريطشى ، وقيدهم ، وزحف الناس إلى باب القلعة ، وحاصروها ، فقاتلهم النهار أجمع ، ولما كان الليل نزل وأحرق القصر ، فتلفت سقوفه وأبوابه ، وذهبه وأخشابه ورخامه .

وهجم الناس [٢٢] صبيحة تلك الليلة ، وأخذوا منه ماقدروا عليه ، وقتل خلق كثير من الناس ، ووصل الأبرار حسن وحسان — ابنا البعلبكي صاحبا منبج — من بزاعة (١) سابع شوال ، فساماه الخروج ، فأبى ، ثم وصل الجوسلين — ملك الفرنج — فى مائتى فارس إلى بانقوسا ، ونفذ رسوله يصانعه فدفنوه .

(١) فى (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٧٦) : « فوصل إلى حلب حسان صاحب منبج وحسن صاحب بزاعة » .

وفي آخر شوال وصل الملك إبراهيم بن رضوان بن تاج الدولة تأسس ، فأدخله أهل حلب البلد ، ونادوا بشعاره ، ثم وصل بيمند الأفرنجي - صاحب أنطاكية - وضايق البلد ، فركب الملك إبراهيم وبدر الدولة سليمان بن أرتق والرئيس فضائل ابن ربيع في خلق من الحلبيين ، وزددت الرسل بينهم حتى استقر الأمر على الهدنة مدة ، وحمل إلى بيمند ما اقترحه بعد أن أشرف البلد على الهلاك .

وطال الحصار على ختلغ أبه إلى نصف ذي الحجة ، فوصل الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقوش ، ومع سنقر وحسن توقيع سلطاني عماد الدين زنكي بالموصل والجزيرة والشام ، ومعهما جماعة من الأمراء ، واتفق الأمر على أن يسير ختلغ أبه وبدر الدولة [بن عبد الجبار] إلى الأمير عماد الدين زنكي فلمن ولي استقر الأمر (١) ، فمضيا إلى باب عماد الدين ، وبقي في البلد حسن قراقوش والياً ولاية مستعارة .

ولما مضى بدر الدولة وختلغ أبه إلى عماد الدين أصاح بينهما ، ولم يقع لأحد ، وطمع في البلد ، وسير جيشاً مع الأمير صلاح الدين الياغيسباني - حاجبه - فمضد إلى قلعة حلب ، ورتب الأمور فيها .

ثم سار الأمير عماد الدين إلى الشام - في جيوشه وعساكره - فملك بزاعة ومنبج في طريقه ، وخرج أهل حاب إليه ، فالتقوه واستبشروا بقدومه ، ودخل البلد ، واستولى عليه ، ورتب أموره ، ثم قبض على ختلغ أبه ، وسلمه إلى ابن بديع ، فكحلّه (٢) بداره بحاب ، فمات ، فاستوحش ابن بديع ، فهرب إلى قلعة جعبر ، واستجار بصاحبها فأجاره .

(١) كذا في الأصل ، والمعنى غير واضح ، والمقصود أن أي الرجلين يولي عماد الدين يستقر له الأمر .

(٢) في الأصل : « فمات » والتصحيح عن (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٧٧) حيث يعود النص هنا فيتنق ونس ابن الأثير اتفاقاً كبيراً .

وولّى عماد الدين رياسة حلب أبا الحسن علي بن عبد الرزاق ، وكان دخول
عماد الدين مدينة حلب واستقراره بها في [٢٣] جمادى الآخرة من سنة اثنتين
وعشرين وخمسة .

ثم صار من حلب إلى خدمة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه — في نجمل
عظيم — ، وعاد من عنده إلى الموصل في سنة ثلاث وعشرين وخمسة ، ومعه
منشوره بالجزيرة والشام وما اتصل بهما ، بعد أن يحمل إلى السلطان وأصحابه ما يزيد
على مائة ألف وعشرين ألف دينار .

وفي مستهل رجب سنة أربع وعشرين وخمسة وصل عماد الدين زنكي
إلى الفرات ، وفتح قلعة السن (١) ، وسير عسكرياً أغاروا على بلد عزاز (٢)
— وهي للفرنج — وعاثوا في بلد جوسلين ، وذلك للبلتين بقيتا من رجب ؛
ونخيم عماد الدين ظاهر حلب ، وترددت الرسل بينه وبين الفرنج ، واصطاحوا
مدة ؛ ولعشر بقين من شعبان تزوج الأمير عماد الدين خاتون بنت الملك رضوان
ابن تنش .

(١) كذا في الأصل ، ولم أستطع تحقيق هذا الموقع لأن أخبار استيلاء عماد الدين على هذه
القلعة وعلى عزاز ثم خبر زواجه لم ترد جميعاً في حوادث سنة ٥٢٤ في المراجع السكينة التداولة
في هذه الحواشي ، ولعل المقصود قلعة البيرة فهي واقعة على الفرات .

(٢) عزاز — وربما قيل بالألف في أولها — بليده فيها قلعة ولها رستاق شمال حلب ، بينهما
يوم . (ياقوت : معجم البلدان) .

ذكر استيلاء الأمير عماد الدين

على مدينة حماة

وكانت حماة للأمير ظهير الدين (١) أتابك طُنْتِكِين — صاحب دمشق —
قد تسلمها عقيب موت صاحبها شهاب الدين محمود بن قَراجا (٢) سنة سبع عشرة
وخمسة ، ثم سلَّها الأميرُ ظهيرُ الدين إلى الأمير بهاء الدين إبراهيم بن سوار ،
ثم توفي إبراهيم بعد موت ظهير الدين ، فولَّى تاجُ الملوك بوري بن طفتكين
— صاحب دمشق — حماة ووالده بهاء الدين سيونج بن بوري .

ولما كانت هذه السنة — أعنى سنة أربع وعشرين وخمسة — أرسل عماد الدين
زنكي إلى تاج الملوك بوري بن طفتكين — صاحب دمشق — يستنجده على الفرنج ،
وأظهر العزم على الجهاد ، فأجابه إلى ذلك ، وأرسل من أخذ له العهود والمواثيق ،
ثم جرَّد عسكراً من دمشق مع جماعة من الأمراء ، وأرسل إلى ابنه سيونج — صاحب
حماة — يأمره بالتقدمة على العسكر والمسير بهم إلى خدمة عماد الدين زنكي ، فساروا
بأجمعهم إليه ، فأكرمهم وأحسن ملتقاهم ، وكان عنده الأمير صمصام الدولة خترخان (٣)

(١) هو أبوسيد سيف الاسلام ظهير الدين معتمد الدولة طفتكين — أتابك دُقاق بن نُنس —
توفي في صفر سنة ٥٢٢ هـ (Zambour, Op. Cit. p. 225) .
(٢) ترجم لهذا الحاكم (ابن القلانسي ، ص ٢١٠) في شيء من التفصيل ، قال في حوادث
سنة ٥١٧ : « وفي هذه السنة ورد الخبر بأن محمود بن قراجا (كذا) والي حماة خرج
في رجاله ، وقصد ناحية أقامية وهجم ربضها ، فأصابه سهم من الحصن في يده ، ولما قلع منه
عمت عليه وتزايد أمرها فمات منه ؛ وكان ظاهراً ظالماً متبرداً ، وقتل جماعة من أعيان حماة
ظالماً وتمدياً بسعاية بعضهم على بعض ، ولما عرف ظهير الدين ذلك أنهض إلى حماة من تسلمها
وتولى أمرها من ثقاته .

(٣) كذا في الأصل ، وقد أورد (ابن القلانسي ، ص ١٨٢ ، ١٩١ ، ٢٠٩ ، ٢٢٨ ،
٢٥٢) هذا الاسم على أشكال ثلاث : (خترخان ، خيرخان ، قرخان) ، وهو في (ابن الأثير :
ج ١٠ ، ص ٢٨١) : « قرجان » ، ولقبه صمصام الدين أو الدولة ، وقد ولي حمص بعد وفاة أبيه
قراجا في سنة ٥٥٥ هـ .

ابن قُرَاجَا — صاحب حصص — فحَسَنَ عماد الدين الغدر بيهاه الدين سَوْنَج، والقبض عليه وعلى أصحابه ، وأخذ حماة (١) ، ففعل ذلك ، وارتكب أمراً قبيحاً أنكره الناس عاينه ، ولا شيء أقبح من الغدر ؛ [٢٤] ولما عزم على تلك الفعلة الشنعاء استفتى الفقهاء في ذلك ، فأفتاه منهم من لا دين له ، وجوز له ما لا يحل ولا يحسن شرعاً و عرفاً ، فقبض على بهاء الدين وعلى جماعته ، وأُهب الخيل والخيم ، وقبض على جميع أصحابه ، واعتقل الأمراء بالقلعة والجند بحلب .

ثم سار في العشر الأول من شوال إلى حماة وتسلمها ، ثم غدر بصمصام الدين خترخان ، وسيره إلى حلب ، وحُبس بقلعتها .

وسار إلى حصص فنارلها ، وطلب عماد الدين من أولاد صمصام الدين خترخان تسليم قلعة حصص ، فامتنعوا ، فألح في حصارها ، ونقب النقايون القلعة ، فبطل عليهم النقب ، وأمر بنصب المجانيق عليها فبطلت ، وطالت مدة الحصار ، وهجم الشتاء ، فعاد بالسكر إلى حلب ، وترددت الرسل بين تاج الملوك بوري — صاحب دمشق — وعماد الدين زنكي في إطلاق ولده بهاء الدين سَوْنَج وأصحابه ، فاستقر الأمر على خمسين ألف دينار ، فأجاب تاج الملوك إلى حماها ، ولم ينتظم بينهم أمر .

وفي منتصف ذي الحجة من هذه السنة سَيرَ عماد الدين زنكي إلى فارس ، وهجم مَعْرَةَ مَضْرِين (٢) — وهي للفرنج — ونهبت وقتل من فيها ، وشن الغارة على تل

(١) حديث ابن وأصل هنا عن أخذ عماد الدين لحماة فيه إسهاب وتفصيل أكثر مما ورد في المراجع المختلفة المتداولة في هذه الحواشي كابن القلانسي وابن الأثير وأبي الفدا . . . الخ ولا عجب فخماة وطن ابن واصل ومسقط رأسه ، وسلاحا عنايته الدائمة بذكر تاريخها مفصلا كما ورد ذكرها فيما يلي .

(٢) ضبطت بمد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها بليدة وكورة بنواحي حلب ومن أعمالها ، بينهما نحو خمسة فراسخ ؛ أنظر أيضاً : (ابن الشحنة : الدر المنتخب ، المنهات المذكورة بالفهرس) .

بأشْر (١) والأثارب (٢) ، وأوقع بنخيل من الأثارب ، فقتل منهم جماعة كبيرة ،
وذكر ابن الأثير (٣) أنه فتح في هذه السنة حصن الأثارب .

وفي المحرم سنة خمس وعشرين وخمسمائة توجه الأمير عماد الدين زنكي راجعاً
إلى الموصل ، وفي ربيع الآخر من هذه السنة رد السلطان محمود أمر العراق إلى عماد الدين
مضافاً إلى ما بيده من الشام والموصل والجزيرتين ؛ وفي هذه السنة فتح الأمير
عماد الدين قلعة للأكراد حصينة يقال لها مجهيم (٤) .

ذكر قبض الأمير عماد الدين

على دُبَيْس بن صَدَقَةَ المَزِيدِي (٥) صاحب الحِلَّة (٦)

وكان السلطان محمود قدم بغداد سنة ثلاث وعشرين من عند عمه السلطان
سَنَجَر بن ملكشاه — صاحب خراسان — ، ومعه الأمير دُبَيْس بن صَدَقَةَ ، ليصاح

(١) ذكر (ابن الشحنة ، ص ١٦٩) أنها كانت من أعمال حلب ولها قلعة مسمورة
وبساتينها كثيرة .

(٢) ذكر (ياقوت : معجم البلدان) أنها كانت قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية ، بينها
وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ ، ثم قال : وهذه القلعة الآن (القرن السابع الهجري) خراب
وتحت جبلها قرية تسمى باسمها .

(٣) هذه ثاني مرة يشير فيها ابن داصل إلى مرجع من المراجع التي أخذ عنها ، انظر
مافات هنا ص ٣ ، وفي (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٨٢) تفاصيل وافية عن فتح عماد الدين
زنكي لحصن الأثارب في سنة ٥٢٤ هـ .

(٤) لم تشر المراجع المختلفة إلى استيلاء عماد الدين على هذه القلعة ، ولهذا لم أتمكن من ضبطها .

(٥) في الأصل : « الزيدي » ، وقد ضبط الاسم كما بعد مراجعة : (ابن الفلانسى ،

ص ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ — ٢٣٠ ، ٢٥١) و (Zambour. Op. Cit. p. 137) وقد حكمت
أسرة مزيد الأسيدي مدينة الحلة ابتداءً من سنة ٤٠٣ هـ ، أما دُبَيْس المذكور هنا فهو نور الدولة
دُبَيْس الثاني أبو العز بن سيف الدولة صدقة الأوك المزيدى ، حكم الحلة من سنة ٥٠١ هـ إلى
ذى الحجة سنة ٥٢٩ هـ ، وقد قتل في أوائل سنة ٥٣٠ هـ ، قتله السلطان مسعود بن محمد السلجوق .

(٦) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بقوله : الحلة علم لعدة مواضع ، وأشهرها حلة بني
مَزِيد ، مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد ، كانت قبل تسميها الجامعين ، وكان أول من عمرها
ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دُبَيْس بن علي بن مزيد الأسيدي .

بينه وبين الخليفة المسترشد بالله ، فتأخر دُبَيْس عن السلطان ، ثم وصل دُبَيْس ، ونزل بدار السلطان ، فاسترضى السلطانُ الخليفةَ عنه ، فامتنع أن يُؤَلَّى دُبَيْس [٢٥] شيئاً من الأعمال ، وبذل الخليفة للسلطان مائة ألف دينار لأجل ذلك ، وبلغ الأمير عماد الدين أتابك زنكي أن السلطان قد عزم على تولية دُبَيْس الموصل ، فسافر إلى خدمة السلطان — كما قدمنا — ، ولم يشعر السلطان به إلا وهو عند الستر ، وبذل الجملة العظيمة التي ذكرناها ، وخلع عليه ، وأعيد إلى بلاده — كما ذكرنا — .

ثم رحل السلطان عن بغداد ، ومرض ، وبلغ دُبَيْساً (١) مرضه ، فطمع وجمع جمعاً كثيراً ، وقصد الحلة ، وكان بها يهروز — شحنة بغداد — ، فهرب ، ودخلها دُبَيْس ، فعاث في البلاد ، فسير إليه السلطانُ [آق سنقر (٢)] الأحمدي ليكف شره ، فأرسل دُبَيْس يستعطف الخليفة ، وقال : « إن رضيت عني رددتُ أضعاف ما أخذته » ، وترددت الرسل في ذلك ، ودُبَيْس يجمع ويحشد ، فاجتمع إليه عشرة آلاف فارس ، ثم سار السلطان إلى بغداد فأهدى له دُبَيْس هدايا جليلة ، من جعلتها ثلاثمائة حصان منقولة بالذهب ، ومائتا ألف دينار ليرضى عنه الخليفة والسلطان ، فلم يُجِبْ إلى ذلك .

ولما دخل السلطان بغداد قصد دُبَيْس البصرة ، وأخذ منها أموالاً جليلة ، فسير إليه [السلطان] عشرة آلاف فارس ، ففارق البصرة ، ودخل البرية ، وسار متوجهاً إلى الشام ، فقتل إنه قصد قلعة صرخد ، لأن سرية (٣) أصحابها

(١) في الاصل : « ديبس » .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من (ابن القلائس ، ص ٢٣٨) .

(٣) ذكر (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٨٤) أن صاحب صرخد توفى في هذه السنة وكان خصياً ، وخلف جارية سرية له فاستولت على القلعة وما فيها ، وعلمت أنها لا يتم لها ذلك إلا بأن تتصل برجل له قوة ومجدة ، فوصف لها ديبس بن صدقة وكثرة عشيرته ، وذكر لها حاله وما هو عليه بالعراق ، فأرسلت تدعوه إلى صرخد لتتزوج به وتسلم القلعة وما فيها من ماك وغيره إليه ، فأخذ الأتلاء معه وسار من العراق إلى الشام ، فقبل به الأتلاء بنواحي دمشق .

كتبت إليه وأطمعته فيها ، وضلَّ به الأدلاء الطريق بنواحي دمشق ، فنزلت (١) بناس من كلب كانوا شرقي القوطة ، فقبضوا عليه ، وحملوه إلى تاج الملوك بوري ابن طفتكين — صاحب دمشق — فحبسه عنده ، وبلغ ذلك عماد الدين زنكي ، فأرسل إلى تاج الملوك يطلب دُبَيْسًا ، على أن يطلق ولده بهاء الدين سُوَيْج وَمَنْ عنده من المأسورين ، فإنه إن امتنع من تسليمه سار إلى دمشق وحصرها ، فأجابه تاج الملوك إلى ذلك ، فأرسل دُبَيْسًا ، وأرسل إليه عماد الدين بهاء الدين سُوَيْج وأصحابه ، وتسلم عماد الدين دُبَيْس بن صَدَقَة ، فأحسن إليه عماد الدين ، ودفع إليه من الاموال والسلاح ما لم يكن في ظن دُبَيْس .

فأرسل [٢٦] الخليفة المسترشد بالله لما سمع بالقبض على دُبَيْس سديد الدولة ابن الأنباري (٢) وأبا بكر بن بشر الجزري (٣) ، يطلبان من تاج الملوك دُبَيْسًا ، لما بينه وبين الخليفة من العداوة ، فسمع سديد الملك — وهو في الطريق — بمصير دُبَيْس إلى عماد الدين ، فسار إلى دمشق ولم يرجع ، ووقع في عماد الدين وذمّه ، واستخف به ، وبلغ ذلك عماد الدين فأرسل إلى طريقه من يأخذها إذا عادا ، فلما رجعا من دمشق قبضوا عليه (٤) وعلى ابن بشر ، وحملوها إليه فأطلق ابن بشر ، وسجن ابن الأنباري ثم أطلقه .

وكان مصير دُبَيْس إلى عماد الدين سنة خمس وعشرين وخمسمائة . وفيها مات السلطان محمود بن محمد .

(١) الضمير هنا يعود على الأدلاء .

(٢) هو سديد الدولة أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن الأنباري ، كان كاتباً للخليفة المسترشد ؛ أنظر : (ابن القلانسي ، ص : ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٦٠) .

(٣) ذكر (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٨٥) أنه سمي هكذا نسبة إلى موطنه جزيرة ابن عمر .

(٤) الضمير هنا عائد على ابن الأنباري .

وكان الأمير عماد الدين زنكي قد عبر الفرات (١) ، ووصل إلى مدينة حلب في أول شوال ، ثم توجه إلى حمص ، فحاصرها يوماً واحداً ، وتوجه نحو أطراف الشام ، وتسلم دُبَيْسًا ، وأطلق سِوَيْجًا — كما ذكرنا — وبلغه وفاة السلطان وهو بالقرية (٢) — من عمل حمص — لأربع عشرة بقية من شوال ، فسمع عماد الدين ودُبَيْسُ بن صدقة — (٧) وكان عنده ولدان للسلطان (٣) محمود — أحدهما ألب أرسلان الخفاجي ويكنى أبا طالب وهو الذي جعله (٤) السلطان أتابكاً — وقد ذكرناه (٥) — والآخر (٦) عند دُبَيْسٍ (٧) .

فأرسل الأمير عماد الدين إلى الخليفة المسترشد بالله يسومه أن يخطب ببغداد لأبي طالب ألب أرسلان بن السلطان محمود ، فاعتذر المسترشد بالله بأنه صبي ، وأن السلطان عهد بالسلطنة لولده داوود بن محمود — وهو بأصبهان — وقد وردت رسل الأطراف بالخطبة له ، ونحن منتظرون كتاب السلطان سنجر بن ملكشاه ، فإنه عمُّ القوم .

-
- (١) في الأصل « الفرات » .
(٢) « القرية » قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية بينها وبين سُخنة وأرك ، أهلها كلهم نصاري (ياقوت : معجم البلدان) .
(٣) في الأصل : « السلطان » وقد صححت كما بالمتن ليتضح المعنى .
(٤) الضمير هنا طائد على عماد الدين زنكي ، والمقصود أن السلطان جعل عماد الدين أتابكاً لابنه أبي طالب ألب أرسلان الخفاجي .
(٥) أنظر ماقات ، ص ٣٣ .
(٦) لم يذكر اسم الابن الثاني ، والمعروف أن السلطان محموداً كان له أولاد خمسة : ألب أرسلان وفروخ زاد ، وداود ، وملك شاه الثاني ، ومحمد . أنظر القوائم اللاحقة بكتاب (Zambaur) .
(٧) هذه الجملة لازالت مضطربة المعنى ، ولم أستطع تقويمها أكثر من ذلك ، فهي مما اعتاده ابن واصل زيادته عند النقل عن غيره رغبة في التعريف والابضاح .

ذكر الوقعة الكائنة بين الخليفة المسترشد بالله

وبين عماد الدين زنكي

لما مات السلطان محمود نُخطب بهمدان وأصفهان والجمال وأذربيجان لولده السلطان داوود ، وسار من همدان إلى رَمَكان (١) ، وكان عمه السلطان مسعود ابن محمد قد سار من جرجان ووصل إلى تبريز (٢) ، فاستولى عليها ، فسار إليه داوود في ذي [٢٧] القعدة من هذه السنة — أعني سنة خمس وعشرين وخمسة — ، وحصره بها ، وجرى بينهما قتال إلى سلخ المحرم سنة ست وعشرين وخمسة ، ثم اصطلحوا وتأخر داوود مرحلة ، وخرج السلطان مسعود من تبريز (٢) واجتمعت إليه العساكر ، وسار إلى همدان .

وكانت رسل داوود تقدمت في طلب الخطبة ، فأجاب الخليفة : « إن [الحكم في (٢)] الخطبة للسلطان سنجر ، من أراد خُطبَ له » وأرسل السلطان سنجر : أن لا يأذن لأحد في الخطبة ، وأن الخطبة ينبغي أن تكون له وحده ، وأرسل السلطان مسعود إلى عماد الدين زنكي يطلب مساعدته ، فوعده النصر .

وسار السلطان سلجوق شاه — ومعه أتاكه قراجا الساقى صاحب بلاد فارس وخوزستان — في عسكر كثيف إلى بغداد ، ونزل بدار السلطنة ، فأكرمه الخليفة ،

(١) ضبطت هكذا بعد مراجعة ياقوت ، ولم يعرفها بأكثر من قوله إنها موضع ، وفي (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٨٧) أنه سار إلى زنجان لارمكان .

(٢) في الأصل : « تورين » ، والتصحيح عن (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٨٧) .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير) للايضاح ، ويلاحظ أن النص هنا يعود فيتنق كثيراً ونسب ابن الأثير .

واستحلفه لنفسه ؛ ثم وصل السلطان مسعود يطلب الخطبة ، ويتهدده إن منيها ، فلم يُجِبْ إلى ما طَلَبَ ، فنزل عباسية (١) الخالص .

وبرز الخليفة وسلجوق شاه وقراجا الساقى عازمين على قتال مسعود ، وتوجه عماد الدين زنكى إلى بغداد — ومعه دُبَيْس بن صدقة — ، وكانت رسل السلطان سَنَجَر قد وردت إلى عماد الدين بتوليته شَحَنَكِيَّة بغداد ، وإقطاع الحِلَّة لدُبَيْس ، وبلغ الخليفة وقراجا الساقى وصول عماد الدين إلى المَعشُوق (٢) ، فمهر قراجا إلى الجانب الغربى ، وتقدم إلى الملك سلجوق شاه بمرافقة أخيه السلطان مسعود إلى أن يفرغا من حرب عماد الدين ، وسار الخليفة في يوم وليلة إلى المعشوق ، فواقع عماد الدين زنكى فهزمه ، وأسر كثيراً من أصحابه .

وسار عماد الدين إلى تكريت ، وعبر منها دجلة ، وكان الدزدار بتكريت يومئذ نجم الدين أيوب بن شادى — والد صلاح الدين يوسف — فأقام لعماد الدين المعابر (٣) ، فلما عبر أمن الطلب ، وسار لإصلاح بلاده ، فكان هذا الفعل من نجم الدين سبباً

(١) فى الأصل : « عباسية » والتصحيح عن ابن الأثير ، وقد ذكر ياقوت جملة مواضع تحمل اسم العباسية إحداهما كانت محلة ببغداد بين الصراطين قرب المحلة المعروفة بباب البصرة وتنسب إلى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وقد كنت أحسبها هذه ، لولا أن الأستاذ المحقق الدكتور مصطفى جواد تفضل فكتب إلى : أن « عباسية الخالص » قرية على نهر الخالص فى الجانب الشرقى من دجلة ، وقد ذهب اسم القرية مع كثير من قرى الخالص ، أما النهر فلا يزال من أنهار المقاطعات فى شرق بغداد ، وإنى أتتهز هذه الفرصة لأشكر الدكتور مصطفى جواد لتفضله بتعريفى ببعض المواقع المراقية التى استفسرت منه عنها .

(٢) عرفه (ياقوت : معجم البلدان) بأنه قصر عظيم بالجانب الغربى من دجلة قبالة سامراء فى وسط البرية ، بينه وبين تكريت مرحلة ، عمره المتمد على الله ، ولا تزال بقاياه قائمة حتى العصر الحاضر .

(٣) المَعْبَر والمَعْبَرَة — والجمع معابر — من أسماء السفن العربية ، وقد عرفه صاحب اللسان بأنه ما عُبر به النهر من فُلِّك أو سفينة أو قنطرة أو غيره . راجع كذلك : (ابن سيده : المخصص ، ج ١٠ ، ص ٢٦) ومخطوطتنا التى لم تطبع بعد (معجم السفن العربية) و (Kindermann ; Schiff im Arabischen. pp. 62, 102.)

للسعادة التي آلت به إلى أن صار ولده ملوك الأرض ، فليُنظر العاقل إلى ثمرة الجليل
وفعل الخير .

وسار السلطان مسعود من الباسية إلى الملكية (١) ، ووقعت الطلائع بعضها
على بعض ، وآل الأمر [٢٨] إلى أن اصطلح الأخوان مسعود وسلاجوق على أن تكون
السلطنة لمسعود ، وسلاجوق ولي عمده ، وأن العراق يكون للخليفة (٢) ، ونحالفوا
على ذلك واتفقوا .

وعاد السلطان مسعود إلى بغداد ، ونزل بدار السلطنة ، ونزل سلجوق بدار
الشحنكية ، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ست وعشرين وخمسة .

وأما السلطان سنجر فإنه سار من خراسان إلى همدان — وصحبته ابن أخيه
السلطان طغرل بن محمد — مريداً تملكه ، لأنه كان قد لازمه ، فوصلا إلى الري
ثم إلى همدان ، فلما بلغ ذلك الخليفة والسلطان مسعود ، تجهزا وسارا إلى لقائه ،
ومعهما قراجا الساقى وسلاجوق شاه ، ثم تأخر عنهما الخليفة خوفاً من عماد الدين زنكى ،
لما بلغهم أنه على قصد بغداد ، فاستعد للمدافعة ، وجند الأجناد ، ومضى الباقون ،
فكانت الواقعة بينهم وبين السلطان سنجر بقولان (٣) بقرب الدينوز ، فانكسر
السلطان مسعود وأخوه سلجوق شاه ، وأخذ قراجا الساقى أسيراً ، فقتله السلطان
سنجر صبراً ، وأحضر ابن أخيه السلطان مسعود ، فأكرمه ، وعاتبه على مخالفته ،

(١) لم أجد لها تعريفاً في المراجع الجغرافية ، وإنما ذكر لي الدكتور مصطفى جواد
في خطاب منه أن « الملكية » ضيعة من ضياع الخالص بشرق دجلة قرب بغداد ، وقد ذكرها
ابن الأثير أيضاً في حوادث سنة ٦١٤ مع مواضع الجانب الشرقى التي أغرقها دجلة .
(٢) في (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٨٨) : « وأن يكون العراق لوكيل الخليفة » .
(٣) في الأصل « بنولان » وفي (ابن الأثير) : « ببولان » ، ولم يشر ياقوت إلى أيهما ،
وإنما ورد فيه « بنولان » وعرفنا بانها موضع ولم يزد .

وأعاده إلى كَنْجَة (١) ، وأجلس ابن أخيه السلطان طغرل بن محمد في السلطنة ، وأمر بالخطبة له في جميع البلاد ، وكانت هذه الوقفة في ثامن رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة .

ثم عاد السلطان سَنَجَر إلى نيسابور ، وكان السلطان سَنَجَر قد كاتب الأمير عماد الدين ودُبَيْس بن صَدَقَة ، وأمرهما بقصد العراق ، فقصدا بغداد ، وبلغ الخليفة المسترشد ذلك ، فأمرع العود إليهما ، وعبر إلى الجانب الغربي ، وسار فنزل بالعباسية ونزل عماد الدين زنكى بالمنارية من دُجَيْل ، ثم التقيا في السابع والعشرين من رجب بمكان يقال له عَقْرَقُوف (٢) ، واقتتلوا قتالا كبيرا ، فحمل الأمير عمادُ الدين على ميمنة الخليفة ، — وفيها جمال الدين (٣) إقبال — فانهزموا ، وحمل نظر الخادم — وكان في ميسرة الخليفة — على [ميمنة] (٤) عماد الدين ودُبَيْس ، وحمل [٢٩] الخليفة بنفسه ، واشتد القتال ، فانهزم دُبَيْس ، ورأى الأمير عماد الدين تفرق الناس عنه ، فانهزم ، وقتل من المسكر جماعة ، وأسر جماعة ، وبات هناك الخليفة ليلة ، وعاد إلى بغداد .

حكى الأمير مؤيد الرولة أسامة بن مرسر بن علي بن منقر في كتاب ألفه ، وذكر فيه شهامة الخليفة المسترشد بالله وشجاعته ، قال : « كان الإمام المسترشد بالله يلحق بالصدر الأول من سلفه في علو الهمة ، وحسن السياسة ، والإقدام العظيم ، فإنه لما التقى هو وعماد الدين زنكى بن آق سنقر في المصاف بعقرقوف وأنا حاضر المصاف ، ضرب له خيمة أطلس أسود ، ووضع له فيها تخت ، وجلس عليه ،

(١) عرفها (ياقوت) بأنها مدينة عظيمة وهي قسبة بلاد أرمغان ، وهي من نواحي لرستان بين خوزستان وأصبهان ، وأهل الأدب يسمونها جنزة .

(٢) قرية من قرى دجيل بينها وبين بغداد أربعة فراسخ (ياقوت) . والذي ذكره (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٨٩) أنهما التقيا بمصن البرامكة . أنظر خريطة العراق الحديث

(٣) في ابن الأثير : « جمال الدولة » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير .

والخيل تطرد، فكسر عسكر أتابك، وذلك يوم الاثنين السابع والعشرين من رجب سنة ست وعشرين وخمسة ، فاستولى على كل ما فيه ، وانهزم أتابك زنكي إلى الموصل ، وذلك الإقدام العظيم كان سبب تلفه .

قلت : إن الخلفاء كان قد ضعف أمرهم من أيام المتقي بالله (١) ، واستولت عليهم الملوك ، خصوصاً في أيام المستكفي بالله (٢) ، فإن بني بويه الديلم ملكوا العراق وغيرها من الممالك ، وصارت الخلفاء تحت حجرهم ، ثم ظهرت السلاطين السلجوقية ، فتغلبوا أيضاً وتحكموا ، وهلم جرا إلى أيام المسترشد ، فاتفق وقوع الخلف بين السلاطين السلجوقية ، واغتم ذلك الخليفة المسترشد ، فكانت نفسه أبية ، وشجاعته عظيمة ، فجند الجنود ، وياشر القتال بنفسه ، وأدى ذلك إلى أن أسره السلطان مسعود ، وقتل في معسكره - كما سنفذ كره إن شاء الله تعالى - .

وبويع ببغداد لولده الراشد ، ووصل السلطان إلى بغداد ، فهرب الراشد ، وأقعد السلطان عمه المقتني ، وحكم عليه إلى أن مات السلطان مسعود ، ثم بعد ذلك قوى المقتني ، وملك العراق ، وقامت حشمة الدولة العباسية ، واستمرت قوتها إلى أن زالت بالتار الملاعين سنة ست وخمسين وستمائة ، والمسترشد بالله شعر بدل [٣٠] على قوة نفسه وبعد همته ، وهو :

أَنَا الْأَشَقْرُ الْمَوْعُودُ بِي فِي الْمَلَأِجِمِ وَمَنْ يَمْلِكُ الدُّنْيَا بَغَيْرِ مُزَاجِمِ
سَتَبْلُغُ أَرْضَ الرُّومِ خَيْبِي وَتَنْتَهِي (٣) بِأَقْصَى (٤) بِلَادِ الصِّينِ بِيضُ صَوَارِمِي

(١) حكم بين سنتي ٣٢٩ و ٣٣٣ (٩٤٠ - ٩٤٤) .

(٢) ولي بعده من ٣٣٣ إلى ٣٣٤ (٩٤٤ - ٩٤٦) .

(٣) في (السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٧) : « وتنتهي » .

(٤) في الأصل : « بأقصا » .

وكان الأمير إبراهيم^(١) بن سُقْمَانَ بن أَرْثُوقَ — صاحب حصن كيفا — لما سمع بقصد عماد الدين بغداد قد خرج من حصن كيفا نجدة للخليفة ، في جمع كثير ، وأغار على نصيبين .

ذكر منازلة الخليفة المسترشد بالله مدينة الموصل

وفي العشرين من رمضان سنة سبع وعشرين وخمسة ، حصر الإمام المسترشد بالله مدينة الموصل ، وكان السبب في ذلك ما تقدم من الفتنة بينه وبين عماد الدين ، فقصد باب الخليفة المسترشد — رحمه الله — جماعة من الأمراء السلجوقية ، وخدموه ، وقوى بهم لا سيما واتفق اشتغال السلاطين بالخلف الواقع بينهم ، فأرسل الخليفة الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الأسفراييني — الواعظ — إلى عماد الدين برسالة فيها خشونة ، وزادها أبو الفتوح — زيادة في الحجية — ثقة بقوة الخليفة وتأموس الخلافة ، فقبض عليه عماد الدين زنكي ، وأهانته ولقاه ما يكره .

ولما كان في شعبان سار الخليفة عن بغداد في ثلاثين ألف مقاتل ، فلما قرب من الموصل فارقها عماد الدين زنكي ببعض عسكره ، وترك الباقي بها مع نائبه نصير الدين جُفَر — دزدارها والحاكم في دولته — فنازلها الخليفة ، وضيق على من بها ، وسار عماد الدين إلى سنجار ، وكان يركب في كل ليلة ، ويقطع الميرة عن العسكر ، ومتى ظفر بأحد من العسكر أخذه ونكّل به ، فضاقت على العسكر الأمور ، وتواطأ جماعة من الجصاصين^(٢) بالموصل على تسليم البلاد ، فسعى بهم ،

(١) حكم حصن كيفا بعد أبيه سُقْمَانَ ، وذلك من سنة ٤٩٨ إلى سنة ٥٠٢ ؛ وقد ظل حصن كيفا تحت حكم الأرتقيين إلى أن استولى عليه الملك الكامل محمد الأيوبي في سنة ٦٢٩ ، أنظر : (Zambaur, Op. Cit. P. 228, 230) و (ابن القلانسي ، ص ١٣٧ — ١٣٨ نقلًا عن الفارقي) .

(٢) في (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢) : « الجصاصين » .

فأخذوا وُصلبوا ، ودام الحصار نحو ثلاثة أشهر فلم يظفر الخليفة منها بشيء ، فعاد إلى بغداد ، وقيل كان سبب رحيله أنه بلغه أن السلطان مسعوداً (١) قصد بغداد ، فعاد لذلك ، والله أعلم .

استيلاء شمس الملوك صاحب دمشق على حماة

وأخذها من عماد الدين

وفي هذه السنة — أعني سنة [٣١] سبع وعشرين وخمسة — قصد شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بوري — صاحب دمشق — مدينة حماة ، وكان والده تاج الملوك قد توفي سنة ست وعشرين ، وجلس [هو] في الأمر مكانه .
وكنا قد ذكرنا أن حماة كانت لبهاء الدين سيونج — أخى شمس الملوك — وأن عماد الدين قبض عليه وأخذ منه حماة ، فلما نزل شمس الملوك على حماة حاصرها ، وذلك في العشر الآخر من رمضان من هذه السنة ، وكان الوالى بها ، وهو سنقر — غلام صلاح الدين محمد بن الياغسياني (٢) — مقطوعاً قد سمع الخبر ، فاستكثر من الرجال والدخائر ، فزحف إليها شمس الملوك يوم العيد ، ثم عاد عنها ذلك اليوم ، وزحف إلى البلد من جميع جوانبه ، فملكه قهراً ، وأمن أهله ، وحصر القلعة ، ولم تكن يومئذ حصينة على ما هي اليوم ، وإنما عمرها بعد ذلك الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، فعجز الوالى عن حفظ القاعة ، فسلمها إليه ، ثم رحل عنها إلى شيزر فحصرها ، ونهب بلدها ، فصانعه صاحبها ابن منقذ (٣) بمال ، فرجع .

(١) في الأصل : « مسعود » .

(٢) في الأصل : « الياغستاني » ، أنظر ما سبق هنا ، ص ١٩ ، هامش ٢

(٣) كان صاحب شيزر في تلك السنة هو مجد الدين أبو سلامة مرشد بن علي بن منقذ بن نصر

ابن منقذ — والد المؤرخ الشهير أسامة — ولد سنة ٤٦٠ وتوفي سنة ٥٣١ ؛ انظر :
(محمد أحمد حسين : أسامة بن منقذ ، ص ٧ وما بعدها) و (Zambaur, Op. Cit, p, 104)

ذكر الواقعة بين عماد الدين وصاحب حصن كيفا

سنة ثمان وعشرين (١) وخمسة

اجتمع الأمير عماد الدين أتابك زنكي والأمير حسام الدين تيمرتاش بن إيلغازي ابن أرتق [صاحب ماردین (٢)] وقصدا مدينة آمد وحاصراها ، فأرسل صاحبها — وهو [سعد الدولة أبو منصور ايكليدي بن فخر الدولة إبراهيم (٣)] إلى الأمير ركن الدين [داود (٤)] بن سُقْمَان بن أرتق يستنجده ، فجمع العساكر ، وسار ليرحباها عنها ، فالتقوا على باب آمد ، واقتتلوا ، فانهزم ركن الدين ، وعاد مغلولا ، وقتل من أصحابه جماعة كثيرة ، وأقام عماد الدين [زنكي] وحسام الدين [تيمرتاش] على آمد محاصرين لها ، وقطعا الشجر ، وشعنا البلد ، ثم عادا عنها من غير بلوغ غرض .

(٥) استيلاء عماد الدين على قلعة الصور

ثم قصد عماد الدين قلعة الصور من ديار بكر ، فحاصرها وضايقةا ، ثم ملكها في رجب من هذه السنة (٥) .

(١) في الأصل : « وخمسين » وهو خطأ واضح .
(٢) في الأصل : « يرتق » ، وقد صححت وأضيف ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير .
(٣) في الأصل : « ابن إبراهيم بن كيكليدي » وقد صحح الاسم بعد مراجعة (Zambaur, Op. Cit. P. 139) وقد حكم سعد الدولة هذا حصن آمد من سنة ٥٠٣ إلى سنة ٥٣٦ .
(٤) أضيف ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥) للإيضاح .
(٥) ما بين القوسين ورد في الهامش وأشير إلى مكانه في المتن بلامنة .

استيلاء عماد الدين على قلاع [الأكراد^(١)] الحميدية^(٢)

وفي هذه السنة تملك عماد الدين قلعة العقر^(٢)، وقلعة شوش^(٣)، وغيرها، وكان عماد الدين قد أقرَّ الأمير عيسى الحميدي - صاحب هذه القلاع - عليها، لما ملك البلاد، فلما نازل الخليفة المسترشد بالله الموصل، نزل عيسى إلى خدمة الخليفة، وحشد له [٣٢] الأكراد، فلما رحل الخليفة أمر عماد الدين بمنازلة القلاع، فنزلت وملك في هذه السنة.

استيلاء عماد الدين على قلاع الهكارية^(٤)

كان صاحب هذه القلاع الأمير أبا الهيجاء بن عبد الله وكانت له آشب^(٥) والجديدة^(٦) وتوشي^(٧) وجبل لهيجة، فأرسل عماد الدين من استحلغه وحمل إليه مالا، ثم سافر عماد الدين، وأخرج معه من آشب ولده أحمد - وهو والد الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب الذي سذكه في أخبار صلاح الدين رحمه الله -

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير، ج ١١، ص ٥) للإيضاح.
(٢) بغير ضبط في الأصل، وقد ذكر (ياقوت) أكثر من مكان كان يسمى بالعقر، أحدها هو المقصود هنا، وعرفه بقوله: العقر قلعة حصينة في جبال الموصل أهلها أكراد وهي شرقي الموصل، تعرف بعقر الحميدية، أي أنها تنسب إلى الحميدية وم طائفة من الأكراد.
(٣) شوش قلعة عظيمة عالية جداً قرب عقر الحميدية من أعمال الموصل، قبل هي أعلى من العقر وأكبر ولكنها في القدر دونها. (ياقوت: معجم البلدان).
(٤) طائفة من أكبر طوائف الأكراد. (انظر عباس الغزالي: المشارع الكردية).
(٥) بدون ضبط في الأصل، وهي قلعة قديمة للأكراد، عمرها عماد الدين زكي في سنة ٥٣٧ فنسبت إليه وسميت منذ ذلك بالهادية، وهي - كما وصفها ياقوت - قلعة حصينة مكينة في شمال الموصل، ومن أعمالها.
(٦) ضبطت بعد مراجعة ياقوت حيث عرفها بأنها قلعة في كورة بين النهرين التي بين نصيبين والموصل، وأكثر ما تكون لصاحب الموصل، وأعمالها متصلة بأعمال حصن كيفا.
(٧) في الأصل: «بوشي» وفي (ابن الأثير): «نوشي»، وقد ضبطت بعد مراجعة: (محمد أمين زكي: خلاصة تاريخ الكرد وكرديستان، ص ١٥٤).

(٦) ضبطت بعد مراجعة ياقوت حيث عرفها بأنها قلعة في كورة بين النهرين التي بين نصيبين والموصل، وأكثر ما تكون لصاحب الموصل، وأعمالها متصلة بأعمال حصن كيفا.
(٧) في الأصل: «بوشي» وفي (ابن الأثير): «نوشي»، وقد ضبطت بعد مراجعة: (محمد أمين زكي: خلاصة تاريخ الكرد وكرديستان، ص ١٥٤).

وإنما فعل ذلك خوفاً من أن يتغلب عليها ، وأعطاه توشى ، واستخلف أبو الهيجا بأشب كرديا يقال له باو الأرجبي (١) .

ولما قدم أبو الهيجا على عماد الدين توفى عنده بالموصل ، فسار من توشى إلى آشب لملكها ، فمنعه باو وأراد حفظها لولد صغير لأبي الهيجا اسمه على ، ثم نازل عماد الدين آشب فملكها ، وذلك أنه استجرهم (٢) لما نازهم ، وانهمزم من بين أيديهم حتى أبعادوا عن القلعة ، ثم عطف عليهم فانهزموا ، فوضع السيف فيهم ، وأكثرت القتل والسبي ، ثم سار عنها .

وفي غيبته استولى نائبه نصير الدين [جقر (٣)] على جبل لهيجة وتوشى وقلعة الجلاب (٤) ، وحاصر جميع حصون الهندبانية (٥) : وهي قلعة الشعباني (٦) ، وقرح ، وكواشي (٧) ، والزعفراني ، وغيرها (٨) فملك الجميع ، واستقام الجبل ، وأمنت الرعايا بأمن الأكراد ، فإنهم كانوا معهم في ضر عظيم .

-
- (١) في الأصل : « باد » وما هنا من (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥) .
(٢) الضمير هنا عائد على أهل آشب ، وصيغة ابن الأثير أكثر وضوحاً وهي : « وسبب ملكها أن أهلها نزلوا كلهم إلى القتال فتركهم زكي حتى قاربوه واستجرم حتى أبعادوا عن القلعة ثم عطف عليهم فانهزموا . . الخ » .
(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير للايضاح .
(٤) ضبطت بعد مراجعة ياقوت ، قد ذكر أن جلاب اسم نهر بمدينة حران التي بالجزيرة مسمى باسم قرية يقال لها جلاب .
(٥) فرقة أخرى من أكبر فرق الأكراد .
(٦) ذكرها (محمد أمين زكي : خلاصة تاريخ السكردوكردستان ، ص ١٥٤ و ٣٩٠) وذكر لي الدكتور مصطفى جواد في خطابه أن مؤلف (إجابة السائل) المخطوط بيناريس ذكرها باسم « الشعبانية » .
(٧) في ابن الأثير : « كوشر » ، وما هنا هو الصحيح ، والضبط عن ياقوت ، حيث ذكر أنها قلعة حصينة في الجبان التي في شرق الموصل ليس إليها طريق إلا لرجال واحد وكانت قديماً تسمى « أردمشت » .
(٨) أردف ابن الأثير هذه الاسماء بقوله : « وهي حصون الهرانية » ، والمهرانية قبيلة من قبائل الأكراد .

وباقى بلاد الهكارية فتحها قرأجانجنا (١) صاحب الهادية بعد قتل عماد الدين وهذا قراجا أقطعه الأمير زين الدين بلاد الهكارية بعد زنكى ، ولما فتح عماد الدين آشب بنى قلعة الهادية ، وهى التى كانت تسمى قليعة الجلاب ، وإنما سميت الهادية (٢) نسبة إلى عماد الدين .

منازلة عماد الدين دمشق

وسبب ذلك أن صاحب دمشق شمس الملوك إسماعيل بن بورى بن طفتكين كان ظالماً سيئ السيرة إلى الغاية القسوى ، مع بخل زائد ودناءة نفس ، فكرهه أصحابه وأهله ورعيته ، ولما استشر بعض أصحابه له ، وخاف منهم راسل الأمير عماد الدين زنكى بحته على سرعة [٣٣] الوصول إلى دمشق ليسلمها إليه ، وأخلى (٣) المدينة من الذخائر والأموال ، وحملها إلى صرخد ، وتابع الرسل إلى عماد الدين بحته على الوصول ، ويقول : « إن أهملت الحجى سلمت المدينة إلى الفرنج » .

وتحقق ذلك أصحابه ، فواطأوا أمه على قتله فقتلته وانضاف إلى ذلك سبب (٤) آخر هو مذكور فى أخباره ، ولما قتله أمه أقامت فى الأمر بعده أخاه شهاب الدين محمود بن بورى ، وحلفت الناس له .

ووصل عماد الدين زنكى إلى دمشق ، وتنازلها فى جمادى الأولى [سنة تسع وعشرين وخمسة] (٥) ، وكان لما عبر الفرات أرسل رسلاً فى تقرير

(١) كذا فى الاصل ، وهو فى ابن الاثير : « قراجا » فقط ، ولم يتمكن من ضبط الاسم الثانى .

(٢) هذا يختلف مع تعريف باقوت لهادية وآشب ، انظر ما فات ، ص ٥٥ ، هامش هـ .

(٣) فى الأصل : « اخلا » .

(٤) ذكر هذا السبب الآخر (ابن الاثير : ج ١١ ، ص ٨) وخلاصته أن أم شمس الملوك

لتهمت باتصالها بأحد القواد فأزعم شمس الملوك قتلها فأسرعت هى بقتله .

(٥) أضيف ما بين الحاصرتين عن ابن الاثير للاينجاح .

قواعد التسليم ، فأروا الأمر قد فات فسار إلى دمشق فحصرها ، وكان نزوله أولاً من شمالها ، ثم انتقل إلى ميدان الحصى (١) ، وزحف وقاتل ، فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة ، وكان القائم بأعباء هذه الحروب معين الدين أتر (٢) مملوك طفتكين ، قام في حفظ البلد قياماً مشهوداً .

وبينا عماد الدين يحاصر البلد إذ ورد عليه أبو بكر بن بشر الجزري رسولا من الراشد بالله بن المسترشد ، ليمتوجه إليه وينجده على السلطان مسعود ، ويأمره بصلح صاحب دمشق ، والرحيل عنها ، فصالحهم ، وخطبوا بدمشق للملك ألب أرسلان بن السلطان محمود ، وكانت الخطبة له في جميع بلاد عماد الدين .

ذكر مقتل المسترشد وخلافة الراشد بالله

حكى الأمير مؤيد الدين سديد الدولة أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم ابن الأنيباري (٣) — كاتب الانشاء — قال :

كان وقع بين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وبين الخليفة المسترشد بالله خلف ، وخرج الخليفة لقتاله مرتين وكُسر ، فلما مات السلطان محمود وولى السلطنة أخوه السلطان مسعود بن محمد ، استطال نوابه بالعراق ، وعارض الخليفة في إقطاعه ، فوَقعت بينهما وحشة ، فتجهز المسترشد بالله وعزم على الخروج ، وجدَّ في ذلك ،

(١) في الأصل : « الحصا » .

(٢) في الأصل : « أتر » ، انظر ماقات ص ٩ ، هامش ٤

(٣) طاش ابن الأنيباري بين سنتي ٤٦٩ و ٥٥٨ (١٠٧٦ — ١١٦٣) ، وأقام كاتباً للانشاء نيفا وخمسين سنة ، وناب في الوزارة ، وبعث رسولا إلى الملك سنجر وغيره ، وكان بينه وبين الحريري صاحب المقامات مكاتبات ومراسلات . انظر ترجمته في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٠٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٤٧ ؛ وابن تفرى بردي : النجوم ، ج ٥ ، ص ٥٦٤ ؛ والزركلبي : الأعلام ، ج ٣ ، ص ٩١٩) ، ولا يعرف عن ابن الأنيباري أنه ألف في التاريخ أو غيره ، وأغلب الظن أن هذا الخبر روى عنه شفاها .

فدخل إليه الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي (١) وكال الدين (٢) صاحب
الخزن (٣) ، وأنا معهما ، وكان المسترشد قد طرد نواب السلطان عن البلاد ، ورتب
صاحب الخزن للنظر في المظالم (٤) ، فقال له الوزير شرف الدين : « يا مولانا ، في نفس
الملوك [٣٤] شيء ، فهل يؤذن له في المقال ؟ » فقال : « قل » ، فقال : « إلى أين
نمضي وبمن نتضد وإلى من نلتجئ ومقامنا ببغداد أمكن لنا ، ولا يقصدنا أحد ،
والعراق ففيه لنا الكفاية ، فإن الحسين بن علي — عليهما السلام — لما خرج
إلى العراق جرى عليه ما جرى ، ولو أقام بمكة ما اختلف عليه أحد من الناس ؟ » .
فقال لي الخليفة : « ما تقول يا كاتب ؟ » فقلت : « يا مولانا ، الصواب المقام ،
وما رآه الوزير فهو الرأي ، ولا يقدم علينا أحد ، وليت العراق يبقى لنا » .

فقال لصاحب الخزن : « يا وكيل ، ما تقول ؟ » فقال : « في نفسي ما في نفس
مولانا » . فأنشد الخليفة قول المتنبي :

وإذا لم يكن من الموت بدءٌ فمن المعجز أن تموت جباناً
ثم إنه تمجَّزَّ وجمع وحصل في خدمته جماعة من أمراء الأتراك ، فأعطاهم مالاً
عظيماً ، ثم خرج ، وخرجنا معه ، فلما قاربنا همدان ، وقع المصاف بين الخليفة

(١) هو وزير المسترشد والقتبي ، انظر ترجمته في : (ابن طباطبا : الفخرى ،
ص ٢٧١ ، ٢٧٥) .

(٢) في الفاروق (بهامش ابن القلانسي ، ص ٢٥٠) : « جمال الدين طلحة » .

(٣) لم أعثر على تعريف لهذه الوظيفة ، وإنما سمى متواليها في (ابن الساعي : الجامع المختصر)
بصدر الخزن العمور وذكر هناك في أكثر من موضع أنه عند توليها كان يخلع عليه قيس أطلس
نظي وبقيار بمغربي ، ويحمل وراءه ثلاثة أسياف على أيدي مماليك ترك رجالة ويركب في جمع كثير
من حجاب الديوان العزيز وحاشية الخزن العمور (المرجع المذكور ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٢٢٠) .
ويبدو من النص هنا أنها كانت وظيفة كبيرة تلي في الأهمية وظيفتي الوزارة وكتابة الانشاء .

(٤) للتعريف بهذه الوظيفة انظر : (الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٦٤ ، والقلقشندي :

صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٧٧) .

المسترشد بالله والسلطان مسعود بن محمد بمكان يسمى وادي مرك (١) — وهو قريب من جبل بهستون (٢) بالقرب من همدان — ، فلما اصطفت العساكر فرًا من معسكرنا جميع الأتراك ، ومالوا إلى ناحية السلطان ، ثم وقع القتال ، فانهزم الخليفة ومن بقي معه ، ونهب عسكره ، وقبض على الخليفة وأرباب المناصب ، وحمل الوزير وصاحب المخزن وأنا ونقيب العلويين إلى قلعة سرجهان (٣) — بالقرب من قزوین والرى — وبقي الخليفة مع السلطان وسار معه في بلاد أذربيجان إلى أن وصلوا إلى مراغة ، وهجم على الخليفة ثلاثة نفر من الملاحدة الباطنية ، وهو في خيمته ، فقتلوه ، وقتلوا معه [أبا عبد الله (٤)] ابن سكينه — وكان يصلى به — ، وذلك يوم الخميس لأربع بقين من ذى القعدة (٥) سنة تسع وعشرين وخمسمائة (٦) .

(١) كذا في الأصل ، وفي (ابن الأثير : ج ١١ ، ص ١٠) : « دايمرج » ولم يرد لها ذكر في ياقوت .

(٢) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها قرية وجبل ، أما القرية فبين همدان وحلوان ، تبعد عن همدان أربع مراحل ، أما الجبل فمرتفع ممتنع لا يرتقى إلى ذروته لأنه أملس كأنه منحوت .

(٣) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها قلعة حصينة على طرف جبال الديلم تشرف على قاع قزوین وزنجان وأبهر ، ونص على أنه رآها فوجدها من أحسن القلاع .

(٤) ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير وابن الجوزي .

(٥) كذا في الأصل ، وفي (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٤٩) : (وابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٠) أنه قتل يوم الخميس سابع عشر ذى القعدة .

(٦) انفرد ابن واصل بنقل هذا الحديث — هنا وفيما يلي — عن ابن الأباري كاتب إنشاء المسترشد ، ولهذا الحديث أهمية خاصة لأن ابن الأباري كان شاهداً عياناً لهذه الحوادث جميعاً كما أنه شارك فيها ، ولم يرد لهذا الحديث أي ذكر أو إشارة في كل المراجع الهامة التي كتبت عن هذا العصر والتي أشير إليها دائماً في هذه الحواشي ، وهي المنتظم لابن الجوزي ، والكامل لابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ؛ وإنما استطعت أن أحقق أنه نقله عن تاريخ الفارقي ، فقد نقل نصه عنه آمدروز في هوامش كتاب (ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ، ص ٢٥٠ — ٢٥١) وعليه طارضا نص ابن واصل لتصحيحه ، وقد نص الفارقي على أن هذا الحديث جرى بينه وبين ابن الأباري ، قال : « ولقد سألت السيد مؤيد الدين أبا عبد الله محمد بن عبد الكريم الأباري رحمه الله في سنة ٥٣٤ بينداد حين نزلت إليه في هذه السنة عن حال المسترشد والوقعة وما جرى ، فقال رضي الله عنه : إلخ » ثم روى الحديث كما جاء هنا .

قلت (١) : وصل في اليوم الذي قتل فيه الخليفة رسول إلى السلطان مسعود من عمه السلطان سَنَجَرشاه بن ملكشاه — صاحب خراسان — برسالة ظاهرها التقدم إليه بتعظيم الخليفة ورده إلى سرير ملكه ، وباطنها التدمير عليه والراحة منه ، ووردت الملاحظة صحبة الرسول ، فلما قتل الخليفة أظهر [٣٥] السلطان مسعود الجزع العظيم والحزن الكثير ، ودفن الخليفة بمراغة .

ووصل الخبر بذلك إلى العراق ، فحزن الناس عليه حزنا عظيما وبويغ بالخلافة ولده الراشد بالله ببغداد ، واستقرت خلافته بها ، ثم قدم السلطان وضرب عنق دُبَيْس ابن مَزِيد صاحب الحِلَّة .

قال مؤيد الربيع سربر الرولة بن الانباري : (لما قُتل الخليفة المسترشد بالله أحضرنا السلطان مسعود — وكان نقيب العلويين قد مات بقلعة مَرَجَهان ، ودفن هناك — فلما حضرنا عنده ، قال : « ما الرأي وما التدبير في أمر الخلافة ، ومن ترون ؟ » فقالوا : « يامولانا ، الخلافة لولى العهد — يعنى الراشد بالله — ، وقد بايعه الناس ببغداد ، وجلس واستقر ، وبويغ له من قبل قتل أبيه بولاية العهد ، وبويغ له الآن بالخلافة » . فقال السلطان : « ما إلى هذا سبيل ، ولا أقره عليها ، فإنه يحدث نفسه بالخروج مثل أبيه المسترشد ، ومن حين تولى أبيه لم يترك الخروج علينا ، كان قد خرج على أخى محمود مرتين ، وعلى مرة ، وهذه أخرى ، وتم عليه ماتم ، وبقيت علينا شناعة عظيمة وسبة إلى آخر الدهر ، فإنه يقال : قتلوا الخليفة ، وهم كانوا السبب في عود الخلافة إلى هذا البيت ، ولا أريد بلى الأمر إلا رجل لا يدخل نفسه في غير أمور الدين (٢) ، ولا يجند ، ولا يجمع ولا يخرج على

(١) هذا تعليق من المؤلف قطع به حديث ابن الانباري ، وسيعود إليه مرة ثانية .

(٢) هذا نص واضح يدل على مبلغ ما وصلت إليه مكانة الخليفة العباسي في ذلك العهد السلجوقي

أن « لا يدخل نفسه في غير أمر الدين » .

ولا على أهل بيتي ، وفي دار الخلافة جماعة ، فاعتمدوا على شيخ منهم صاحب عقل ورأى وتدبير ، يلزم نفسه ما يجب من طاعتنا ، ولا يخرج من داره ؛ ولا تُعَرَّجُوا عن هارون بن المقتدى بأمر الله ، فهو شيخ كبير ، ولا يرى الفتنة ، وقد أشار به عمي سنجر .

وكان في دار الخلافة في ذلك الوقت سبعة من أولاد المقتدى بأمر الله ، وهم أعمام المسترشد بالله بن المستظهر بالله بن المقتدى بأمر الله ، وبقى من السبعة من هو حي إلى سنة نيف وخمسين وخمسة ؛ وكان في الدار من أولاد المستظهر بالله — أخوة المسترشد بالله — سبعة ، وهم : الأمير أبو عبد الله محمد ، وأبو طالب ، وأبو نصر ، وأبو القسم ، وأبو علي ، وإسماعيل ، ويحيى ؛ ولهم أولاد جماعة ؛ وكان للمسترشد أولاد جماعة ، منهم الراشد بالله ؛ وللراشد نيف وعشرون ولداً ، أكبرهم [٣٦] حملت أمه به وعمر الراشد تسع سنين ، وهذا من أعجب الأشياء ؛ فحكى عن من كان يدخل إلى دار الخلافة ، ويطلع على أسرارهم أن الخليفة المسترشد أعطى لولده الراشد — وعمره أقل من تسع سنين — عدة جوارٍ ، وأمرهن أن يلاعبنه ويمكّنه من أنفسهن ، وكان فيهن جارية صفراء حبشية ، فحملت من الراشد ، فلما ظهر الحمل ، وبلغ ذلك المسترشد أنكره ، فأحضرها وتهدها ، فقالت : « والله ما تقدم إلى سواه ، وأنه قد بلغ الحلم » ، فسأل عن ذلك ببقية الجوارى ، فقلن مثل ذلك ؛ فأمر أن تُحمَل الجارية قطناً ، ثم وطئها الراشد ، فلما قام عنها أخرج القطن والمنى عليه ، وفعل ذلك ببقية الجوارى ، فخرج وعليه المنى ، ففرح المسترشد بذلك ، ووضعت الجارية ابناً ، فسماه المسترشد « أمير الجيش » ، وسر به سروراً شديداً .

وهذا لم يسمع بمثله إلا في الحجاز ، فإنه قيل إن نساء تهامة يحضن لتسع ، وتبلغ صبيانها لتسع ، وروى أن عمرو بن العاص كان أكبر من ابنه عبد الله بإثني عشر .

قال ابن الأثير: « وأرسل السلطان مسعود إلى عمه السلطان [سنجر] (١) يستشيريه فيمن يولى الخلافة ، فأرسل إليه يقول : « لاتولى إلا من يضمنه الوزير وصاحب الخزن وابن الأثير » ، فلما وصل السلطان إلى همدان اجتمع بنا ، وأشار بهارون بن المقتدى ، وعرفنا ما أمر به عمه السلطان سنجر ، فقال الوزير : « إذا كان الأمر يلزمنا ، فنحن نولى من نريد ، وهو الزاهد الدين الذي ليس في الدار مثله » ، فقال السلطان : « من هو ؟ » فقال : « الأمير أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله » ، فقال : « وتضمن ما يجرى منه ؟ » فقال الوزير : « نعم » ، وكان الأمير [أبو] (١) عبد الله صهر الوزير على ابنته ، فإنها دخلت يوماً الدار في خلافة المستظهر بالله ، فرآها الأمير أبو عبد الله ، فطلب من أبيه تزويجها ، فزوجه بها ، فدخل بها وبقيت عنده ، ثم توفيت ، فقال السلطان : « ذلك إليكم » ، وكنتموا الحال لثلاثين شهراً ، فيقتل الراشد بالله عمه الأمير أبو عبد الله ، ثم رحل السلطان والجماعة نحو بغداد (٢) .

وأما الراشد فإنه لما بويغ له ببغداد بالخلافة [٣٧] بعد مقتل أبيه المسترشد بالله . أرسل إلى الأمير عماد الدين زنكي بن آق سنقر يستدعيه لنجدته ، وضمن له أن يكون السلطنة والملك للملك ألب أرسلان بن محمود بن محمد بن ملكشاه الذي عند أتابك ، وأن تكون أتابكية السلطنة والخلافة بحكم عماد الدين ، فوردت الرسالة على عماد الدين زنكي بذلك ، وهو بظاهر دمشق محاصرها ، وبها شهاب الدين محمود بن بوري ، فصالحه عماد الدين زنكي ، ورحل عنها ، ووصل إلى حماة ، وبها شمس الخواص اليتاش (٣) — نائب صاحب دمشق — وكان قد نزع يده من طاعة صاحب دمشق ،

(١) ما بين الحاصرتين عن الفارق (ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥١ ، الهامش) .

(٢) بهذا اللفظ ينتهي حديث ابن الأثير كما رواه الفارق وعنه ابن واصل .

(٣) كذا في الأصل ، وهو في (ابن القلانسي ، ص ٢٤٨) : « شمس الخواص » فقط .

فالتجأ إلى عماد الدين ، فقبض عليه عماد الدين ، وأخذ منه حمة ، وسلمها إلى صاحبه صلاح الدين الياغيساني ، فاستناب فيها ولده شهاب الدين أحمد .

ثم توجه عماد الدين زنكي إلى بغداد لنصرة الراشد بالله ، وورد إلى بغداد جماعة من ملوك الأطراف متفقين على قتال السلطان مسعود ، ونصرة الراشد ، وهم : السلطان داود بن محمود (١) بن ملكشاه — صاحب أذربيجان — ، وبرنقش — صاحب قزوین — ، والبقرش الكبير — صاحب أصفهان — ، وصدقة بن دُبَيْس — صاحب الحلة — الذي قتل السلطان أباه دُبَيْساً ، ومعه عنتر بن أبي العسكر ، يدبره — لصباه — وورد أيضاً ابن الأحمدي ، وانضاف إلى هؤلاء مقدمو (٢) عساكر بغداد ، وهم : كج أبه ، وطرنطاي ، وغيرهما ؛ واضطربت بغداد ، ونقلوا أموالهم إلى دار الخلافة .

وأمر الخليفة أن يخطب بالسلطنة بعده للسلطان داود ، وتحالف الخليفة والسلطان داود والأمير عماد الدين زنكي ، وأرسل الخليفة الراشد إلى عماد الدين ثلاثين (٣) ألف دينار ، ووصل بعد ذلك سلجوق شاه بن محمد — أخو السلطان مسعود — إلى واسط ، وقبض على الأمير بك أبه ، ونهب ماله ، فأنحدر إليه عماد الدين زنكي ، فدفعه عنها ، ثم اصطالحا ، وعاد عماد الدين إلى بغداد .

(١) في الأصل : « محمد » والصحيح ما ذكرناه .

(٢) في الأصل : « مقدمين » .

(٣) في (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٤) : « مائتي ألف دينار » . ولاحظ أن نص

ابن واصل يوهو فيتفق ونص ابن الأثير ، وأغلب الظن أن المؤرخين ينقلون عن الفاروق .

ذكر قدوم السلطان محمود بن مسعود بن محمد إلى بغداد

وهروب الراشد بالله وعماد الدين زنكي إلى الموصل

ثم عبر الأمير عماد الدين زنكي إلى خراسان ، وحث على جمع العساكر للقاء السلطان مسعود ، وسار السلطان داوود [٣٨] نحو طريق خراسان ، وأظهر أنه يمضي إلى مراغة ، ثم عاد عماد الدين إلى بغداد ، (١) وبرز الراشد بالله إلى ظاهر بغداد أول شهر رمضان سنة ثلاثين وخمسة ، وسار على طريق خراسان ثلاثة أيام ، ثم عاد ونزل عند جامع السلطان ، ثم دخل بغداد ، وراسل العسكر وسائر الأمراء ، وأمرهم بالعود ، فعادوا ، ونزلوا في الخيام ، واتفقت كلمتهم على قتال السلطان مسعود .

ثم قدم السلطان مسعود في العساكر الكثيرة إلى بغداد ، ونزل بالملكية ، وشارف بعض العسكر البغدادى عسكره ، وطاردهم ، ثم نزل السلطان بغداد ، وحاصرها نيفا وخمسين يوماً ، فلم يظفر بطائل ، فعاد إلى التهروان عازماً على العود ، فوصله طرنتاي — صاحب واسط — ، ومعه سفن كثيرة ، فعاد إليها ، وعبر إلى غربي دجلة ، واختلفت كلمة العساكر الذين ببغداد ، وعاد السلطان داوود إلى بلاده .

ولما أحس الخليفة الراشد بالله بقوة السلطان مسعود ، وعلم أنه لا بد أن يولى الخلافة غيره جمع الأمراء من أهل بيته — الذين هم في الدار — ، وجمعهم في سرداب ،

(١) هنا تبدأ نسخة س ، فقد نص كاتبها على أنه سيبدأ الكتاب بالتأريخ لحوادث سنة ٥٣٠ هـ ، غير أن نص س في أوله مختصر كثيراً عن نص ك . وفيما يلي نص السطور الواردة في (ا ب) من نسخة س وهي القابلة لفقرة المذكورة هنا بين الرقبن : « سنة ثلاثين وخمسة ، وما وقع فيه (كذا) من الحوادث والاختبار : استهك هذه السنة والخليفة هو المتقي بأمر الله ابن المستظهر بالله ، وسلطان الوقت هو السلطان مسعود زنكي (كذا) ؛ قال بدر الدين بن الأنباري : « في هذا العام برز الراشد بالله لظاهر بغداد ، وسار على طريق خراسان ثلاثة =

وتقدم بأن يطبق عليهم ؛ فحكى أبو القاسم^(١) على — المعروف بحاجب الباب^(٢) — :
« أنه لما جمعهم الراشد في السرداب استدعاني ، وأشار إلى سيف بين يديه ، وقال :
« يا علي ، خذ هذا السيف » وأخذ بيده سيفاً آخر ، وقال : « إحدرك أن يسبق سيفي
سيفك ، فإني أريد أن أخرج كل من في السرداب ، وأقتل الجميع ، حتى لا يبقى
من يصلح للخلافة ، فإن هؤلاء ربما دخلوا وولوا غيري » ؛ ثم أمر بفتح السرداب ،
وإذا الخبر قد جاءه أن عماد الدين أتاك زنكي قد هرب ونهب الحرم الطاهري^(٣) ،
وتوجه إلى الموصل ، فرمى السيف من يده ، ودخل الدار ، وأخرج معه من الجواهر
ما لا يعرف قيمته ، وأعطاني مثل ذلك ، وأخرج معه [قاضي القضاة^(٣)] الزينبي ،
وجلال الدين أبا الرضا بن صدقة ، — وكان قد استوزره — وخرجتُ معه ، ولحقنا
بعمد الدين زنكي على طريق الموصل ، ووصل الراشد ، وصحبته عماد الدين زنكي
إلى الموصل .

— أيام ، وزجع ثانياً ، وكاتب العساكر ، وأمرم فنادوا ، وجاء السلطان مسعود إلى بغداد
وحاصرها سبع (كذا) وخمسين (؟) ، ثم رجم إلى النهروان واستمد ، وطادوفل بها الدجج ،
فلما أحس به الراشد ، قام وجمع الأتراء في سرب (كذا) وقتلهم ، قال أبو القاسم الفروي
بحاجب الباب : « وكنت عنده إذ ذاك — فأحلفني ، ومضيت إلى منزلي ، وأرسل ثانياً وطلبني »
وقال : أما تدري أن المقتي محباً في بيت الرجل لذي كان عندنا ؟ »

هذا هو نص س المقابل لهذه الفقرة هنا ، والفرق واضح بينهما إيجازاً وتصيلاً ، وبنيابة
النص تنتهي س (اب) ، وهناك سقط بينها وبين أول س (١٢) فان الذي غير متصل ،
أنظر مايلي ، ص ٦٩

(١) مما يؤكد ترجيحنا السابق أن تاريخ الفارقي هو الرجم الذي يأخذ عنه كل من ابن
الأمير وابن واصل أن هذه القصة لم ترد في ابن الأثير ، وإنما نقلها آمدروز عن الفارقي
في (ابن اللانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٩ — ٢٦١ ، الهوامش) . ولقد نص الفارقي
على أن هذه القصة مما حدثه به زين الدولة أبو القاسم على حاجب الباب .

(٢) في الأصل : « الظاهري » وفي الفارقي (الطاهر) ؛ وما هنا عن (يا قوت : معجم
البلدان) حيث ذكر أنه بأعلى مدينة السلام بغداد في الجانب الغربي ، منسوب إلى طاهر بن الحسين .
وبه كانت منازلهم ، وكان من لجأ إليه أمن ، فلذلك سمى الحرم وكان أول من جعلها حريماً
عبد الله بن طاهر بن حسين .

(٣) ما بين الحاصرتين عن الفارقي .

ذكر البيعة بالخلافة

للمقتنى لأمر الله بن المستظهر بالله

[٣٩] قال مؤيد الدين بن الأثير^(١). كاتب الانشاء : « لما كان هذا اليوم — وهو يوم الأحد سابع عشر^(٢) ذى القعدة — من هذه السنة — أعني سنة ثلاثين وخمسمائة — مضى الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي إلى دار السلطان ونحن معه ، وأخذ السلطان خط الوزير وخطوطنا بالضم ، ثم صرنا إلى دورنا ، وأصبحنا يوم الاثنين فحضرتنا عند الأمير أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، وتحدث الوزير معه ، وتحدثنا معه ، وشرطنا عليه القيام بأمر الخلافة وطاعة السلطان ، وأعلمناه أننا قد ضمنا للسلطان جميع ما اقترحه علينا ، فرضى بذلك ، وانفصلنا عنه ، ومضينا إلى السلطان ، وأعلمناه ما جرى ، وأنه رضى بما اشترطنا عليه ، فقال السلطان : « إذا كان كما قلت فبايعوه » ، فلما كان الغد صعدنا إلى الدار فأخرجنا منها أشياء من الآلات التي تصلح للغناء ، وأشياء لاتليق ، وشهد جماعة من أهل الدار أن الراشد كان يشرب الخمر ، فأفتى العلماء بنخله ، وحكم القضاة بذلك ، فخلعوه من الخلافة .

ودخلتُ إلى الأمير عبد الله محمد ، أنا والوزير وصاحب الخزن ، وتحدثنا معه ، وناولته رقعة^(٣) مما يلقب به ، فكان فيها : المقتنى بأمر الله ، والمستضى بنور الله ،

(١) هذا الحديث منقول أيضاً عن الفارق .

(٢) في الفارق : « طائر ذى القعدة » ، وهو خطأ واضح لأنه قال بعد ذلك : « وأصبحنا يوم الاثنين سابع عشر ذى القعدة . . » .

(٣) الفارق : « رقعة فيها ما يسمى به من القب » .

والمستجير بالله^(١)، فقال الخليفة: « ذلك إليكم »، ثم قال لي الخليفة: « ماذا ترى؟ »
قلت: « المقتنى لأمر الله » فقال: « مبارك » ثم مد يده، فأخذها الوزير وقبلها،
وقال: « بايعتُ سيدنا ومولانا الإمام المقتنى لأمر الله أمير المؤمنين على كتاب الله
وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم — واجتهاده »؛ ثم أخذها صاحب المخزن وقبلها،
وباره على مثل ذلك، ثم أخذت يده، وقلت بعد أن قبلتها: « بايعتُ سيدنا ومولانا
الإمام المقتنى لأمر الله أمير المؤمنين على ما بايعت عليه أباء وأخاء وابن أخيه في ولاية
عهده —، وكنت بايعت الإمام المستظهر بالله لما خدمته في وكالة الدار سنة اثنتين^(٢)
وتسعين وأربعمائة، وبقيت إلى سنة سبع وخمسة^(٣) و بايعت المسترشد، و بايعت
الراشد بولاية العهد — [٤٠] قال: ثم قمت من عنده، ودخل أمراء الدار وبايعوه،
ودخل العلماء والقضاة والفقهاء وأكابر الناس أجمع فبايعوه، ثم حضر السلطان مسعود
عنده، وكلمه المقتنى بالله بكلام وعظه فيه وعرفه ما يلزمه من طاعة الخلافة،
وأمره بالرفق بالرعية، والإحسان إليهم، وخوفه عاقبة الظلم، فبايعه السلطان،
وقبل يد الخليفة، ورجع إلى دار السلطنة.

وأما الراشد بالله فإنه أقام بالموصل مع عماد الدين أتابك زنكي، وانخطبة
بالموصل وسائر بلاد عماد الدين للراشد بالله، ثم أرسل عماد الدين زنكي إلى بغداد
القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله بن الشهرزوري وصحبه رسول الراشد بالله،
فأما رسول الراشد فلم تسمع رسالته، وأما كمال الدين فأحضر في الديوان وسمعت رسالته،

(١) كذا في الأصل، وفي الفارق: « والمستجد بالله ».

(٢) الفارق: « سنة ٩٠ » فقط.

(٣) في الأصل: « وخمسين » والتصحيح عن الفارق.

فحكى عن كمال الدين (١) أنه قال : « لما حضرت الديوان قيل لى : « تبائع أمير المؤمنين ؟ » فقلت : « أمير المؤمنين عندنا بالموصل (٢) ، وله فى أعناق الخلق بيعة متقدمة » . وطال الكلام وعدت إلى منزلى ، فلما كان الليل جاءتنى امرأة عجوز سراً (٣) ، فاجتمعت بى وأبانتنى رسالة عن الخليفة المتتقى لأمر الله ، مضمونها (٤) عتابى على ما قلت ، واستنزالى عنه ، فقلت : « غداً أخدم (٥) خدمة يظهر أثرها » ؛ فلما كان الغد أحضرت (٦) الديوان ، وقيل لى فى معنى البيعة ، فقلت : « أنا رجل فقيه قاضى ، ولا يجوز لى أن أبائع لخليفة إلا أن يثبت عندى خلع المتقدم » . فأحضروا الشهود وشهدوا عندى بالديوان بما أوجب خلعه ، فقلت : « هذا ثابت لا كلام (٧) فيه ، ولكن لا بد لى فى هذه الدعوة من نصيب ، لأن أمير المؤمنين قد حصل له خلافة الله فى أرضه ، والسلطان قد استراح ممن كان يقصده ، فنحن بأى شىء نمود ؟ » فرفع الأمر إلى الخليفة فأمر أن يُقطع عماد الدين زكى صريفين (٨)

(١) هذا الحديث يرويه ابن واصل عن ابن الأثير ، فقد ذكره الأخير مروياً عن أبيه حيث قال (ج ١١ ، ص ١٧) : « حكى لى والذى عنه — أى عن كمال الدين — » .
 (٢) عند هذا اللفظ يبدأ الاتفاق ثانياً بين نصي (س) ، (ك) ، فان ص (١٢) من نسخة س تبدأ بهذين اللفظين : « عندنا بالموصل ... الخ » ، ويلاحظ هنا أيضاً أن الخلاف لا زال واضحاً بين نصي النسختين ، فان ما هنا — أى نص ك — منفصل ، وما فى س ماخص عنه .
 (٣) فى (س) : « شريفة » ، وما هنا هو الصحيح لاتفاقه مع نص ابن الأثير وهو المرجع الذى ينقل عنه المؤلف هذا الحديث .
 (٤) فى (س) : « تتضمن » وهذا مثل يدل على الطريقة التى يتبعها كاتب هذه النسخة عند الاختصار .

(٥) فى (س) : « أخدمه » ، وما هنا هو الصحيح لاتفاقه مع ابن الأثير .
 (٦) فى (س) : « أحضرت إلى الديوان » ، وفى (ابن الأثير) : « حضرت إلى الديوان » .
 (٧) فى (س) : « لا كلام لأحد فيه ولا بد » ، وما هنا يتفق ونص ابن الأثير .
 (٨) فى (س) : « صريفين » بدون نقط ، وصريفين — أو صريفون كما رسمها ياقوت — فى سواد المراق فى موضعين : أحدهما قرية كبيرة قرب عكبراء وأرانا على ضفة نهر دجيل والثانية من قرى واسط ، أنظر (ياقوت : معجم البلدان) .

ودرب (١) هرون وحزمي (٢) مالكا — وهي من خاص الخليفة — وأمر بأن يزاد في ألقابه (٣) ، وقال : « هذه قاعدة لم يسمح لأحد بها من زعماء الأطراف أن يكون له نصيب [٤١] في خاص الخليفة » .

فبايعت وعدت مقضى الحوائج ، وقد حصلت (٤) على جملة صالحة من الأموال والتحف ، وكانت بيعة القاضي كمال الدين للخليفة المقتدى لأمر الله (٥) سنة إحدى وثلاثين وخمس مائة .

ولما عاد كمال الدين [الشهرزوري] (٦) سبَّ على يده المحضر بنجام الراشد ، فحكم به قاضى القضاء الزينبي بالموصل — وكان عند عماد الدين (٧) — وخطب للمقتدى بالموصل وسائر البلاد العمادية ، ثم فارق الراشد بالله الموصل ، وسار نحو الري ، ثم توجه نحو همدان ، ولم تزل الأحوال تتراعى به إلى أن عرض له مرض شارف به التلف ، ثم وثب عليه جماعة من الباطنية في يوم الثلاثاء سادس شهر رمضان سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة ، فقتلوه ودفن بشهرستان في جامعها (٨) .

(١) في الأصل : « وصرف » والتصحيح عن (ابن الأثير) ، (س) ، هذا ولم يوفق الناشر لتحقيق موضع هاتين المهمتين ، وإنما عاد ابن الأثير إلى ذكرهما مرة ثانية في حوادث سنة ٥٦٨ ، وذلك في (ج ١١ ، ص ١٤٨) ، قال : « وفيها أرسل نور الدين محمود رسولا إلى الخليفة ... يطلب تقليدا بما بيده من البلاد ... وأن يهبط من الاقطاع بسواد العراق ما كان لأبيه زنكي وهو : صريفين ودرب هارون ، والتمس أرضا على شاطئ دجلة بينها مدرسة للشافعية ويوقف عليها صريفين ودرب هارون .. » .

(٢) كذا في الأصل ، وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٧) : « وجرى ملكا » وفي (س) : « وحرص مالكا » .

(٣) في (ابن الأثير) : « ويزداد في ألقابه » وفي (س) : « وأمر أن يزاد في الغاية » .

(٤) في (س) : « خلصت » .

(٥) في الأصل : « بالله » وما هنا عن (س) وهو الصحيح .

(٦) ما بين الحاصرتين عن : (ابن الأثير) .

(٧) هنا يفصل ابن الأثير عن ابن واصل ، ويورد تفاصيل مختلفة عن حوادث أخرى .

(٨) ورد تاريخ قتل الراشد في نسخة (س) متأخراً عن الخبر ومكان الدفن ، وهو هنا متقدم .

وفي (١) سنة إحدى وثلاثين وخمسة نازل عماد الدين دَقُوقًا (٢) وملكها
بعد أن قاتل على قلعتها قتالاً شديداً .

منازلة عماد الدين مدينة حمص (٣)

قد ذكرنا أن حمص كانت لصمصام الدين خترخان بن قراجا، وأن عماد الدين
قبض عليه سنة أربع وعشرين وخمسة ، وحبسه في قلعة حلب ، ثم نقله إلى الموصل
فحبسه بها ، وقُتل في الحبس سنة تسع وعشرين وخمسة ، فولى حمص بعده
ولده عين الدولة إيلخان (٤) بن خترخان ، والمدير لأمره اسباسلار خرتاش
— مملوك أبيه — .

ولما كان في سنة ست وعشرين وخمسة وثب على عين الدولة مملوكه [ومملوك
أبيه (٥)] بزغش قتلته ، وكان بالقلعة زوج لجارية خترخان ، ومعه ابن لخترخان ،
قتل بزغش ، وأجلس في الأمر قريش بن خترخان (٦) ، والمدير لأمره اسباسلار
خرتاش ، ثم سلم خرتاش حمص الأمير شمس الملوك إسماعيل بن بوري — صاحب
دمشق — وأخذ منه عوضاً اقترحه عليه ، فلما قُتل شمس الملوك ، وولى أخوه

(١) قبل هذا الخبر في (س) ورد هذان اللفظان : « قال الراوى » دون أن يحدد من
هو وأغلب الظن أن كاتب نسخة (س) كتبها بالاملاء عن غيره ، وأن هذين اللفظين كانا من
مستلزمات الملى .

(٢) في الأصل : « دقوقا » وقد ضبط اللفظ بعد مراجعة ياقوت حيث ذكر أنها مدينة
بين إربل وبنداد .

(٣) هذا العنوان غير موجود في (س) والكلام هناك متصل .

(٤) رسم هذا اللفظ في الأصل هكذا : « أى لخان » وهو في (س) : « أبى طان » .

(٥) ما بين الحاصرتين عن : (س) ص ٢ ب .

(٦) في الأصل : « ختلخان » ، والتصحيح يقتضيه النص .

شهاب الدين محمود بن بوري (١) سلم حصص للأمير معين الدين أنر (٢) — مملوك جده طغتكين — ، فلما كانت هذه السنة — سنة إحدى وثلاثين وخمسةائة — توجه الأمير عماد الدين من الموصل إلى حصص ، وحصرها ، وقبل وصوله إليها نازلها حاجبه [٤٢] الأمير صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيسباني — صاحب حماة ، وهو أكبر أمراءه — ، وكان ذا مكر وحيل ، أرسله عماد الدين (٣) ليتوصل مع من فيها ليسلموها إليه ، فوصل إليها وفيها الأمير معين الدين أنر (٢) — وهو أكبر أمراء دمشق وإقطاعه حصص — ، فلم ينفذ فيه مكره ، ثم وصل عماد الدين فحصرها ، وعاود معين الدين في تسليم البلد غير مرة ، تارة بالوعد وتارة بالوعيد ، فاحتج بأنها ملك شهاب الدين ، وأنها بيده أمانة لا يسلمها إلا عن غلبة (٤) ، فأقام عليها إلى العشرين من شوال ، ثم رحل عنها من غير بلوغ غرض .

ذكر فتح قلعة بارين (٥) وكسر الفرنج — لعنهم الله —

ثم سار الأمير عماد الدين من حصص ونازل بارين — وهي للفرنج بالقرب من مدينة حماة — ، وزحف إليها ، فحشد الفرنج فارسهم وراجلهم ، وساروا إلى عماد الدين

(١) هذه الفقرة السابقة لهذا الرقم كلها استطراد من ابن واصل لتفصيل هذه الحقبة من تاريخ حصص ، وهو استطراد هام للغاية إذ لا يوجد له شبيه في كل المراجع التي تؤرخ لهذا العصر ، وهذه ميزة لابن واصل ولكتابته فقد اعتاد أن يقف طويلاً وأن يتحدث تفصيلاً كلما ورد ذكر مدينة من مدن الشام النهائية ، وخاصة المدن الهامة الثلاثة : حماة — وطنه الأصلي — وحصص ، وحلب .

(٢) في الأصل : « أنر » أنظر ما فات هنا ص ٩ ، هامش ٤

(٣) في (س) : « عماد الدين إليها ليسلموها » ، وما هنا يتفق ونص ابن الأثير

(ج ١١ ، ص ١٩)

(٤) في (س) : « عن إذنه » وما هنا يتفق ونص ابن الأثير .

(٥) في الأصل : « ماردين » وهو خطأ ، والتصحيح عن : (س) و (ابن الأثير) ؛

أنظر أيضاً النص فيما يلي . وهي في (ابن الأثير ج ١١ ص ٢٠) : « بمرين » ؛ والرمضان

صبيحان ، وإنما بمرين هو ما تستعمله العامة ، وبارين تقع بين حماة وحلب ، (ياقوت : معجم

البلدان) .

في ملوكهم وقامصتهم (١) وكنودهم (١) ليرحلوه عن بارين فلقبهم وقاتلهم أشد قتال ، وصبر الفريقان ، فهزم الفرنج ، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب ، فاحتس ملوكهم وفرسانهم بحصن بارين — لتربه منهم — ، فحصرهم المسلمون ، ومنع عماد الدين منهم كل شيء ، وتعدرو وصول الأخبار إليهم ، ودخلت القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد النصرانية ، مستنصرين على المسلمين ، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ حصن بارين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم المحامي عنها ، وأن همة المسلمين مصروفة إلى فتح بيت المقدس ، فحشدت النصرانية وجمعت ، وقصدوا الشام مع ملك قسطنطينية .

وجد عماد الدين في حصار بارين ، وهدمت عندهم الذخائر حتى أكلوا الدواب ، فأذعنوا بالتسليم ليؤمنهم ليعودوا إلى بلادهم ، فلم يجبهم [إلى ذلك (٢)] فلما سمع بقرب ملك الروم واجتماعه بمن بقي من الفرنج أعطاهم الأمان ، وتسلم منهم الحصن ،

(١) يتكرر ذكر « القومس » كثيراً في الكتب العربية التي أرخت للحروب الصليبية كالرستين لابي شامة والكامل لابن الأثير ، وهو تعريب حرفي للفظة اللاتينية « Comes » أي الأمير ، ومعناها الأصلية في اللاتينية « الرفيق » لأنه كان في بادئ الأمر يرافق الملك في حروبه وتقلباته ، ثم سمي بالأمير ، وقد تختلف الراجع في رسم هذا اللفظ ، فهو القمس ، أو القومس أو القمس ، أو القومس ؛ وم تارة يؤثثونه فيقولون : القومصية ، أو القومصة ، وكما اختلفت الراجع في رسم المفرد اختلفت أيضاً في رسم الجمع ، فهو عندم : قامس ، وقامسة ، وقامصة ، وقوامس ؛ ولفظة (Comes) هي التي حورت في لانة الفرنسية إلى (Comte) وهذه هي ما اعتادت نفس الراجع أن تعربها إلى « كند » ؛ واختلفوا في رسم هذا اللفظ أيضاً فهو عندم : كند ، وقند ، وم يجمعونهم على كنود . وهو عين اللفظ الذي اعتاد الكتاب المحدثون أن يسموه هكذا « كنت » أو « كونت » ، ومعنى اللفظين واحد وهو الأمير ، وإنما الأول مأخوذ عن اللاتينية (Comes) والثاني عن الفرنسية (Comte) أنظر : (الأب انستاس ماري الكرملي : ألقاب الشرف والتعظيم عند العرب ، مجلة الرسالة ، العدد ٤١١ ، ١٩ مايو سنة ١٩٤١) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن (س) و (ابن الأثير) .

وقرر عليهم خمسين ألف دينار [٤٣] يحملونها^(١) إليه ، ووقعت الإجابة إلى ذلك ، فلما فارقوا الحصن وتحققوا خروج ملك الروم لنصرتهم ندموا حيث لم ينفعهم الندم^(٢) .

ذكر فتح المعرة وكفر طاب

وفي مدة حصار بارين تسلم عماد الدين — رحمه الله — المعرة وكفر طاب من الفرنج^(٣) ، وكان الضرر ياحق المسلمين بالفرنج الذين فيها لتوسطهما البلاد الإسلامية^(٤) ، ولقد سلك الأمير عماد الدين من العدل في أهل المعرة لما استنقذها من الفرنج طريقة لم يسلكها أحد قبله ، سمعت^(٥) والدي — رحمه الله — يقول — ونحن بالبيت المقدس سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، وكان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن أبي بكر بن أيوب قد قدم إليها فاجتمع به والدي بالحرم الشريف — قال : « سألتني اليوم الساطان الملك المعظم : هل كان للمعرة سور ؟ قلت : « نعم » ، قال : « فمن هدمه ؟ » قلت : « أتأبى زنى لما ملك المعرة واستنقذها من الفرنج » ، ثم ذكرت له عدل أتأبى زنى ، وقلت له : إنه كان حنفي المذهب ، ومن مذهب أبي حنيفة — رحمه الله — أن الكفار إذا استولوا على بلد وفيه أملاك للمسلمين خرجت تلك الأملاك عن ملك أصحابها^(٥) لصيرورة البلد دار حرب^(٥) ، فإذا عاد البلد

(١) في الأصل : « يحملوها » وما هنا عن : (س) و (ابن الأثير) وهو الصحيح .

(٢) هذه الحوادث رواها ابن الأثير أكثر تفصيلا ، والنصان متفقان في اللفظ في أكثر

من موضع .

(٣) نص (س) يختلف عما هنا بعض الشيء وهو : « وكان الضرر بالأفرنج الذين نهجا

على المساهين عظيمًا لتوسطهما البلاد الإسلامية » .

(٤) هذه فقرة من الفقرات الكثيرة الهامة التي يشير فيها ابن واصل إلى أبيه وإلى نفسه ،

ومن هذه الفقرات استطعنا أن نعرف الشيء الكثير عن حياة ابن واصل وحياة أبيه مما لم تتضمنه

كتب التراجم .

(٥) هذه الجملة ساقطة من (س) .

بعد ذلك إلى المسلمين كانت تلك الأملاك لبيت المال ، فلما فتح أتابك المعرة جاءه (١) المعريون يطلبون تسليم أملاكهم إليهم ، فاستفتى أتابك الفقهاء [على] (٢) ذلك ، فافتتوا بما يقتضيه مذهبهم ، وهو أن الأملاك لبيت المال ، ولاحظ لأصحابها فيها ، فقال رحمه الله : إذا كان الفرنج يأخذون أملاكهم (٣) ، ونحن نأخذ أملاكهم ، فأى فرق بيننا وبين الفرنج ؟ كل من أتى (٤) بكتاب يدل على أنه مالك لأرض فليأخذها ، فرد إلى الناس جميع أملاكهم ، ولم يعترض لشيء منها . وقال : « فاستحسن [السلطان] (٥) الملك المعظم هذه الفعلة » . قلت (٦) : وأما ابن الأثير (٧) فإنه في تاريخه روى ذلك على غير هذه الصورة ، وقال : « إن الفرنج لما ملكوا المرة أخذوا أملاك أهلها ، فلما فتحها [عماد الدين] (٨) زنكي ، حضر من بقي من أهلها ومعهم أعقاب من هلك ، فطلبوا [٤٤] أملاكهم ، فطلب منهم كتبها ، فقالوا : إن الأفرنج أخذوا كل ما لنا ، وذهبت الكتب التي للأملاك (٩) ، فقال لأصحابه : « اطلبوا دفاتر ديوان حلب ، فكل من عليه خراج على ملك يسلم إليه » ، ففعلوا ذلك ، وعاد الناس إلى أملاكهم (١٠) ، وهذا من أحسن الأفعال وأعدلها » — رحمه الله وقدس روحه — .

(١) في الأصل : « جاءوا » وما هنا عن س .

(٢) ما بين الحاصرتين عن (س) .

(٣) في (س) : أملاكهم ولا نزدهما نحن ، فأى فرق ... الخ .

(٤) في الأصل : « آتا » بالألف .

(٥) ما بين الحاصرتين عن (س) .

(٦) مكان هذا اللفظ في س : « قال صاحب الكتاب القاضي جمال الدين بن واصل قاضي

القضاة بجهاة » .

(٧) هذا مثل من أمثلة كثيرة ستأتي فيما بعد تدل على أن ابن واصل لم يكن يقنع بالرواية

الواحدة حتى ولو كان راويها أبوه نفسه ، بل كان يقارن بين روايات المؤرخين المختلفين كلما وجد

خلافا بين هذه الروايات .

(٨) ما بين الحاصرتين عن (س) و(ابن الأثير : الكامل ، ج ١٩ ، ص ٢٠) .

(٩) نص ابن الأثير : « كل ما لنا والكتب التي للأملاك فيها » .

(١٠) نص ابن الأثير : « وأعاد على الناس أملاكهم » .

ذكر خروج ملك الروم إلى بلاد الإسلام

لما مضت القسوس والرهبان إلى بلاد الروم واستنفروهم على المسلمين بسبب عماد الدين ومنازلته بارين ، وخوفوهم من أخذها واستئصال من فيها ، فتجهز الروم وركبوا في البحر من قسطنطينية ، وساروا إلى أنطاكية ، وهي لهم يومئذ ، فأرسوا بها منتظرين المراكب التي فيها الأثقال والسلاح ، فلما وصلت ساروا إلى مدينة نيقية فنارلوها وحاصروها ، ثم صولحوا على مال يؤدي إليهم ، ثم ساروا إلى مدينة أذنة والمصيصة ، — وهما لابن ليون (١) الأرميني — فحصرهما ملك الروم وملكهما ، ثم نازل عين زربي (٢) ، فملكها عنوة ، وملك تل حمدون ، وحمل ملك الروم أهله إلى جزيرة قبرس ، ثم وصل إلى الشام فحصر مدينة أنطاكية في ذي القعدة من هذه السنة — أعني سنة إحدى وثلاثين وخمسةائة — ، وضيق على أهلها ، وبها يميند الأفرنجي ، ثم اصطلحا ، ورحل إلى بغراس ، ثم دخل بلد ابن ليون ، فبذل له ابن ليون مالاً ، ودخل في طاعته .

ذكر استيلاء عماد الدين على حمص (٣)

ولما فرغ عماد الدين من بارين سار إلى حماة ، ثم سار إلى بقاع بعلبك ، فملك حصن المجدل — وهو لصاحب دمشق — وأطاعه مستحفظ بانياس

(١) هو ليون الثاني Lion II ملك أرمينية في تلك السنة . وتسميه مراجع العصر العربية أيضاً « ابن لاون » ، أنظر: دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « أرمينية » .
(٢) في الأصل : « عين زربة » ، وفي س « عين رومه » ، وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠) : « عين زربة » والتصحيح عن معجم البلدان لياقوت حيث عرفها بأنها بلد بالثغر من نواحي المصيصة ، ثم ذكر أنها بقيت بيد المسلمين إلى أن اتولى عليها الروم في أيام سيف الدولة الحمداني ، ثم قال : « وهي في أيديهم إلى الآن ، وأهلها اليوم أرمن ، وهي من أعمال ابن ليون » .
(٣) هذا العنوان غير موجود في س .

— وهي لصاحب دمشق أيضاً^(١) — ، ثم سار إلى حمص فحصرها ، فلما نازل ملك الروم حلب — على ما نذكره — رحل عن حمص ونزل على سلمية ، ثم نزل على حماة — على ما نذكره — ، فلما انحلت قضية الروم عاد إلى حمص فنازلها ، ثم وقعت بينه وبين شهاب الدين [صاحب دمشق^(٢)] مراسلة ، فانتهى الأمر إلى الصلح ، وسلم إليه حمص ، وخطب زمرد خاتون — أم شهاب الدين^(٣) — [٤٥] وهي التي ذكرنا أنها قتلت ولدها شمس الملوك ، وزفت إليه في رمضان سنة اثنين وثلاثين وخمسة مائة واعتقد [عماد الدين] أنه إذا تزوجها كان ذلك طريقاً إلى تملكه دمشق ، فلما لم يحصل له ذلك أعرض عنها .

ذكر منازلة الروم حلب ثم شيزر^(٤)

ثم لما صالح ملك الروم ابن ليون قصد بزاعة^(٥) فحصرها ، فسير عماد الدين جماعة من العسكر إلى حلب ليمنعوها من الروم إن قصدوها ، ثم ملك الروم بزاعة

(١) هذه الجملة في س مضطربة الألفاظ والمعنى ، ونصها : « وأطاعه وهو مستحفظ بإياس وهو لصاحب دمشق أيضاً » .

(٢) أضفنا ما بين الحاصرتين من : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢١) وذلك للإيضاح .
(٣) هذان اللفظان لم يذكر في س ، وقد أضاف ابن الأثير لتعريف بهذه السيدة قوله : « وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلة على وادي شقرا ونهر بردى » .
وهذه المدرسة هي المعروفة باسم « المدرسة الخاتونية البرانية » ، بنتها العنقية ، وأوقفت عليها الأوقاف في سنة ٥٢٦ ؛ وزمرد خاتون هي صفوة الملوك ابنة الأمير جادلي ، أخت دقاق لأمه ، وزوجة تاج الملوك بوري ، وأم ولديه : شمس الملوك إسماعيل ، ومحمود ، وقد تزوجها فيما بعد أتابك عماد الدين زنكي ، فبقيت معه تسع سنين ، فلما قتل حجت وجارت بالمدينة المنورة إلى أن ماتت ودفنت هناك بالقيع في سنة ٥٥٧ ، أنظر أيضاً : (التعجبى : الدارس في المدارس ، نشر جعفر الحسني ، ج ١ ، ص ٥٠٢ - ٥٠٧) .

(٤) هذا العنوان غير موجود أيضاً في س ، ويلاحظ أن النص متصل دائماً في نسخة س ، وأن النواوين الموضحة قليلة ، وسنكتفي بهذه الإشارة وما سبقتها إلى هذه الظاهرة ثم نسكت عنها بعد ذلك لتكرارها في معظم الصفحات والموضوعات .

(٥) نص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢١) فيه زيادة لتعريف بالمدينة ، قال : « وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب » .

بعد أن نصب على أهلها المنجنقيات ، وضيق عليهم ، فسلموها إليه بالأمان في الخامس والعشرين من رجب سنة اثنين وثلاثين وخمسة ، وقتل وأسر وسبا ، وكان عدة من خرج إليه من أهلها خمسة آلاف ونمائئة نفس ؛ وتنصر قاضيها وجماعة من أعيانها — نحو أربعمئة نفس — وأقام الروم عشرة أيام يطلبون من اختفى ، فقبل لهم : « إن جماعة نزلوا في المغارات » ، فدخنوا عليهم ، فهلكوا في المغاير .

ثم ^(١) رحل ملك الروم إلى حلب ، فقتل على نهر قويق ومعه الفرنج الذين بساحل الشام ، وزحفوا إلى حلب بخيلهم ورجلهم ، فخرج إليهم أحداث حلب ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، فقتل من الروم وجرح خلق كثير ، وقتل بطريق عظيم التدر عندهم ، فأقاموا [على حلب ^(٢)] ثلاثة أيام ؛ ولم يظفروا بطائل ، فرحلوا إلى قلعة الأثارب ، فهرب من بها من المسلمين ، فملكوها الروم تاسع شعبان وتركوا ^(٣) بها سبي بزاعة والأسرى ، ثم رحلوا عنها ، فلما سمع برحيلهم ابن سوار — نائب عماد الدين بحلب — رحل فيمن معه من العسكر ، فأوقع بمن في الأثارب من الروم ، وخلص الأسرى والسبي ، وعاد إلى حلب .

ونزل عماد الدين سلمية — كما ذكرنا — وعبر ثقله الفرات ، وأقام بسلمية جريدة ، ليتبع الروم ويقطع عنهم الميرة .

ثم قصد الروم قلعة شيزر — وصاحبها الأمير أبو العساكر [سلطان بن علي ابن مقلد بن نصرون منقذ الكنانى ^(٤)] — فنازلوها ونصبوا عليها ستة عشر منجنيقاً ، فسار عماد الدين ونزل على النهر المعروف بالعاصى [٤٦] — بينها وبين حماة —

(١) قبل هذا اللفظ في س (ص ٤ ب) عنوان كبير هو : (ذكر مناولة ملك الروم حلب) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) في الأصل : «ونزلوا» والتصحیح عن س (ص ١ ب) و (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٢) .

(٤) ما بين الحاصرتين عن : (س ، ص ٤ ب) ، (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٢) .

وكان [عماد الدين] كل يوم يركب هو وعسكره ويسرون إلى شيزر ، ويتفوق
بمحث يرام الروم ، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفر به منهم .

ذكر توجه القاضي كمال الدين بن الشهرزوري

إلى السلطان مسعود في معنى الروم واستنجاهه [به (١)] عليهم

ولما كان الروم على بُزَاعَة أرسل الأمير عماد الدين زكي القاضي كمال الدين
أبا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري إلى السلطان مسعود بن محمد بن
ملكشاه يستنجاهه ويطلب منه العساكر ، فقال [القاضي (١)] لعماد الدين حين أرسله :
« أخاف (٢) أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة [علينا (١)] ،
وينفذ العساكر ، فإذا توسطوا البلاد ملكوها » . فقال الأمير عماد الدين :
« إن هذا العدو قد طمع في البلاد ، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام ،
وعلى كل حال فالمسلمون أولى من الكفار بها » . قال كمال الدين : [فسرت طالب
بغداد ، وجديت في السير (٣)] ، فلما وصلت بغداد [وحضرت قدام السلطان (٣)]
وأديت الرسالة بإنفاذ العساكر ، وأنا أخاطب ولا أزداد على الوعد [شيئاً (٣)] ،
فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرت فلانا — وهو فقيه
كان ينوب عني في القضاء — فقلت [له] : « خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة
من أوباش بغداد والأعاجم ، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع
القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد : « وا إسلاماه ! وا دين محمداه ! »

(١) ما بين الحاصرتين عن س (ص ٤ ب) .

(٢) هذا الحديث بين القاضي وعماد الدين غير مثبت في (ابن الأثير) ويلاحظ أن نصي
ابن واصل وابن الأثير يفتقان في معظمهما ، وقد يختلفان إيجازاً وإطناباً ، وسقوط هذا الحديث
مثل ذلك . والأمثلة بمد هذا كثيرة مما يرجع رأينا أن المؤرخين ينتقلان عن مرجع آخر لا نعرفه .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات عن : س (ص ١٥ أ) .

ويخرجون من الجامع ويتصدون دار السلطان مستغيثين ؛ ثم وضعت إنسانا آخر فعل ذلك في جامع السلطان ؛ فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه ، وصاح ، وتبعه ذلك النفر بالصياح والبكاء ، فلم يبق في الجامع إلا من قام وبكى ، وبطلت الخطبة ، وسار الناس كلهم إلى دار السلطان ؛ وقد فعل أولئك الذين يجامع السلطان مثلهم ، فاجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون ، وخرج الأمر عن الضبط ، وخاف السلطان في داره [٤٧] وقال : « ما الخبر ؟ » فقيل : « إن الناس قد تاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الفزاة (١) » ، فقال : « أحضروا [القاضي] ابن الشهرزوري » ، قال : فحضرت عنده وأنا خائف منه ، إلا أنني قد عزمت على صدقه وقول الحق .

فلما دخلت قال : « يا قاضي ، ما هذه الفتنة ؟ » فقلت : « إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر ، ولا شك أن السلطان لم يعلم كم بينه وبين العدو ، وإنما بينكم نحو أسبوع ، وإن أخذوا حلب انحدروا إليكم في الفرات وفي البر ، وليس بينكم بلد بينهم عن بغداد » ، وعظمت الأمر عليه حتى كأنه ينظر إليه ؛ فقال : « اردد هؤلاء العامة عنا ، وخذ من العساكر ما شئت ، والامداد تابعك » . قال : « فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم ، وعرقهم الحال ، وأمرتهم بالعود ، فعادوا وتفرقوا ، وانتخبت (٢) من عسكره عشرة آلاف فارس [من خيار العسكر (٣)] ، وكتبت إلى الشهيد أعرفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير ؛ وأجدد استئذانه في ذلك ، فأمرني بتسييرهم والحث على ذلك ، وعبرت بالعساكر الجانب الغربي ، فبينما نحن

(١) في س (س ه ب) : « العراق » وهو خطأ واضح .

(٢) في الأصل : « وانتخب » ، وما هنا عن س .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (س ه ب) .

تجهز للحركة ، وإذا قد وصل نجّاب من الشهيد يخبر بأن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضا ، ويأمرني بترك استصحاب العساكر ؛ فلما خاطبت السلطان في ذلك أصرّ على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها ، وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد ويملكها ، ولم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي ، وسرت إلى الشهيد .

ذكر تخذيل (١) عماد الدين

بين الفرنج والروم حتى رحلوا خائبين

قد ذكرنا مناظرة الروم والفرنج شيزر ، ونزول عماد الدين زنكي — رحمه الله — على العاصي بالقرب منهم ، ثم إنه أرسل إلى ملك الروم يقول له : « إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال ، فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقي ، فإن ظفرت بكم أرحمت المسلمين منكم ، وإن ظفرت بي استرحمت وأخذتم شيزر وغيرها » ؛ ولم يكن لعماد (١) الدين بهم طاقة ولا قوة ، وإنما كان يوههم بهذا القول وأشباهه ، فأشار الفرنج على ملك الروم بمصافقته (٢) [٤٨] وهوّنوا أمره عليهم ، فلم يفعل ، وقال : « أتظنون أنه ليس له من العسكر إلا ماترون ؟ وإنما يريد أنكم تلقونه فيجىء إليه من [نجادات] (٤) المسلمين مالا حد عليه .

وكان أيضا عماد الدين يرسل إلى ملك الروم يوههم بأن فرنج الشام خائفون منه ، فلو فارق مكانه لتخلّوا عنه ، ويرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ، ويقول لهم :

(١) في س : « محدد » .

(٢) في الأصل : « بهاد » ، وما هنا عن س (ص ١٦) .

(٣) في (اللسان) : « أصفقوا على الأمر اجتمعوا عليه ، وأصفقوا على الرجل كذلك » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن : س (ص ١٦) ، (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٢) .

« إِنْ مَلَكَ بِالشَّامِ حَصَنًا وَاحِدًا مَلَكَ بِبِلَادِكُمْ جَمِيعًا » ؛ فاستشعر كلٌّ من صاحبه ، فرحل ملك الروم (١) من شيزر في هذه السنة ، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها ، فاتبع عماد الدين ساقية المسكر ، فظفر بجماعة منهم ، وأخذ جميع ما تركوه ، ورجع ملك الروم خائبًا إلى بلاده .

وفي خروج ملك الروم إلى الشام وحلب وعوده عنها خائبًا يقول المسلم (٢) ابن خضرم بن قسيم الحموي قصيدة بمدح بها الأمير عماد الدين زنكي — رحمه الله —
أولها :

بِعَزْمِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الرَّحِيمُ تَدُلُّ لَكَ الصَّعَابُ وَتَسْتَقِيمُ
[ومنها يقول (٣)] :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ كَلْبَ الرُّومِ لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّكَ الْمَلِكُ الرَّحِيمُ
فَجَاءَ يُطَبِّقُ الْفَلَوَاتِ جَيْشًا (٤) كَانَ الْجَحْفَلَ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ
وَقَدْ نَزَلَ الزَّمَانُ عَلَى رِضَاهُ وَكَانَ (٥) نَخْطِبُهُ الْخَطْبُ الْعَظِيمُ
فَحِينَ رَمَيْتَهُ بِكَ (٦) فِي خَمِيسٍ تَيَقَّنَنَّ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَدُومُ

(١) كان امبراطور الدولة البيزنطية في هذه السنة (٥٣٢ = ١١٣٨) هو الامبراطور يوحنا الثاني كالوجوهانيز Calojohannes [١١١٨ — ١١٥٤٣] ؛ انظر كتاب (الامبراطورية البيزنطية ، تأليف نورمان بينز ، وترجمة الدكتور حسين مؤنس ، والأستاذ محمود يوسف زايد ، ص ١٤٠١ .

(٢) لم أعثر على ترجمة مفصلة لهذا الشاعر ، وإنما ذكر (الصابوني ، تاريخ حماة ، ص ١٠٠) أنه كان من الشعراء المجيدين ، وأنه توفي سنة ٥٣٤ ، ثم استشهد بهذه الأبيات المذكورة هنا .
(٣) ما بين الحاصرتين عن : س (ص ١٦) ، (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٣) .
(٤) كذا في الأصل ، وهي في : س (ص ١٦) : « جيناً » ، وفي (ابن الأثير) : « خيلاً » .

(٥) كذا في الأصل وفي س ، وهي في (ابن الأثير) : « ودان » .

(٦) كذا في الأصل وفي ابن الأثير ، وهي في س : « ك » .

وَأَبْصَرَ فِي الْمَفَاضَةِ مِنْكَ لَيْثًا (١) فَأَخْرَقَ لَا يَسِيرُ وَلَا يَقِيمُ
كَأَنَّكَ فِي الْعَجَاجِ شِهَابٌ نُورٌ تَوَقَّدَ وَهُوَ شَيْطَانٌ رَجِيمٌ
أَرَادَ بَقَاءَ مُهْجَتِهِ قَوْلِي وَلَيْسَ سِوَى الْجَمَامِ لَهُ حَمِيمٌ

ولما رجع ملك الروم وصل إلى عماد الدين زنكي رسول الخليفة الإمام المقتدى
لأمير الله أمير المؤمنين ، وهو مؤيد الدين سديد الدولة بن الأنباري — كاتب الإنشاء
ورسول السلطان مسعود — بالخلع ، فلبس خلعة الخليفة والسلطان وركب بهما ،
وذلك بظاهر مدينة حمص يوم عرفة [٤٩] من هذه السنة — أعني سنة اثنين
وثلاثين وخمسةائة — ودخل بزمرد خاتون أم الأمير شهاب الدين محمود ، صاحب
دمشق — كما تقدم — .

وفي المحرم سنة ثلاث وثلاثين وخمسةائة وصل الأمير عماد الدين — رحمه الله —
إلى حلب ، واستقر أهلها وأهل حماة وأهل منبج على حصن بزاعة حتى فتحه بالسيف
[وقتل كل من فيه من الروم والفرنج (٢)] وجمعت رؤوس القتلى وبنيت منها منارة
أُذِّنَ عليها ، ثم تحول بالسكر إلى حصار قلعة الأتاب ففتحها في صفر ، ثم توجه
إلى البلاد الشرقية .

وفي هذه السنة نازل عماد الدين قلعة دارا ، وهي للأمير حسام الدين تمرناش
[ابن] ايلغازي بن أرتق (٣) [فلم ينل منها طائلا ، وخاف على المسلمين ، ثم رحل منها
إلى حران (٤)] .

(١) لى س : « لبت » ومعظم الكلمات الأخرى غير منقوطة ، أما في (ابن الأمير)
فالنص يختلف ، وهو :

وَأَبْصَرَ فِي الْمَفَاضَةِ مِنْكَ جَيْشًا قَاتِرًا لَا يَسِيرُ وَلَا يَقِيمُ

(٢) ما بين الحاصرين زيادات عن س (ص ٦ ب) .

(٣) في الأصل : « برتق » والتصحيح عن س ، وحسام الدين ثاني أمير من فرع الأراقة
الدين حكوا ماردين ، وإياها من سنة ٥١٦ إلى سنة ٥٤٧ . أنظر : (Zambaur. Manuel de
Genealogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam. P. 228).

ذكر استيلاء عماد الدين زنكى على حرّان ثانيا

كنا قد ذكرنا أن عماد الدين ملك حرّان سنة اثنتين وعشرين وخمسة ، ولما ملكها أقطعها سودكين الكرجى ، فعصى عليه وانضاف إلى عسكر الخليفة المسترشد بالله لما نازل الموصل ، وسار معه حين رحل عن الموصل ، وترك فيها والياً من قبله ، ثم مات [بعد ذلك] (١) سودكين فنازلها في هذه السنة عسكر عماد الدين ، فتسلم المدينة ، وبقيت القلعة وفيها الوالى ، ثم تسلم عماد الدين القلعة في منتصف ذى القعدة من هذه السنة — أعنى سنة ثلاث وثلاثين وخمسة — .

ذكر استيلاء عماد الدين زنكى

على شهرزور وأعمالها

كانت شهرزور (٢) وما يضاف إليها من الأعمال في يد قفجاق بن أرسلان باش التركمانى ، وكان نافذ الحكم على قاصى التركمان ودانبيهم ، وكان الملوك يتحامون قصد ولايته لخصانتها ، فعظم شأنه وازداد جمعه ، فقصد عماد الدين ، وهزم عسكره ، وملك بلاد شهرزور وغيرها ، وأضافها إلى ولايته ، وأصلح أحوالها ، ونخف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان .

وفى ذى الحجة من هذه السنة رجع عماد الدين إلى الشام ، ونزل بظاهر حلب على قويق ، ثم رحل إلى أرض حماة ، واستصحب من أهل حماة تسعة آلاف راجل يخدمون الركب .

(١) ما بين الحاصرتين زيادات عن س (ص ٦ ب) .

(٢) هكذا ضبطها ياقوت في معجم البلدان ، وقال إنها كورة واسعة في الجيبان بين أربيل

ومهدان ، أحدثها زور بن الضحاك ، ومعنى شهر بالفارسية المدينة .

وفي هذه السنة قُتل الأمير شهاب الدين محمود^(١) بن بوري بن طفتكين صاحب دمشق ، وذلك في ليلة الجمعة [٥٠] لثلاث بقين من شوال ، قتله [ثلاثة من غلمانه]^(٢) : البقس ، ويوسف الخادم ، والفراش الخركاوي^(٣) ، وصبيحة قتله وصل أخوه الأمير جمال الدين محمد بن بوري ، وملك دمشق ، وقام بتدبير دولته الأمير معين الدين أتر^(٤) ، مملوك جده طفتكين .

ذكر استيلاء عماد الدين زنكي على بعلبك

كان السبب في ذلك أن شهاب الدين محموداً^(٥) لما قُتل بدمشق حزنت عليه أمه زمرد خاتون حزناً شديداً ، فحملت عماد الدين على قصد دمشق والطلب بثأر^(٦) ولدها شهاب الدين ، فتحرك لتصد دمشق ، فاستعد معين الدين بدمشق ، واستكثرت

(١) حكم دمشق من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٣٣ ؛ أنظر : (Zambaur, Op. Cit. P. 30)

(٢) في الأصل وفي س : « غلامه » وما هنا عن : (ابن الأثير ج ١١ ، ص ٢٦)

فان النص بما يلي يقتضيه .

(٣) فصل (ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩) الحديث عن قتل شهاب الدين محمود بن بوري وعن قتلته ، وقد آثرنا نقل حديثه هنا للايضاح ، قال : « وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من شوال من السنة في غداته ظهرت الحادثة الدبرة على الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بن ظهير الدين أتابك ، وقتله في فراشه وهو في نومه في ليلة الجمعة المذكورة ، بيد غلمانه الملاءين . البقس الأرهني الذي اصطنعه وقربه إليه واعتمد في أشغاله عليه ، ويوسف الخادم الذي وثق به في نومه لديه ، والخركاوي الفرّاش الراقده حوالبه وكان هؤلاء الثلاثة نفر الجناة الملاءين يبيتون حول سريره ، وتحققوا نومه ووثبوا عليه فقتلوه في فراشه على سريره ، وصاح فرّاش آخر كان معهم فقتلوه أيضا ، ودبروا أسرم بينهم وأخفوا سرهم بحيث خرجوا من القلعة ، وظهر الأمر ، وطلب البقس لعنه الله فهرب ونهب بيته ، ومسك الآخرا ن فصلبا على سور باب الجابية . . . إله » .

(٤) في الأصل ، وفي س ، وفي ابن الأثير : « أتر » والصحيح ما أثبتناه هنا ، وهكذا

ضبطه الذهبي . انظر : (النعمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ندر جعفر الحسني ، ج ١ ، ص ٥٨٨) .

(٥) في الأصل « محمود » .

(٦) أنظر تفصيل ذلك في (ابن القلانسي ، ص ٢٦٩) .

من الذخائر والعدد والرجال ، ولم يتركوا شيئاً يحتاجون إليه إلا وبذلوا الجهد في تحصيله ، وأقاموا ينتظرونه ، ووصل عماد الدين إلى بحيرة قدس ، ثم سار منها إلى بعلبك فنازلها .

وكان الأمير جمال الدين محمد بن بوري لما ملك دمشق بعد أخيه شهاب الدين قد أقطع بعلبك لمعين الدين ، فاستناب فيها معين الدين [من يثق إليه] (١) ، فجدّ عماد الدين في محاصرتها ، ونصب عليها أربعة عشر منجنيقاً ترمى ليلاً ونهاراً ، فأشرف من بها على الهلاك ، فطلبوا الأمان وسلموا إليه المدينة ، وبقيت القلعة وفيها جماعة من الشجعان ، فقاتلهم فلما يئسوا من النصر طلبوا الأمان ، فأمنهم ، فسلموا إليه القلعة ، فلما سلموها إليه عندهم ، وأمر بصلبهم فصلبوا ، ولم ينج منهم إلا القليل ، فاستقبح الناس منه ذلك ، واستعظموه وخافوه وحذروه ، ولا سيما أهل دمشق ، فإنهم قالوا : « لو ملكنا لفعل بنا كذلك » ، فجدّوا في محاربتة .

وكان لمعين الدين جارية يهواها ، فلما تزوج أم جمال الدين محمد بن بوري صاحب دمشق سيرها (٢) إلى بعلبك ، فلما ملك عماد الدين بعلبك أخذ الجارية [فنزجها] (٣) بحلب ، فلم تزل بها إلى أن قُتل [عماد الدين] (٤) فسيرها ابنه نور الدين محمود — رحمهم الله تعالى — إلى معين الدين ، وهي كانت سبب الود بينهما ، وكان فتح بعلبك رابع صفر (٥) سنة أربع وثلاثين وخمسمائة .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (ص ١٧) .

(٢) الضمير هنا عائد على الجارية .

(٣) في الأصل ، وفي س : « وتركها » ، والصحيح وما يستقيم به المعنى ما ذكرناه هنا

نقلاً عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٧) .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (ص ٧ ب) .

(٥) لم يذكر اليوم والشهر في س .

ذكر منازلة عماد الدين زنكي دمشق^(١)

ولما فرغ عماد الدين من بعلبك سار إلى دمشق ، وذلك في ربيع الأول^(٢) من هذه [٥١] السنة — أعنى سنة أربع وثلاثين وخمسة (٣) — فنزل بالبقاع وسير إلى جمال الدين محمد يبذل له بلداً يقترحه ليسلم إليه دمشق ، فلم يجبه إلى ذلك ، فرحل [عماد الدين] إلى دمشق ، ونزل دارياً ثالث عشر ربيع الأول^(٤) ، والتفت الطلائع واقتتلوا ، فكان الظفر لعماد الدين ، فانهزم الدمشقيون وأخذهم السيف ، وقتل جمع كثير ، ثم تقدم عماد الدين زنكي إلى المصلى ، فنزل هناك ، ولقيه جند دمشق وأحدائها ورجالُ الغوطة ، فقاتلوه ، فانهزموا ، وقتل منهم وأسر وجرح جماعة ، وأشرف البلد ذلك اليوم على التسليم ، فأمسك عماد الدين عن القتال عدة^(٥) أيام وراسل جمال الدين صاحب دمشق ، وبذل له بعلبك وحمص وغيرها مما يختار من البلاد ، فامتنع أصحابه من ذلك ، وخوفوه عاقبة غدره كما فعل بأهل بعلبك ، ثم عاود [عماد الدين] الزحف ، واستمر القتال والحصار إلى شعبان من هذه السنة .

ولما كانت ليلة الجمعة ثامن شعبان توفي جمال الدين محمد بن بوري صاحب دمشق — وعماد الدين محاصر البلد — فأجلس في الملك بعده ولده الأمير مجير الدين آبق^(٦) بن محمد — وهو آخر ملوك دمشق من بيت طغتكين — ، وقام بتدبير

(١) هذا العنوان غير موجود في س ، وإنما مكانه هناك هذان اللفظان : (قال الراوى) .

(٢) في س : « ربيع الآخر » ، أما ابن الأثير فتفق مع المتن هنا .

(٣) لم ينص على السنة في س .

(٤) كذا في الأصل وفي ابن الأثير ، وفي ابن القلانسي : « ربيع الآخر » .

(٥) في س « مدة » ، وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٨) : « عشرة » .

(٦) في الأصل : « اتق » ، وقد صحح الاسم بعد مراجعة : (ابن القلانسي ، ص ٢٧١

و (ابن الأثير ج ١١ ، ص ٢٨) و (Zamban, Op .Cit. P. 30) .

دولته معين الدين أنر ، فطمع عماد الدين في البلد وزحف إليه زحفاً شديداً ظناً منه أنه ربما يقع بين المقدمين والامراء اختلاف ، فيملك البلد ، فخاب أمه ، وراسل (١) معين الدين الفرنج ، واستدعاهم إلى نصرته ، وبذل لهم بدولا ، ومن جلتها أنه يحصر بانياس ويأخذها ويسلمها إليهم ، وخوفهم من عماد الدين أنه إن ملك دمشق يملك البيت المقدس ، ولا يترك لهم بلداً بالساحل ؛ فأجمع (٢) الفرنج وعزموا على السير إلى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها على قتال عماد الدين زنكي ، وعلم عماد الدين ذلك ، فسار عماد الدين إلى حوران — خامس رمضان — عازماً على لقاء الفرنج قبل أن يجمعوا مع الدمشقيين على قتاله ، فلما سمع (٢) الفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم ، فعاد عماد الدين إلى حصر دمشق ، فقتل بعذرا (٣) ، وذلك سادس (٤) شوال من هذه السنة ، وأحرق عدة قرى من المرج [٥٢] والغوطة ، ورحل عائداً إلى بلاده ، ووصل الفرنج إلى دمشق ، واجتمعوا بصاحبها .

وسار معين الدين بعسكر دمشق إلى بانياس — وهي في طاعة عماد الدين — ليحصرها ويسلمها إلى الفرنج ، وكان صاحبها قد جمع جمعاً ، وسار إلى صور للغارة على بلده (٥) ، فصادفه صاحب أنطاكية وهو قاصد إلى دمشق نجدة لصاحبها

(١) كان رسول معين الدين إلى الفرنج هو أسامة بن منقذ الشاعر المعروف ، أرسله إلى فولك الخامس ملك بيت المقدس (١١٣١ — ١١٤٢) ، وقد تقدم هذا الملك وحده أول الأمر لمساعدة معين الدين والدماشقة ، فلما هزموا انضم إليهم ريمون صاحب أنطاكية وجوسلين الثاني صاحب الرها . أنظر : (حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ، ص ٢٩ — ٣٢ ، وما به من مراجع) .

(٢) في س (١٨) : « فاجتمعوا » و « سمعوا » .

(٣) ذكر (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٨) أنها شمال دمشق .

(٤) كذا في الأصل وفي ابن الأثير ، وفي (ابن القلانسي ، ص ٢٧٢) : « يوم الأربعاء »

لست بقين من شوال » .

(٥) في الأصل ، وفي س : « بلدها » ، وهذا خطأ يعكس المعنى ، وقد صحح بيد مراجعة

(ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٨) ونصه هناك واضح مفهوم وهو : (وكان واليها — أي والي

بنياس — قد سار قبل ذلك منها بجمعة إلى مدينة صور للاطارة على بلاده) .

على عماد الدين ، فاقتتلا ، فانهزم المسلمون ، وأخذ صاحب (١) بانياس ، فقتل من قُتل ، ونجا من نجا إلى بانياس (٢) ، وجمعوا جمعاً كثيراً من أهل البقاع ، وحفظوا القلعة ، فنار لها (٣) معين الدين — ومعه الفرنج — فتسلمها وسلمها للفرنج ، ولما سمع عماد الدين حصر بانياس عاد إلى بعلبك ليدفع عن بانياس من يحصرها ، فأقام فيها .

فلما عاد عسكر دمشق — بعد ملك بانياس وتسليمها للفرنج — فرّق عماد الدين عسكره في الإغارة على حوران وأعمال دمشق ، وسار جريدة ، فنزل على دمشق سحراً (٤) ، ولم يعلم به أحد ، فلما أصبح الناس ورأوا عسكره ، خافوا وارتج البلد ، واجتمع العسكر والعامّة على السور ، وفتحت الأبواب ، وخرج أهل البلد إليه ، وقاتلوه ، فلم يكن الأمير عماد الدين عسكره من الإقدام عليهم ، لغيبة أكثر عسكره في الإغارة وتفرقهم .

ثم توجه عماد الدين إلى مرج راهط ، وقد أقام ينتظر عود عسكره ، فعادوا إليه وقد ملؤوا أيديهم من الغنائم ، فلما اجتمعوا عنده رحل عائداً إلى بلاده (٥) .
وفي سنة خمس (٦) وثلاثين وخمسة جرت وقعة بين عماد الدين والأمير ركن الدين داوود بن سقمان بن أرتق — صاحب حصن كيفا — فانهزم ركن الدين ، وملك عماد الدين بهمد (٧) ، وأدركه الشتاء فعاد إلى الموصل .

(١) كان صاحب بانياس هو (إبراهيم بن طرغت) ، انظر : (ابن القلانسي ، ص ٢٧٢) .

(٢) في س (١٨) : « فقتل جميع من نجا إلى بانياس » .

(٣) في س (١٨) : « فنادى معين الدين » .

(٤) في الأصل : « سجر » ، وفي س (١٨) : « سجر » ، والتصحيح عن : (ابن الأثير

ج ١١ ، ص ٢٩) .

(٥) المعنى متفق في الفصول السابقة بين النص هنا وبين الأثير ، واسكن المؤرخين — كما سبق

أن ذكرنا — بمختلفان إيجازاً وإطناباً ، تقديم الحوادث وتأخيرها .

(٦) في الأصل ، وفي س (٨ ب) : « خمسة » والتصحيح ما أثبتناه .

(٧) كذا في الأصل ، وهي في س (٨ ب) : « بهرد » وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ،

ص ٣٠) : « بهود » .

وفي سنة ست وثلاثين وخمسة مائة ملك عماد الدين الحديثه ، ونقل من كان بها [من آل مهراش] (١) إلى الموصل ، ورتب أصحابه بها .

وفي هذه السنة خطب لعماد الدين بآمد ، وصار صاحبها في طاعته ، وكان قبل ذلك موافقا لركن الدين داوود — صاحب الحصن — على عماد الدين ، فلما رأى قوة عماد الدين صار معه .

وفيها أغار عسكر عماد الدين — المقيمون بحلب — على بلد الفرنج [٥٣] فتهبوا وظفروا بسرية للفرنج ، فقتلوا منهم نحو سبعمائة رجل (٢) .

وفي سنة سبع وثلاثين وخمسة مائة ملك عماد الدين قلاع الهكارية ، وقد ذكرناه لتعلقه بما كان قبله .

ذكر الاتفاق بين السلطان مسعود بن محمد

وبين عماد الدين زنكي

كان السلطان مسعود قد حقد على عماد الدين حقا شديداً ، وكان (٤) ينسب خروج أصحاب الأطراف عليه إلى ذلك بمواطاة من عماد الدين ، وأنهم إنما يصدرون عن رأيه ، وكان عماد الدين يفعل ذلك لئلا يخلو السلطان مسعود فيتفرغ لقصد (٥) .

(١) ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٤) .

(٢) في س : « فارس » .

(٣) في الأصل : « مسعود وبين محمد » .

(٤) كذا في الأصل . وفي س (٨ ب) : « لأنه كان ينسب خروج أصحاب الأطراف عليه بمواطاة من عماد الدين ، بينهم إنما يريدون عن رأيه » .

(٥) في الأصل ، وفي س (٨ ب) : « لئلا يزال السلطان مسعود مشغولا عنه فلا يتفرغ

لقصد » وهو نص مضطرب المعنى ، وقد صحح بمد مراجعة : (ابن الأثير ، ج ١١

ص ٣١) .

ففي سنة ثمان وثلاثين وخمسة مائة رحل السلطان إلى بغداد ، وجمع المناكر ،
ونجهز لقصد عماد الدين زنكي ، فأرسل إليه عماد الدين يستعطفه ويستميله ، فأرسل
إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنباري في تقرير القواعد ، فاستقرت القاعدة على
مائة ألف دينار يحملها عماد الدين ، فحمل إليه عشرين ألف دينار ، أكثرها
عروض ، وتنقلت الأحوال بالسلطان إلى أن احتاج إلى مداراة عماد الدين ،
فأطلق له الباقي مداراة واستمالة له ، وحفظا لقلبه .

وكان عماد الدين عنده من الدهاء والمكر شيء كثير ، فمن جملة ما فعله :
أنه كان ولده الأكبر سيف الدين غازي لا يزال في خدمة السلطان مسعود — سفيراً
وحضراً — نائباً عن أبيه في الخدمة ، فأرسل إليه يأمره بالهرب (١) من السلطان
[مسعود] إلى الموصل ، وأرسل إلى نائبه نصير الدين جعفر بالموصل يأمره بمنع
سيف الدين من الدخول إلى الموصل والوصول إليه ، فهرب سيف الدين غازي
ووصل إلى الموصل ، فمنعه نصير الدين من الدخول إلى الموصل (٢) ، ولما بلغ الخبر
إلى والده أرسل إليه يأمره بالعود إلى السلطان ، ولم يجتمع به ، وأرسل معه رسولاً
إلى السلطان يقول له : « إن ولدي هرب [خوفاً] (٣) لما رأى تغير السلطان عليّ ،
وقد أعدته إلى الخدمة ، ولم أجمع به ، فإنه مملوكك ، والبلاد لك » . فحل هذا
عند السلطان محلاً عظيماً .

(١) في س (١٩) : « بالقرب » ، وما هنا هو الصحيح .

(٢) في الأصل بعمد لفظ « الموصل » : « إلى والده » وما لفظان زائدان لا يستقيم بهما
المعنى ، لحدقتهما ، ولا وجود لهما في س ؛ وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٦) : « الدخول
إلى الموصل الوصول إليه » .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن : س (ص ١٩) ، وابن الأثير .

وفي هذه السنة سار عماد الدين إلى ديار بكر ، ففتح طَنْزَةَ (١) ، وأُسَيْرِد (٢) ،
والمعدن (٣) ، وحيزان (٤) ، وحصن [٥٤] الروق (٥) ، وفطليس (٦) ، وباناسا (٧)
و حصن ذى القرنين (٨) ، وغير ذلك ؛ وملك من [بلد ماردين مما هو بيد] (٩) الفرنج
يومئذ جلين ، والمؤوز (١٠) ، وتل موزن ، وغيرها من حصون شَبَخْتان (١١) ،
وقصد مدينة آمد ، وحاني (١٢) ، وحصرهما ، فلم ينل غرضاً فرحل عنهما .

وفيها سبّر عماد الدين عسكرياً إلى عانة ففتحوها .

-
- (١) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر ، وهي عند (الفارقي ، هامش ص ١٣٧ من ابن القلانسي) : « طنزي » .
- (٢) كذا في الأصل وفي ابن القلانسي وابن الأثير ، وقد رسمها ياقوت : « إسمرت »
و « سمرت » وقال إنها مدينة بديار بكر قرب أرزن الروم وحيزان .
- (٣) لم يذكرها ياقوت ، وإنما أشار (الفارقي ، هامش ص ٢٧٤ من ابن القلانسي)
إلى أنها إحدى مدن ديار بكر .
- (٤) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها بلد قرب إسمرت من ديار بكر .
- (٥) كذا في الأصل ، وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٦) : « حصن الروق » .
- (٦) كذا في الأصل وعند الفارقي (هامش ص ٢٧٤ من ابن القلانسي) ، وهي في (ابن
الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٦) : « مطليس » ؛ ولم يستطع الناشر تحقيق اللفظ أو التعريف به .
- (٧) كذا في الأصل ، وفي (ابن الأثير) : « حصن بانسية » .
- (٨) في الأصل : « ذى القرنين » ، وقد صححت بعد مراجعة (ياقوت) و (ابن الأثير)
و (الفارقي) ، وقد ذكر ياقوت أنه حصن بقرب آمد .
- (٩) في الأصل : « وملك من بلاد الفرنج » ، وما هنا صيغة ابن الأثير وهي أوضح .
- (١٠) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها كورة بالجزيرة منها نصيبين الروم .
- (١١) ضبطت بعد مراجعة ياقوت ، فقد قال عند تعريف « تل بسمة » إنه بلد له ذكر
من نواحي ديار ريعة ثم ناحية شبختان .
- (١٢) ذكر ياقوت أنها مدينة معروفة بديار بكر فيها معدن الحديد .

ذكر فتح الرها

كان الفرنج - لعنهم الله - قد عظم (١) شرمه بالبلاد الجزرية ، وامتدت غاراتهم إلى أقاصيها وأدانيها ، وبلغت إلى آمد ورأس عين ونصيبين والروقة ، وكانت لهم الرها وسروج والبيرة وغير ذلك ، وكانت جميع هذه الأعمال لجوسلين ، وكان صاحب رأى الفرنج والمقدم على عساكرهم ، وكان عماد الدين يعلم أنه متى قصد حصن الرها اجتمع بها من الفرنج من يمنعها ، فيتعذر فتحها لما هي عليه من الحصانة ، فاشتغل بقصد ديار بكر ليوم الفرنج أنه غير متفرغ لقصدهم ، فاطمأنوا لذلك ، وفارق جوسلين (٢) الرها ، وعبر الفرات إلى بلاده الغربية - وكانت له تل باشرو وغيرها - وجاءت عيون (٣) الأمير عماد الدين إليه بذلك ، فنادى في العسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه ، وجمع الأمراء عنده ، ومدّ السباط ، وقال : « لا يأكل معي على مائدتي هذه إلا من يطعن معي غداً باب الرها » ، فلم يتقدم إليه غير أمير واحد وصبي لا يُعرف ، لما يعلمون من إقدامه وشجاعته ، وأن أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب . فقال الأمير لذلك الصبي : « ما أنت وهذا المقام ؟ » فقال [عماد الدين] : « دعه ، فإنى أرى والله وجهها لا يتخلف عنى (٤) » .

(١) كذا في الأصل . وفي س (ص ١٩) : « عبر » ، وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٧) : « هم » .

(٢) هو جوسلين الثاني صاحب الرها في ذلك الحين ، وكان على جانب كبير من الرعونة منكبا على ملذاته الخاصة ، مما دفعه إلى إيثار الإقامة في تل باشرو وترك الرها في حياية جماعة من الأرمن والسوريان غير القادرين على حمايتها .

(٣) كان على رأس هؤلاء العيون فضل الله بن جعفر نائب عماد الدين على حران ، أنظر (حبشي : نور الدين والصليبيون ، ص ٣٥) .

(٤) النص هنا وفيما يلي من حوادث استعادة الرها يتفق مع نص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٧ وما بعدها) اتفاقا يكاد يكون تاما .

وسار عماد الدين في العساكر — وذلك في جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وخمسة — فكان عماد الدين أول من حمل على الفرنج — ومعه ذلك الصبي — ، وحمل فارس من خيالة الفرنج على عماد الدين عرضاً ، فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله ، وسلم عماد الدين ، ونازل البلد محاصراً له ثمانية وعشرين يوماً ، وزحف إليه عدة دفعات ، ونقب النقبابون سور البلد فسقطت البدنة ، وملك البلد عنوة وقهراً ، وحصر القلعة فملكها وذلك لأربع عشرة بقية (١) من جمادى الآخرة من هذه [٥٥] السنة ، ونهب الناس الأموال ، وسبوا الذرية ، وقتلوا الرجال .

ورأى الأمير عماد الدين البلد فأعجبه ، ورأى أنه لا يجوز في السياسة (٢) تخريب مثله ، فنودي في العسكر برد ما أخذ من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم وإعادة ما اغتتموا من أثاثهم وأمتعتهم ، فردوا الجميع عن آخره ، ولم يُفقد إلا النادر ، وعاد البلد إلى حاله ، ثم تسلم سروج (٣) وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات ما عدا البيرة ، ثم سار إلى البيرة (٤) فحصرها ، وكان الفرنج قد أكثروا ميرتها ورجالها .

(١) في س (١٩) : « خلت » ، وعن تحقيق التاريخ انظر : (ابن القلانسي : القيل ، ص ٢٧٩)

حيث يذكر أن المدينة سقطت في السادس والعشرين من جمادى الآخرة .

(٢) في س (١٩) : « ورأى الناس يدرو في السياسة . . إلخ » .

(٣) هكذا ضبطها (ياقوت : معجم البلدان) وقال إنها بلدة قريبة من حرّان من ديار مضر .

أنظر أيضاً : (R. Dussaud, Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale.. Paris, 1927. P.P. 241, 480, 519, 522).

(٤) إلى هنا تنتهي ص ٩ ب من نسخة س وبنهايتها ينتهي الاتفاق بين النسختين ، وبين

ص ٩ ب و ص ١٠ سقط يتضمن الحوادث التالية . والبيرة المشار إليها هنا بلد قرب ميساط بين حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة . أنظر : (ياقوت : معجم البلدان) و (ابن الشحنة :

الدر المنتخب ، ص ١٥٧ ، ٢١٧) .

(١) ذكر مقتل نصير الدين جَقَر النَّائِبِ بِالْمَوْصِلِ

كان الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه عند عماد الدين بالموصل وهو (٢) أتابكه ، وقد تقدم ذكر ذلك ، وكان عماد الدين يظهر للخائفاء والباطنين وأصحاب الأَطراف أن البلاد للملك ألب أرسلان ، وهو نائبه بها ، والخطبة له في جميع بلاده ، وكان ينتظر وفاة الملك مسعود ليخطب له (٣) بالسلطنة ، ويملك بغداد وسائر الممالك باسمه ، وكان نصير الدين النائب كل يوم يقصده ليقوم بخدمة إن عرضت له ، فحسّن بعض المفسدين الملك ألب أرسلان قتل نصير الدين ، وقال : « إن قتلتَه ملكت الموصل وغيرها ، ولا يبقى مع أتابك زكي فارس واحد . » فصَدَّقَ هذا القول ووقع في نفسه ، وواطأ على ذلك جماعة من الأجناد ، فلما دخل نصير الدين عليه للعادة وثبوا عليه فقتلوه ، وألقوا رأسه إلى أصحابه ، ظناً منهم أن أصحابه إذا رأوا ذلك يتفرقون ، ويخرج الملك ألب أرسلان ويملك البلاد .

فلما رأى أصحاب نصير الدين الرأس قاتلوا من بالدار ، واجتمع عليهم خلق كثير من أصحاب عماد الدين وأكابر دولته ، ثم دخل القاضي تاج الدين بجي ابن الشهرزوري إلى الملك وخذعه ، وقال له : « يامولانا ، لم تحرد من هذا الكلب ؟ هو وأستاذه مماليكك ، والحمد لله الذي أراحنا منه ومن صاحبه على يدك ، وما الذي يقعدك في هذه الدار ؟ قم لتصعد إلى القاعة وتأخذ الأموال والسلاح ، وتملك البلد ، وتجمع لك الجند ، وليس دون البلاد بعد الموصل مانع . » فقام معه وركب ، وصعد

(١) ما يقابل هذه الصفحة وما يابها مفقود في س ، ولتصحح النص سنقارن بينه وبين ماورد في ابن الأثير .

(٢) الضمير هنا يعود على عماد الدين أي أن عماد الدين كان أتابكا للملك ألب أرسلان واسكن السلطنة الحقيقية كلها كانت بيد عماد الدين .

(٣) الضمير هنا يعود على الملك ألب أرسلان .

إلى القلعة ، وتقدم تاج الدين إلى النقيب بها والأجناد أن يفتحوا الباب ويتسلموه ،
[٥٦] ويعتقلوه ، ففتحوا الباب ، ودخل الملك والقاضي إليهم ، ومعهما من أعان
على قتل نصير الدين ، فسُجنوا ، واعتقل الملك ألب أرسلان بالقلعة .

ذكر رحيل عماد الدين عن البيرة

وتملك المسلمين لها

ولما بلغت الأخبار إلى عماد الدين زكى بقتل نائبه نصير الدين وهو يحاصر
قلعة البيرة وقد أشرف على أخذها ، خاف أن تختلف عليه البلاد الشرقية بعد قتل
نصير الدين ، فرحل عن البيرة ، وأرسل الأمير زين الدين على كوجك (١) بن
بكتكين (٢) إلى قلعة الموصل نائباً عنه بها موضع نصير الدين ، وأقام عماد الدين
ينتظر الخبر ، فخاف من البيرة من الفرنج أن يعود (٣) إليهم ، وكانوا يخافونه خوفاً
شديداً ، فكاتبوا صاحب ماردين ، وسلموها إليه ، فملكها المسلمون ، ولم يبق شيء
مما هو شرقي الفرات بيد الفرنج ، ولما تولى زين الدين على كوجك الموصل عدل
في الناس وأحسن السيرة ، وسلك غير طريقة نصير الدين ، فطمأن الناس ، وأمنوا ،
وزدادت البلاد عمارة ، وكانت بيده مدينة إربل ، فلندكر صبرورتها إليه .

(١) في الأصل هنا وفيما يلي : « على كوجل بن بكتكين » ، وقد صحح الاسم بعد مراجعة
(ابن القلانسي : الدبل ، ص ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٧ ، ٣٣٧ ، ٣٥٨) و (أبو شامة : الروضتين ،
ج ١ ، ص ٤١) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٩) . وسيدأب الناشر على تصحيح
الاسم فيما يلي دون الإشارة إلى ذلك . وقد ذكر (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٢٧٠)
أن زين الدين كان قصيراً ، ولهذا قيل له « كجك » وهو لفظ عجمي معناه بالمعنى صغير ،
أي صغير القدر .

(٢) ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة (ابن خلكان : الوفيات ، طبعة محي الدين عبد الحميد ،
ج ٣ ، ص ٢٧٧) .

(٣) في الأصل : « أن يعودوا إليهم وكانوا يخافون خوفاً شديداً » ولا يستقيم المعنى
بهذا النص وقد صحح بعد مراجعة (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٩) .

ذكر استيلاء زين الدين على كوجك على إربل

كانت إربل وأعمالها لأبي الهيجا الكردي المذباني ولورثته من بعده ،
ثم تغلبت دولة الأتراك السلجوقية عليها وعلى غيرها من البلاد ، وتنقلت إلى أن
صارت للسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه ، وهو يومئذ صاحب مراغة ، قبل أن
تصير السلطنة إليه ، وله فيها نائب من قبله ، فسار إليها الأمير عماد الدين زنكي
ونازلها في سنة ست وعشرين وخمسة ، وهجم البلد وامتنعت عليه القلعة ، فأقام
بمحاصرها ، فسار إليه السلطان مسعود من مراغة ، فرحل عنها عماد الدين ونزل الزاب ،
واندفعت الأتقال إلى الموصل ، وأقام غربي الفرات ، وتوابه يحفظون الخايض ،
فترددت الرسل بينهم إلى أن استقر أن يسير عماد الدين في خدمة السلطان ليجلسه
في السلطنة ، ويكلف الإمام المسترشد بالله أن ينخطب له في بغداد ، وفي البلاد ،
ويسلم إليه إربل ، فلما تقررت القاعدة ، وجرت بينهما الأيمان سلم إليه إربل ،
فقدسها الأمير عماد الدين ، وسلمها إلى الأمير زين الدين على كوجك ، [٥٧] ثم سار
عماد الدين إلى بغداد غربي الماء ، وسار السلطان مسعود شرقي الماء ، وتواعدا
أن يلتقيا ببغداد ، فوصل من بغداد قراجا الساقى وكبس عماد الدين ، فكسر
العسكر وأسر كل من فيه ، ولم ينج سوى عماد الدين ، قطع الشط في زورق وهو
مجروح ، ووصل إلى الموصل ، ولم تنزل إربل في يد زين الدين على وولده بعده إلى آخر
أيام الملك المعظم مظفر الدين كوكبوري (١) بن زين الدين .

(١) ضبط الاسم بعد مراجعة (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٢٧٧) وهو لفظ
ركي معناه الذئب الأزرق . انظر ترجمته في نفس المرجع ، وللإستزادة من أخبار الدويلة التي
أنشأها زين الدين على كوجك في إربل وما حولها والتي حكمها أولاده من بعده انظر : (دائرة
المعارف الاسلامية ، مادة « إربل ») .

ذكر منازة عماد الدين قلعة جعبر

قد ذكرنا أن السلطان جلال الدولة ملكشاه لما تسلّم حلب عوّض صاحبها عنها — سالم بن مالك بن بدران العقيلي ابن عم شرف الدولة مسلم بن قريش — قلعة جعبر ، وكان قد ملك قلعة جعبر — كما تقدم ذكره — ، فتسلم سالم بن مالك قلعة جعبر ، وبقيت في يده ويد ولده .

فلما كانت سنة إحدى وأربعين وخمسة مائة قصد عماد الدين قلعة جعبر — وصاحبها يومئذ مالك بن سالم بن مالك بن بدر العقيلي — وحاصرها ، وسبّر جيشا إلى قلعة فنك (١) فحصرها — وصاحبها يومئذ الأمير حسام الدين الكردي البشنوي ، وكانت بيد البشنوية من مدة تزيد على ثلثمائة سنة — وكان قصد عماد الدين بأن لا يترك قلعة في أعماله متوسطة في بلاده إلا ويستولى عليها مبالغة في الحزم والاحتياط ، وطالت مدة حصره لقلعة جعبر ولم يتيسر له فتحها ، فبّر إلى صاحبها رسولا الأمير حسّان صاحب منبج لمودة كانت بينهما في معنى تسليمها ، وقال : « تضمن له الإقطاع الكبير والمال الجليل الجزيل فإن أجاب إلى التسليم ، وإلا قل له : والله لأقيم عليها إلى أن أملكها عنوة ، ثم لا أبقى عليك ، ومن الذي يمنعك مني » . فصعد حسّان إلى القلعة ، وأدى رسالة عماد الدين إليه ، ووعده التعويض عنها وأرغبه ، فامتنع من التسليم ، فقال له حسّان إلى قوله : « وهو يقول لك من يمنعك مني ؟ » ، فقال : « يمنعني منه الذي يمنعك من الأمير بلك (٢) » . ويشير إلى منازة بلك

(١) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها قلعة حصينة منيعة للأكراد البشنوية قرب جزيرة ابن عمر بينهما نحو من فرسخين .

(٢) هو نور الدولة بلك بن بهرام بن أرتق ، وقد ضبط هكذا « Balyg » في : (Zambaur, p. Cit. Op. 230) ، ولكنه عند (Amedroz) في (مقدمة ابن القلانسي) . « Bulak » .

ابن بهرام بن أرثق منبج بعد أن أسرَ حسانَ صاحبها ولم يبق إلا أخذها ، فجاء سهمُ غَرَبٍ (١) فوقع في نحرِ بَيْك فأهلكه ، وخلص حسانَ منه ، وكانت واقعة عماد الدين شبيهة بواقعة بَيْك [٥٨] ومن تعالى (٢) على الله تعالى أكذبه ، وقد ورد حكاية عن الله تعالى : « أنا الله ربُّ مكة لا أئمت لمقتدرِ أمراً » .

فعاد حسانُ إلى عماد الدين وأخبره بامتناعه ، ولم يذكر له حديث بَيْك .

ذكر مقتل الشهيد عماد الدين أتاك زنكى

ابن آق سنقر — رحمه الله —

ولما كانت ليلة الأحد لست مضين من ربيع الآخر من هذه السنة — أعنى سنة إحدى وأربعين وخمسة — دخل على أتاك عماد الدين صبي من غلمانه أفرنجي — اسمه برنقش (٣) — وجماعة من المماليك ، فقتلوه على فراشه ، وهربوا إلى قلعة جعبر ، وأخبروا أهلها بقتله ، ففرحوا بذلك ، وصاحوا على شرافات القلعة ، وأخبروا بقتله العسكر ، فدخل أصحابه إليه وبه رمق ، فحكى ابن الأثير — رحمه الله (٢) — عن أبيه ، عن بعض خواص عماد الدين ، قال : « دخلت إليه في الحال وهو حي ،

(١) جاء في اللسان : « أصابه سهم غَرَبٍ و غَرَبٍ إذا كان لا يدري من رماه ، وقيل إذا أتاه من حيث لا يدري ، وقيل إذا تمعد به غيره فأصابه » .

(٢) في الأصل : « تالي » وما هنا قراءة ترجيحية .

(٣) كذا في الأصل ، وهو في (ابن القلانسي ، ص ٢٨٤ و ٢٨٨) : « برنقش » ؛

وفي (أبو شامة : الروضتين ، ص ٤٦ و ٤٢) : « برنقش » ؛ أما ابن الأثير وسبط ابن الجوزي فلم ينصا على اسمه . أنظر أيضاً : (حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ، ص ٤٠) . ويبدو

أن صاحب جعبر هو الذي حرض على قتله بدليل أن قتله فروا إلى قلعة جعبر بعيد قتله مباشرة .

(٤) لهذا الدطاء أهمية خاصة ، فهو يحدد تاريخ البدء في تأليف هذا الكتاب ويجمله بعد سنة ٦٣٠ هـ وهي السنة التي توفي فيها ابن الأثير المؤرخ .

خين رأني ظن أنني أريد قتله ، فأشار إليّ بأصبعه السبابة يستعظمني ، فوقفت (١) من هيئته ، وقلت يا مولانا : من فعل بك هذا ؟ فلم يقدر على الكلام ، وفاضت نفسه لوقته .

قال الأمير مؤيد الرواس بن منقر : « فكأن الشاعر — وهو المتنبى —
عنا بقوله :

وقد قابل الأقران حتى قتلته
بأضعف قرن في أذل مكان

ذكر (٢) سيرته وصفته — رحمه الله —

كان حسن الصورة ، أسمر اللون ، حسن العينين ، قد وخطه الشيب ، وكان عمره قد زاد على ستين سنة ، وكان صارما حازما شجاعا شهما مقداما ، عظيم الهمة أبي النفس ، قد خافه الملوك ، وارتاع لذكوره أصحاب الأطراف ، وكان الخليفة والسلطان يجاور بلادها بلاده ، وكان يجاوره ابن سكران صاحب خلاط ، وداود ابن سكران صاحب حصن كيفا ، وصاحب آمد ، وصاحب ماردين ، والفرنج ، وصاحب دمشق ، وقد أحاطت هذه الممالك بمملكته من سائر جهاتها ، ومع هذا مرة يقصد هذا ، ومرة يأخذ من هذا ، ومرة يصانع هذا إلى أن ملك من كل من (٣) يليه طرفا ، وكان الكل يتقونه ويدارونه ، ويخافون منه ، وكان شديد الهيبة على رعيته وعساكره ، عظيم الهيبة في صدورهم حسن السياسة ، لا يقدر القوى على ظم

(١) نص (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢) وهو الذي ينقل عنه هنا : « فوقفت » وهي أكثر اتساقا مع المعنى .

(٢) هنا يلتقي النص مرة أخرى مع نسخة س ، وإنما في ص (١٩٠٨) من تلك النسخة .

(٣) في الأصل : « في كل من يليه » ولا يستقيم بها المعنى ، والتصحيح عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢) .

الضعيف ، وكانت البلاد [٥٩] خراباً قبل أن يملكها فعمها العدل (١) ، وعمرت لما ملكها ، وقد ذكر أنه كان عنده في مبدأ أمره ظلم ، فسمع ليلة وهو نازل بجماة شخصاً يغنى على شط العاصي :

« اعدلوا ما دام أمركم نافذا في النفع والضرر

واحفظوا أيام دولتكم إنكم منها على خطر »

فبكي وتبدلت نيته في الظلم ، وأخذ نفسه من حينئذ بالعدل .

ومما يحكى عنه : أنه دخل مرة الجزيرة في الشتاء ، ومعه أمير من أكبر أمرائه

يقال له عز الدين الديبسي (٢) ، كان من جملة إقطاعه مدينة دقوقة (٣) ، فنزل

في دار إنسان يهودي من أهل الجزيرة ، فاستغاث [اليهودي] إلى عماد الدين ،

وأنهى حاله إليه ، فنظر إلى الديبسي ، فتأخر ودخل البلد وأخرج برّكه (٤) وخيامه ،

قال الحاكي لهذه الحكاية « فلقد رأيت غلماناً ينصبون خيامه في الوحل ، وقد جعلوا

على الأرض تبناً يقيهم (٥) الطين ، وخرج قزلها . »

وكان [عماد الدين] ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ، ويقول : « مهما كانت

البلاد لنا فأى حاجة لكم إلى الأملاك ؟ فإن الإقطاعات تغنى عنها ، وإن خرجت

البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب منها ، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السطان

ظلموا الرعية ، وتمدوا عليهم ، وغصبوهم أملاكهم . »

(١) في س (ص ١٠٨) : « فلما ملكها عمها بالمدن ، وعمرت لنا ملكها » .

(٢) في الأصل : « الديبسي » ، وهي كذلك في س (١٠٨) وإنما بدون نقط ، وقد

ضبط الاسم بعد مراجعة مصدر هذه القصة وهو (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٤٢) .

(٣) هكذا ضبطها ياقوت ، ويقال لها أيضاً « دقوقاه » ، وهي مدينة بين إربل وبنداد .

(٤) البرك الناع الخاص من ثياب وقاش . انظر : (Dozy : Supp Dict. Arab)

(٥) في الأصل : « يقيها » والتصحيح عن ابن الأثير .

وكان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم ، وكان له في دركاه (١) السلطان من يطالعه ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد ، وكان يفرم على ذلك الأموال الجميلة ، وكان يصل (٢) إليه كل يوم من عيونه عدة قاصدين ، وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير ، وكان يقول : « إذا لم يُعرف الصغير لم يمنع صار كبيراً » ، وكان لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير إذنه ، وإذا استأذنه رسول في العبور في بلاده أذن له ، وأرسل إليه من يسيره ، ولا يتركة مجتمع بأحد [٦٠] من الرعية ولا غيرهم : فكان الرسول يدخل بلاد ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئاً البتة .

وكان يعتمد أصحابه ويمتحنهم ، فلم يوما خشكنا نيكه (٣) إلى طشت دار (٤) له ، وقال : « إحفظ هذه » . فبقي نحو سنة لا تفارقه الخشكنا نيكه خوفاً أن يطلبها منه ، فلما كان بعد ذلك ، قال له : « أين الخشكنا نيكه ؟ » فأخرجها من مندبل وقدمها

(١) دركاه - والجمع دركاوت - من أصل فارسي « دركاه » وقد عرفها (Dozy : Supp. Dict. Arab) بأنها : الساحة أمام قصر السلطان أو الدهليز أو الرواق أو المدخل (Coar devant un palais, vestibule, portique, porte, etc).

(٢) في س (١٠٨ ب) : « وكان ينهى إليه » .

(٣) خشكنا نيك أو خشكنا نيك من أصل فارسي ، نوع من الأطعمة عرفه (Dozy : Supp. Dict. Arab) بأنه نوع من الفطير المصنوع من الزبد والسكر والجوز أو الفستق ، ويكون على هيئة الهلال . أنظر أيضاً : (الجواليقي : العرب ، ص ١٣٤) و (الجاحظ : البغلاء ، طبعة الدكتور طه الهاجري ، ص ١١٠ و ٣٣٣) .

(٤) الطشت لفظ طامي ، وصوابه الطشت ، وهو مغرب عن اللفظ الفارسي « تست » والطشت دار أحد الغلمان العرفين على الطشت خاناه ، وهي كما عرف (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٠ - ١١) « بيت الطشت ، سميت بذلك لأن فيها يكون الطشت الذي تفعل فيه الأيدي ، والطشت الذي يفعل فيه القماش السلطاني . . وفيه ما يلبسه السلطان من السكوتة والأقبية وسائر الثياب ، والسيف والخف والرموزة . . الخ » أنظر أيضاً : (نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٤٦٩) و (محيط المحيط) .

بين يديه ، فاستحسن ذلك منه ، وقال : « مثلك ينبغي أن يكون مستحفظاً بحصن » ،
وأمر له بدزدارية قلعة كَوَاشِي (١) ، فبقي فيها إلى أن قتل عماد الدين .

وكان لا يمكن أحداً (٢) من خدمه من مفارقة بلاده ويقول : « إن البلاد كـبـسـتـان
عليه سياج ، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول ، فإذا خرج منها من يدل
على عورتها ويُطعم العدو فيها زالت الهيبة ، وتطرت (٣) الخصوم إليها » .

ومن جميل سيرته أنه أسكن الأمير بهاء الدين ياروق التركماني وأصحابه (٤)
بولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الفرنج ، وملكهم ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج ،
فكانوا يراوون الفرنج القتال ويفادونهم ، وسدوا ذلك الثغر (٥) ، ولم يزالوا على ذلك
إلى سنة ست مائة .

وكانت تضرب بشجاعته الأمثال ، ومما يحكى عنه : أنه حضر مع الأمير مودود
صاحب الموصل — قبل أن يملك — حصار طبرية وهي للفرنج ، ووصلت طعنته
إلى باب البلد وأثرت فيه ، وحمل أيضاً على قلعة عقر الحميدية (٦) ،
وهي على جبل عال ، فوصلت طعنته إلى سورها .

(١) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها قلعة حصينة في الجبال التي في شرق الموصل ليس إليها
طريق إلا لرجال واحد ، وكانت قديماً تسمى « أردمشت » وكوآشي اسم لها محدث .
(٢) في الأصل ، وفي س (١٠٨ ب) : « أحد » ، والتصحيح عن : (الروضتين ،
ج ١ ، ص ٤٣) .

(٣) في س : « تفرقت » ، وما هنا أصح ، وهو متفق مع مافي الروضتين .
(٤) كذا في الأصل ، وفي س ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٣) جملة توضح من هؤلاء
الأصحاب وهي : « ومن صائب رأيه وجيده أن سير طائفة من التركمان الايوانية مع الأمير
البارق (؟) إلى الشام ، وأسكنهم بولاية حلب . . إلخ » .

(٥) في الأصل : « وشدوا ذلك » وقد صحح بعد مراجعة س (١٠٩ ا) و (الروضتين ،
ج ١ ، ص ٤٤) .

(٦) ذكر ياقوت أنها قلعة حصينة في جبال الموصل أهلها أكراد وهي شرق الموصل .

وكان شديد الغيرة، لا سيما على نساء الأجناد، وكان التعرض إليهن من الذنوب التي لا تُغتفر، وكان يقول: « إن جندي لا يفارقوني في أسفاري، وقل ما يقيمون عند أهلهم، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن»، وكان قد ولى قلعة الجزيرة دزدارا يقال له نور الدين حسن البربطي^(١)، وكان من خواصه، وكان غير مرضى السيرة، فبلغه أنه يتعرض للحرم، فأمر حاجبه صلاح الدين محمد ابن أيوب الباغيساني^(٢) - صاحب حماة - أن يسير مجداً، ويدخل الجزيرة بغتة، فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع ذكوره [٦١] وقلع عينيه، عقوبة له لنظره بهما إلى الحرم، ثم يصلبه؛ فسار صلاح الدين مجداً، فلم يشعر البربطي^(١) به، إلا وهو على باب البلد، فخرج إلى لقائه، فأكرمه صلاح الدين ودخل معه البلد، وقال له: «المولى أتاك يسلم عليك، ويريد أن يُملى قدرك ويرفع منزلتك، ويسلم إليك قلعة حلب، ويوليك جميع البلاد الشامية، لتكون هناك مثل نصير الدين، فتجهز^(٣) وتحدُرُ مالك في الماء إلى الموصل، وتسير إلى خدمته، ففرح بذلك، ولم يترك له من أمواله شيئاً إلا نقله إلى السفن ليحدرها إلى الموصل في دجلة، فحين فرغ من جميع ذلك أخذ صلاح الدين وأمضى فيه ما أمر به، وأخذ جميع ماله، ولم يجسر أحد بعده على أفعاله القبيحة.

(١) كذا في الأصل وفي (الروضتين، ج ١، ص ٤٤) وهو في س (١١٠٩):

«البوطي».

(٢) في الأصل: «الباغيساني»، وفي س (١١٠٩): «الباغيشاني»، وفي (الروضتين، ج ١، ص ٤٤): «الباغيسالي»، وما هنا عن: (ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١٧)، وهو في ذيل تلك الصفحة نقلاً عن (الفارقي): «اليفصيانى». أنظر أيضاً: *Ibn Al-Qalanisi ; Traduction Francaise par : Roger Le Tourneau. PP. 20.*

23, 35, 41, 129، انظر أيضاً ما فات هنا ص ١٩، هامش ٢

(٣) في س، وفي الروضتين: «فتجهز». وحدر السفينة بحدرها أرسلها إلى أسفل

(السان).

وكان - رحمه الله - كثير الصدقات ، وكان يتصدق في كل جمعة بمائة دينار أميري [ظاهراً^(١)] ويتصدق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به ، وركب يوماً فعثرت به دابته ، فكاد يسقط عنها ، فاستدعى أميراً كان معه ، وقال له كلاماً لم يفهمه ، ولم يجسر أن يستفهمه عنه ، فعاد إلى بيته ، وودّع أهله عازماً على الهرب ، فقالت زوجته : « ما ذنبك وما حملك على الهرب ؟ » فذكر لها الحال ، فقالت له : « إن نصير الدين له بك عناية ، فاذكر له قصتك ، وافعل ما يأمرك به » . فقال : « أخاف أن يمنني من الهرب وأهلك » . فلم تزل به زوجته تراجمه ، وتقوى عزمه إلى أن عرف نصير الدين حاله ، فضحك منه ، وقال له : « خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه ، فهي التي أراد » . فقال : « الله ، الله^(٢) في دمي ونفسي » . فقال : « لا بأس عليك ، فإنه ما أراد غير هذه الصرة » . فحملها إليه ، فحين رآه قال : « أمدك شيء » ؟ قال : « نعم » ، فأمره أن يتصدق [به] ، فلما فرغ من الصدقة ، قصد نصير الدين وشكره ، وقال : « من أين علمت أنه أراد الصرة ؟ » فقال : « إنه يتصدق بمثل هذا القدر كل يوم ، يرسل إلى يأخذه من الليل ، وفي يومنا هذا لم يأخذه ، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض ، فأرسلت إلى ، فعلمت أنه ذكر الصدقة » .

ولقد حكى من هيئته ما هو أشد من هذا : أنه خرج يوماً من قلعة الجزيرة [٦٢] من باب السر خلوةً وملاًحه نائم ، فأيقظه بعض الجاندارية ، وقال له : « إقعد » . فحين رأى عماد الدين سقط إلى الأرض ، فحركوه فوجدوه ميتاً .

(١) ما بين الحاصرتين إضافة عن الروضتين .

(٢) ذكر لفظ الجلالة في الأصل مرة واحدة ، ولكنه كرر في س (١٠٩ -) ، وفي

(الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٤) .

ومن جميل أوصافه وحسنها أنه كان بطيئ التلون بعيد التغير،^(١) لم يتغير على أحد من أصحابه منذ ملك إلى أن قُتل [إلا] بذنب عظيم يوجب التغير^(٢)، وأن الأمراء الذين كانوا معه أولاً [هم الذين]^(٣) بقوا معه إلى آخر وقت، إلا من اخترمه الموت منهم، ولهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له، وكان يخطب الرجال ذوى الهمم العالية، والآراء الصائبة، ويوسع عليهم في أرزاقهم، فيسهل عليهم فعل الجميل، فلهذا كان إذا قدم إنسانٌ عسكره لم يكن غريباً: إن كان جندياً اشتمل عليه الأجناد وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل^(٤) الديوان، وإن كان عالماً قصد القضاة والفقهاء من أصحابه فيؤانسونه^(٥) ويحسنون إليه.

ذكر ما كان من الملك ألب أرسلان الخفاجي^(٤)

ولد السلطان بعد قتل عماد الدين

قد تقدم ذكرنا أن الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي — الذى كان عماد الدين أتابكة — قتل نصير الدين فى الموصل، وطمع فى الاستيلاء على البلاد، وأن القاضى تاج الدين بن الشهرزورى خدعه حتى صعد

(١) ما بين الرقبن ساقط من س، وقد أضيف ما بين الحاصرتين ليستقيم به المعنى بعد مراجعته على: (الروضتين، ج ١، ص ٤٤).

(٢) فى س: «أصحاب».

(٣) فى الأصل: «فيؤانسونه»، وما هنا عن س (١١١٠) و (الروضتين،

ج ١، ص ٤٤).

(٤) يذكر صاحب الروضتين (ج ١، ص ٤١) تصحيحاً لهذا الاسم فيقول: «وتدوم (أى ابن الأثير) فى قوله: ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، فالخفاجي غير ألب أرسلان على ما ذكره العماد الكاتب فى كتاب السلجوقية، فانه قال: كان مع زنى ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، أحدهما يسمى ألب أرسلان وهو فى معقل من معاقل سنجار، والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالملك الخفاجي وهو بالموصل... إلخ».

إلى القلعة واعتقل بها ، فلما قُتل عماد الدين كان في صحبة الملك ألب أرسلان فركب واجتمعت العساكر عليه وخدموه ، فأرسل الوزير جمال الدين الأصفهاني إلى الأمير صلاح الدين الياغيساني^(١) يقول : « المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا — وكان بينهما مشاحنة — ونسلك طريقاً تبقى به البلاد والملك في أولاد صاحبنا ، فإن الملك ألب أرسلان قد طمع في البلاد ، واجتمعت عليه العساكر ، وإن لم تتلاف هذا الأمر في أوله ونتداركه في ابتدائه اتسع الخرق ، ولم يمكن رقعته »^(٢)

فأجابه صلاح الدين إلى ذلك ، وحلف كل واحد منهما لصاحبه ، فركب الوزير جمال الدين [٦٣] إلى الملك [ألب أرسلان]^(٣) ، وضمن له فتح البلاد ، وأطعمه فيها ومعه صلاح الدين ، وقال له : « إن [عماد الدين] أتاك كان نائباً عنك في البلاد ، وباسمك كنا نطعمه . فصدقهما ، وقربهما طمعا في أن يكونا عوننا له على تحصيل غرضه ، وأرسلنا إلى الأمير زين الدين علي كوجك بن بكتكين صاحب إربل — وهو النائب عن عماد الدين بالموصل — يعرفانه قتل الشهيد عماد الدين ، ويأمرانه أن يرسل إلى الأمير سيف الدين غازي بن زنكي وهو ولده الأكبر — وكان بشهرزور وهي إقطاعه من أبيه — ليحضر إلى الموصل ويملكها^(٤) ، ففعل زين الدين ذلك ، وأرسل إلى سيف الدين واستقدمه ، فقدم إلى الموصل وتسلمها^(٥) .

وكان نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي لما قُتل أبوه في العسكر^(٥) أخذ خاتمه من يده ، وسار إلى حلب فملكها ، واتفق صلاح الدين الياغيساني — صاحب حماة — والوزير جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني على حفظ دولة ولد عماد الدين ،

(١) في الأصل : « الياغيساني » ، أنظر ما فات ، س ١٠٤ ، هامش ٢

(٢) في س (١١١٠) : « رفوه » .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س (١١٠ ب) .

(٤) هذا اللفظ ساقط من س .

(٥) في س (١١٠ ب) : « العسكر » .

والمكر بالملك ألب أرسلان الساجوقى ، وحسنا له الاشتغال بالشرب والمغنيات ،
وقال جمال الدين للملك [ألب أرسلان^(١)] : « إن من رأى أن تسيراً الصلاح إلى مملوكك
نور الدين بحلب يدبر أمره » ، فأذن له [فسار^(١)] ، وبقى جمال الدين وحده مع الملك
فأخذه وقصد [به^(١)] الرقة ، واشتغل فيها بشرب الخمر والخلوة بالنساء والمغنيات ؛
وأراد أن يعطى الأمراء شيئاً فمنعه خوفاً أن تميل قلوبهم إليه ، وقال^(٢) : « لهم منك
الإقطاع الجزيل والنعم الوافرة » .

شرع جمال الدين يستميل العسكر^(٣) ويحلّفهم لسيف الدين غازى بن عماد الدين
واحداً بعد واحد ، وكل من حالف يأمره بالمسير إلى الموصل هارباً من الملك ،
وأقام الملك بالرقة عدة أيام ، ثم سار إلى ماكسين ، فتركه^(٤) بها عدة أيام مشتغلاً بلذاته
عن طلب الملك ، ثم سار به نحو سنجار ، ولما استقر قدم سيف الدين بالموصل قوى
جنان جمال الدين ، ووصل هو والملك ألب أرسلان إلى سنجار ، وأرسل إلى دزدارها
وقال له : [٦٤] « لا تسلم البلد ، ولا تمكن أحداً من دخوله ، ولكن أرسل
إلى الملك وقل له : « أنا تبع الموصل ، فمتى دخلت الموصل سلمت إليك » . ففعل
الدزدار ذلك .

وقال جمال الدين للملك [ألب أرسلان] : « المصلحة أنا نسير إلى الموصل ،
فإن مملوكك غازى إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة ، فحينئذ نقبض عليه ونتسلم
البلاد » ، فساروا عن سنجار ، وكثر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك ،

(١) ما بين الحاصرتين عن س .

(٢) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٧) ، أما نص س (١١٠) ب
فختلف قليلاً وهو : « ... قال : فطلبوا الأمراء من الملك ألب أرسلان ما (كذا) ، قال :
وجعل يقول للأمراء : لكم الإقطاع والنعم الوافرة » .

(٣) في س : « قلوب المساكر » .

(٤) في س (١١١) : « فذل » .

فبقي في قلعة من العسكر ، فساروا (١) إلى [مدينة (٢)] ببلد ، وعبر الملك ألب أرسلان دجلة من هناك ، ودخل الوزير جمال الدين الموصل ، وأرسل الأمير عز الدين أتابك الديسي (٣) في عسكر إلى الملك ألب أرسلان — وهو في نهر يسير — فأخذ وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به ، فذكر أنه خفق بوترقوس .

واستقر الملك بالموصل لسيف الدين غازي بن زنكي ، وأقر الأمير زين الدين علي كوجك (٤) على ما كان عليه من ولاية الموصل ، ومعه جمال الدين محمد بن علي — وزيره — ، وأرسلوا إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه ، فاستحلفوه لسيف الدين [غازي] ، فحلف له وأقره على البلاد ، وأرسل إليه الخلع ؛ وقد ذكرنا أنه كان في خدمته في حياة أبيه ، وكان السلطان مسعود يحبه ويأنس به ، فلم يتوقف في تقرير البلاد له والحلف له .

ذكر أخبار الأيام النورية

قد ذكرنا مقتل الأمير عماد الدين وتملك والده سيف الدين غازي الأكبر الموصل ، وتملك والده نور الدين محمود حلب ، وكانت بعلبك قد ملكها الشهيد ، واستتاب بها الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي والد الملك الناصر [صلاح الدين (٥)] ،

(١) في الأصل : « فسار » ، وقد صححت ، بمد مراجعة س (١١١١) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٧) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن الروضتين ؛ والنص في س : « إلى بلد الموصل » وهو خطأ ، وبلد — ويقال بَلَط — مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل بينهما سبعة فراسخ ؛ (ياقوت : معجم البلدان) .

(٣) في الأصل ، وفي س : « الديسي » ، أنظر ما فات ، ص ١٠١ ، هامش ٢

(٤) في الأصل : « كوجل » ، أنظر ما فات ، ص ٢٨ ، هامش ١

(٥) ما بين الحاصرتين عن س .

فلما بلغه وفاة الشهيد كاتبه الأمير مجير الدين آبق^(١) بن محمد بن بوري بن طفتكين
— صاحب دمشق — في تسليها ، وبذل له أموالا [كثيرة^(٢)] وقرابا من أعمال
دمشق ، فسلمها إليه ، وانتقل نجم الدين أيوب إلى دمشق ، وأقام بها ، وذلك لأربع
بقيين من ربيع الآخر من هذه السنة — أعني سنة إحدى وأربعين [٦٥] وخمسة —
وتسلم نور الدين من حاجب أبيه صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيساني^(٣) حماة ،
وعوضه عنها مدينة حمص وقلعتها ، قلت : وهكذا ذكر ابن منقز ، وذكر ابن الأثير :
أن حمص كانت بيد الأمير سيف الدين غازي ، وإنما تسلمها نور الدين بعد ،
على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر عصيان الرُّها^(٤) وعودها إلى المسلمين

وكنا قد ذكرنا افتتاح الرُّها ، افتتحها الأمير عماد الدين زنكي من الإفرنج ،
وكانت لجوسلين بن جوسلين^(٥) ، وكانت له أيضا من غربي الفرات تل باشر ،
فلما قتل الشهيد راسل جوسلين^(٥) أهل الرُّها ، وعامتهم من الأرمن ، وحملهم
على العصيان على المسلمين وتسليم البلد إليه ، فأجابوه إلى ذلك ، وواعدهم^(٦)

(١) في الأصل : « أتق » وصحة الاسم « آبق Abaq » . أنظر : (ابن تفرى بردى :
النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨١) ، (Zambaur, Op. Cit. P. 225) وقد حكم مجير الدين
أبق مدينة دمشق من سنة ٥٣٤ إلى سنة ٥٤٩ حيث انتقل ملكها إلى نور الدين محمود بن زنكي
وتوفي مجير الدين سنة ٥٦٤ وهو آخر من حكم دمشق من الأسرة البورية . هذا ويصحح
اسمه فيما يلي دون الإشارة إلى ذلك .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) في الأصل ، وفي س : « الباغيساني » ؛ أنظر ماكات ، ص ١٠٤ ، هامش ٢

(٤) في س (١١١ ب) : « أهل الرها » .

(٥) في س (١١١ ب) : « لجوسلين الفرنجي » .

(٦) في س : « وواعده يومًا » .

يوما يصل إليهم فيه ، وصار في عساكره إلى انرها ، فملك البلاد ، وعصت عليه القلعة
بمن فيها من المسلمين ، فقاتلهم ، وباع ذلك نور الدين — رحمه الله — وهو بحلب ،
فسار مجدا إليها بمسكوه ، فلما قاربها خرج جوسلين منها هاربا إلى بلدة ، ودخل
نور الدين المدينة قهيبها وسبي أهلها (١) ، فخلت منهم ولم يبق بها إلا القليل ، ولما بلغ
خبر الفرنج إلى سيف الدين بالموصل (٢) جهز العساكر إلى الرها فوصلت وقد ملكها
نور الدين ، فبقيت في يده ، ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين .

وفي هذه السنة رحل الأمير سيف الدين إلى الشام ، وكان أخوه نور الدين
قد خافه واستشعر منه ، وأخوه سيف الدين يكتبه ويستميله ، فلما وصل
سيف الدين إلى الشام استقرت القاعدة بينهما على أن يجتمعا خارج العسكر السيفي ،
ومع كل واحد منهما خمسمائة فارس ، فلما كان يوم الميعاد سار نور الدين من حلب
في خمسمائة فارس ، وصار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس ، فلم يعرف
نور الدين سيف الدين حتى قرب منه ، فحين عرفه ترجل له ، وقبل الأرض بين يديه ،
وأمر أصحابه بالعود عنه ، فعادوا ، وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا
وبكيا ، فقال له سيف الدين : « لم امتنعت من المجيء إلي ، كنت تخافني على نفسك ؟
[٦٦] والله ما خطر بيالي ما تكروه (٣) ، فلمن أريد البلاد ، ومع من أعيش ،
وبمن اعتضد ، إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إلي ؟ » فاطمأن نور الدين ،

(١) كذا في الأصل ، وفي س (١١١ ب) : « قهيبها وقتل رجالها من الأرمن ،
وسباناها . »

(٢) إلى هنا تنتهي (ص ١١١ ب) من نسخة س ، وباتنهاها تضطرب الصفحات مرة أخرى
في تلك النسخة ، وتنقطع الصلة بين (ص ١١١ ب) و (ص ١١٢) وبالتالي بين النص
هنا وبينه هناك في تلك النسخة .

(٣) في الأصل : « تذكره » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٨) .

وسكن روعه ، وعاد إلى حلب ، وتجهل (١) وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين ، فأمره سيف الدين بالود وترك عسكره عنده ، وقال له :

« لا غرض لي في مقامك عندي ، وإنما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا ، فمن يريد السوء بنا يكف عنه » ، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه ، وعاد كل منهما إلى بلده .

وفي سنة اثنين وأربعين وخمسة دخل نور الدين بلد الفرنج ، ففتح مدينة أرتاح (٢) وعدة حصون .

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسة نازل ملك الألمان (٣) بجموعه ، ومن انضم إليه من فرنج الساحل مدينة دمشق — وصاحبها مجير الدين آبق بن محمد ، والقيم بأمر دولته معين الدين أنر مملوك جده طفتكين — فزحفوا إلى البلد سادس ربيع الأول ، وقاتلوا أهله قتالا شديداً ، ثم نزل الفرنج على الميدان الأخضر (٤) ، وضاق الأمر على أهل البلد ، وأيقنوا أن العدو يملكه ، وراسل الأمير معين الدين سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل يدعوه إلى نصرته المسلمين ، فسار إلى الشام ، واستصحب أخاه نور الدين محمود بن زنكي — صاحب حلب — فزولوا بمدينة حمص ، وأرسل سيف الدين إلى معين الدين يقول له : « قد حضرت ومعى

(١) في الروضتين : « تجهز » .

(٢) هكذا ضبطها (ياقوت ، معجم البلدان) ، وقال إنها حصن منيع من أعمال حلب ، وفي (Dussand, T. H. 223-228) أنها موقع يبعد ١٥ كيلومترا إلى الشرق من بحيرة الطاكية أنظر أيضا : (CL.Cahen, La Syrie du Nord. PP 141-143) .

(٣) هو « كونراد الثالث Conrad III » امبراطور ألمانيا وقد اشترك معه في قيادة الحملة الصليبية المعروفة بالثانية لويس السابع ملك فرنسا . أنظر (Stevenson, Crusaders in the East.) و (حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون) .

(٤) كان هذا الميدان يقع غربي المدينة . أنظر : (Ibn El Qalanisi, Trad. Fran. :

per Roger Le Tourneau, P. 125).

كل من يحمل السلاح في بلادى ، فأريد أن تكون نوابى بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج ، فإن انهزمت دخلت أنا وعسكرى البلد ، واحتمينا به ، وإن ظفرنا فالبلد لكم لا ينازعكم فيه أحد . » وأرسل إلى الفرنج يتهددهم إن لم يرحلوا عن البلد وإلا أتيتهم . فكفَّ الفرنج عن القتال ، وقوى أهل البلد على حفظه ، واستراحوا من الحرب .

وأرسل معين الدين إلى الفرنج الغربا يقول لهم : « إن ملك الشرق قد حضر ، فإن رحلتهم وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ تندمون » . [٦٧] وأرسل إلى أهل الساحل ويقول لهم : « بأى عقل تساعدون هؤلاء علينا وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا مدينة دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية ، وأما أنا إن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف لدين ، وأنتم تعلمون أنه إن ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام بالشام » . فأجابوا بالتخلي عن ملك الألمان ، وبذل لهم حصن بانياس ، فاجتمعت الفرنج الساحلية بملك الألمان وخوفوه من استيلاء سيف الدين على دمشق ، وأنه إن ملكها لا يكون لهم به طاقة ، ولم يزالوا به حتى رحل عن دمشق ، وتسلموا بانياس ، ورجع ملك الألمان إلى بلاده ، وقد ذكرناه .

وفي هذه النوبة قتل شاهنشاد بن نجم الدين ^(١) أيوب جد جد مولانا السلطان الملك المنصور ^(٢) — صاحب حماة ، خلد الله سلطانه ^(٣) — على باب دمشق ، قتلته الفرنج المحاصرون للبلد ، ودُفن بالشرف ظاهر مدينة دمشق ، وخلف ولدين ،

(١) في الأصل : « جاك الدين » وهو خطأ واضح .

(٢) هو الملك المنصور الثانى حكم حماة من سنة ٦٤٢ إلى سنة ٦٨٣ . وقد خدمه مؤلف هذا الكتاب وعين قاضيا لقضاة حماة في عهده . وله ألف هذا الكتاب .

(٣) لهذا الدطاء أهمية خاصة فهو يبين على تمديد تاريخ تأليف هذا الكتاب . ومنه نستبين أن هذا الجزء من الكتاب كتب بعد سنة ٦٤٢ وهى السنة التى ولى فيها المنصور الثانى حكم حماة . أنظر ما فى ص ٢ ، هامش ٢ و ص ٩٩ هامش ٤

هما : الملك المظفر تقي الدين عمر ، والملك المنصور عز الدين فروخ شاه ، وهو أبو الملك
الأبجد مجد الدين بهرام شاه — صاحب بعلبك — .

ذكر استيلاء نور الدين محمود بن زنكى — رحمه الله — على حصن العزيمة

لما خرج ملك الألمان إلى دمشق كان معه ولد الأدفونش (١) وكان جده
هو الذى فتح طرابلس الشام ، فأخذ ولد الأدفونش حصن العزيمة ، وأظهر أنه يريد
أخذ طرابلس ، فأرسل القومص إلى نور الدين محمود ومعين الدين يدعوها إلى قصد
العزيمة وأخذها ، فقصدها من دمشق ، واستمد سيف الدين غازى ، فأمداهما بعسكر
كبير مع الأمير عز الدين الديبسى فقطع جزيرة ابن عمر ، فنازلوا حصن العزيمة
وبه ابن الأدفونش وضايقوه ، وتقدم إليه النقايون فنقبوه ، وتسلموا الحصن ،
وأخذوا ابن الأدفونش وكل من بالحصن ، وأخربوه وعادوا عنه .

كسرة الفرنج بيغرى (٢)

وفى هذه السنة — أعنى سنة ثلاث وأربعين وخمسةائة — تجمع الفرنج بمكان
يقال له يغرَى ليقتصدوا أعمال حلب ، فقصدهم نور الدين محمود بن زنكى ، فالتقوا
واقتلوا قتالا شديداً ، فكسر الفرنج كسرة قبيحة ، وقتل أكثرهم ، وأمر جماعة
[٦٨] من مقدميهم ، ولم ينج منهم إلا القليل ، وأرسل من الغنيمة والأسرى

(١) كذا فى الأصل ، وفى (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠) : « ولد الفتنس
صاحب طليظة وهو من أولاد أكابر ملوك الفرنج وكان جده هو الذى أخذ طرابلس الشام
من المسلمين » ، والاسم عند ابن الأثير أقرب إلى الصحة فهو تعريب « Alfonso » .
(٢) ذكر : (Dussaud: T. H. P. 436.) أنها تقع إلى الشرق من دريساك .

إلى أخيه سيف الدين غازي وإلى الخليفة الإمام المقتني لأمر الله ، والسلطان مسعود
ابن محمد بن ملكشاه .

وفي هذه الواقعة قال أبو عبد الله محمد بن صغير بن القيسراني قصيدة يمدح
بها نور الدين محمود — رحمه الله — .

أولها : ياليت أن الصدّ مصدودُ ! أولاً ، فليت النومَ مردودُ
إلى متى تُعرض عن مفرمِ في خدّه للدمعِ أخذودُ
ومنها : وكيف لا يثنى (١) على عيشنا الـ محمودِ ، والسلطانُ محمودُ
وصارمُ الإسلامِ لا يثنى إلا وشلوا الكفرِ مقدودُ
مناقب لم تكُ (٢) موجودةً إلا ونورُ الدين موجودُ
وكم له من وقعةٍ يومها — عندملوكِ الشركِ — مشهودُ
والقومُ : إما صرّهقُ صرّعةً ، أو موثقٌ بالقَدِّ مشدودُ
حتى إذا عادوا إلى مثلها قالتْ لهم هيبتهُ : عودوا

وفي سنة أربع وأربعين وخمسة مائة قصد سيف الدين غازي بن زنكي — صاحب
الموصل — دارا ، وكانت لوالده عماد الدين ، فلما قُتل أخذها الأمير حسام الدين
تمرتاش بن إيل غازي بن أرتق — صاحب ماردین — ، ولما دخلت هذه السنة قصدها
سيف الدين فملكها ، واستولى على كثير من بلد ماردین بسببها ، ثم قصد ماردین
وحصرها ، ثم راسله صاحب ماردین وزوجه ابنته ، فرحل سيف الدين عن ماردین ،
وعاد إلى الموصل ، وجُهزت الخاتون ابنة حسام الدين ، وصُفرت إليه ، فوصلت
إلى الموصل وهو مريض ، فتوفى ولم يدخل بها .

(١) في الأصل : « تثنى » والتصحيح عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥١) ، وفي
(الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٥) : « ثنى » ، وانظر آياتنا أخرى من القصيدة في المرجعين
السابقين .

(٢) في الأصل : « لم تكن » .

ذكر وفاة سيف الدين غازي بن زنكي

ابن آق سنقر - رحمه الله -

لما عاد سيف الدين إلى الموصل عرض له مرض حاد ، فاستدعى له من بغداد
أوحد الزمان أبو البركات البغدادي^(١) - صاحب المعتبر في الحكمة - فحضر
عنده ، ورأى شدة مرضه ، فعالجه فلم ينجح له فيه دواء ، فتوفي آخر جمادى الآخرة
من هذه السنة [٦٩] - أعني سنة أربع وأربعين وخمسة - فكانت مدة
ولايته ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوماً ، وكان جميل الصورة ، وكان عمره نحو
من أربع وأربعين سنة ، لأن مولده كان سنة خمسة ، ودفن بالمدرسة التي بناها
بالموصل ، وخلف ولداً ذكراً رباه عمه نور الدين محمود ، وزوجه ابنة أخيه قطب الدين
مودود بن زنكي ، فتوفي ولد سيف الدين شاباً ، وانقرض عقبه .

ذكر سيرة سيف الدين - رحمه الله -

كان جواداً كريماً شجاعاً ، وهو الذي بنى المدرسة الأتابكية بالموصل ، وقفها
على الفريقين الحنفية والشافعية ، بنى رباطاً للصوفية ، وكان مقصداً للشعراء ، فقصدته
شهاب الدين الحيص بيض^(٢) ، وامتدحه بقصيدة أولها :

(١) هو أوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكا البلدي لأن مولده ببلد ،
البغدادي لاقامته في بغداد ، كان يهودياً وأسلم . أنظر ترجمته في : (ابن أبي أصيبعة : طبقات
الأطباء ، ج ١ ، ص ٢٧٨ - ٢٨٠) .

(٢) هو شهاب الدين أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن صبيح التيمي المعروف بحيص
بيض ، شاعر مشهور ، توفي في بغداد ليلة الأربعاء سادس شعبان سنة ٥٧٤ هـ . ويقال إنه
سمى حيص بيض لأنه رأى الناس يوماً في حركة مزعجة وأمر شديد ، فقال : ما للناس في حيص
بيض ، فبقى عليه هذا القب ، ومعنى هذين اللفظين الشدة والاختلاط . أنظر ترجمته في : (ابن
خلكان : الوفيات ، ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٨) .

إلامَ براك المجدُّ (١) في زِيِّ شاعرٍ وقد نَحَلتْ شوقاً فروعُ المنايرِ
فوصله بألف دينار سوى الخلع .

وكان سيف الدين يحمل على رأسه السنجق (٢) ، ولم يكن يفعل ذلك أبوه
ولا أحد من أصحاب الأطراف ، فلما فعل ذلك اقتدى به غيره ، وألزم الجند
أن لا يركب أحد إلا بالسيف في وسطه ، والدبوس (٣) تحت ركبته .

ذكر استيلاء قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي على الموصل

لما توفي سيف الدين غازي كان قطب الدين مودود قهياً بالموصل ، فاتفق الوزير
جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني والأمير زين الدين علي كوجك صاحب إربل والمقدم
على الجيوش علي تملك قطب الدين ، فاستحلفوه وحالفوا له ، وأركبوه إلى دار السلطنة ،
وزين الدين ماش في ركابه ، وتسلم جميع ما كان بيد سيف الدين من البلاد ، وتزوج
الخاتون (٤) ابنة حسام [الدين] تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق صاحب ماردین ،

(١) في الأصل : « الدهر » ، والتصحيح عن : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٥) .
(٢) السنجق راية صغيرة صفراء ، وقد أصبح هذا التقليد الذي استنه سيف الدين غازي ،
وهو رفع السنجق على رأس الملك ، من رسوم الملك في مهر في عهدى الأيوبيين والمماليك .
أنظر : (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٨) .

(٣) الدبوس — والجمع دبايس — آلة حربية ، عرفها صاحب (محيط المحيط) بأنها
« هراوة مدملكة الرأس ، وكالابرة من النحاس في طرفها كتلة صغيرة » ، وقد وصفها
(Dozy: Supp. Dict. Arab.) وصفاً أقرب إلى الدقة هو : "massue, casse-tête, longue
d'environ deux pieds et terminée par une tête revêtue de fer, qui a environ
trois pouces de diamètre).

(٤) هي نفس الخاتون التي كان قد خطبها سيف الدين غازي ومات قبل أن يدخل بها فتزوجها
أخوه قطب قطب الدين مودود .

فؤله منها سيف الدين غازي وعز الدين مسعود وغيرها ، وكانت هذه المرأة يحمل لها أن تظهر بخمسة عشر ملكا من أبائها وأجدادها وأخوتها وبني أخوتها وأزواجها وأولادها وأولاد أولادها ، وأشبهت من النساء في ذلك في الزمن القديم عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فإنه كان يحمل لها أن تظهر لثلاثة عشر خليفة ما بين أب وجد وأخ وابن أخ وولد أخ وزوج ، وفي زمننا [٧٠] هذا ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب لم تمت حتى رأت من أولاد أخيها جماعة كبيرة كل منهم ملك على طرف من الأطراف .

ذكر استيلاء نور الدين محمود بن زنكي على سنجان

لما ملك قطب الدين الموصل كان أخوه نور الدين بجلب ، وهو أكبر منه ، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم ، منهم المقدم والدمشقي الدين بن المقدم ، وكان دزداراً بسنجان (١) فسار نور الدين جريداً في سبعين فارساً من أكبر دولته ، منهم الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي ، ومجد الدين أبو بكر بن الداية ، فوصل إلى ماكين (٢) في ستة أنفس في يوم شديد المطر ، ولم يعرفه الدين بالباب ، فأرسلوا إلى الشحنة ، وأخبروه أنه وصل نفر من الأجناد كأنهم تركان ، فلم يتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين ، فحين رآه الشحنة قبل يده وخرج عن الدار ، فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه ، فسار مجداً إلى سنجان ، فوصلها وليس معه إلا نفر يسير ، ونزل ظاهر البلد وألقى نفسه على محفورة صغيرة من شدة تعبته ، وأرسل إلى المقدم دزدار القلعة يعرفه بوصوله ، وكان المقدم قد استدعى من الموصل ، لأن

(١) ذكر ياقوت أنها مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين كل من الموصل ونصيبين ثلاثة أيام ، وهي في لطف جبل طان وفي وسطها نهر جار .

(٢) بلد بالحلب قرب من رحبة مالك بن طوق من ديار ربيعة . (ياقوت : معجم البلدان) .

مكاتبته لنور الدين كانت قد بلغتهم ، فأرسلوا إليه ، فتوقف عدة أيام فلم يصل إليه نور الدين ، فسار إلى الموصل وترك ابنه شمس الدين محمد بسنجار ، وقال له : « أنا أتأخر في الطريق ، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني » ، فلما فارق سنجان وصل نور الدين ، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصداً إلى أبيه بالخبر ، وأنهى الحال إلى نور الدين ، فخاف فوات الأمر ووصل القاصد الذي سيره شمس الدين ابن المقدم إلى أبيه ، فأدركه بتلّ يَعْفَر (١) ، فعاد إلى سنجان وسلمها إلى نور الدين ، وكاتب الأمير فخر الدين فر أرسلان بن داوود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كَيْفَا (٢) يستنجده ، وبذل له قلعة الهيم ، فسار إليه ، فلما سمع قطب الدين الخبر جمع المساكر ، وصار نحو سنجان ، ونزل بتلّ يَعْفَر .

ذكر الصلح بين قطب الدين وأخيه نور الدين

ورد سنجان إلى قطب الدين

[٧١] ولما نزل قطب الدين بتلّ يَعْفَر راسل زين الدين علي كُوجِك وجمال الدين — وزير قطب الدين — نور الدين أخاه ، وأنكروا عليه إقدامه على أخذ ما ليس له ، ونهددوه بقصد ، وأخذ البلاد من يده قهراً إن لم يرجع اختياراً ، فأجاب : « إنني أنا الأكبر وأنا أحق أن أدير أختي منكم ، وما جئت إلا لما تابعت إلى كتب الأمراء بذكرون كراهمهم لولايتكم عليه ، فحفت أن يحملهم الغيظ والآنفة على أن يخرجوا البلاد من أيدينا ، وأما تهديدكم إياي بالقتال

(١) هكذا تسميه الخاصة ، وتسميه العامة « تلّ أعفر » ، وقيل إن أصله « التلّ الأعفر » لونه فغير بكثرة الاستعمال وطلب الحقة . وهو قلعة وربيض بين سنجان والموصل في وسط واد فيه نهر جار . (ياقوت : معجم البلدان) .

(٢) قال ياقوت إنها بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر ، وهي كانت ذات جانين وعلى دجلتها قنطرة .

فأنا ما أقاتلكم إلا بجندكم ، وكان قد هرب إليه جماعة من الأجناد فخافوا من مخامرة الأمراء عليهم إذا لقوه ، فأشار الوزير جمال الدين بالصلح ، وقال : « نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع لنور الدين ، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ، ويتهددهم بنا ، فإن كاشفناه وحاربناه ، فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان ، وإن ظفرنا به طمع فيه الفرنج ، ولنا بالشام حصص ، وله عندنا سنجار ، فهذه أنفع لنا من تلك ، وتلك أنفع له من هذه ، والرأي تسليم حصص إليه ، وأخذ سنجار منه . فاتفق رأي الجماعة على ذلك ، وسار جمال الدين إلى نور الدين ، فأبرم معه الأمر ، وتسلم حصص ، وسلم سنجار إلى أخيه ، وعاد نور الدين إلى الشام ، فأخذ ما كان له بسنجار من المال .

ولما تسلّم قطب الدين سنجار أقطعها لزين الدين على كوجك ، واتفقت كلمتهم ، واتحدت آراؤهم ، وطلب نور الدين جمال الدين فامتنع ، واعتذر باحتياج قطب الدين إليه ، واستغنى نور الدين عنه برأيه ومعرفته ، فأطلق له نور الدين عشرة آلاف دينار كل سنة تحمل إليه ليصرفها في مصالحه ، فكان نائبه بالشام يقبضها كل سنة ، ويشتري له بها أسرى من الفرنج ويطلقهم .

ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية وكسرة الفرنج

وفي هذه السنة — سنة أربع وأربعين وخمسةائة — قصد نور الدين الدين بن زنكي — رحمه الله — حصن حارم — وهو للفرنج — فخرّب رقبته ، ونهب سواده ، ثم رحل إلى إنب (١) فحاصره ، فشد البرنس صاحب أنطاكية (٢) ، فلقيه نور الدين .

(١) في الأصل : « انت » وقد صححت وضبطت بمد مراجعة ابن القلائس ، وذكر ياقوت

إنها حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب .

(٢) هو « ريمون دي بواتيه » .

[٧٢] واقتلوا قتالا شديداً ، وانهزم الفرنج أقبح هزيمة ، وقتل منهم خلق كثير ، وأسر مثلهم ، وقتل البرنس صاحب أنطاكية ، وكان عاتياً من عتاة الفرنج ، وعظيماً من عظمائهم ، فملك بعده ولده بيمند (١) - وهو طفل - فتزوجت أمه (٢) برجل من الفرنج ليدير ولدها الطفل إلى أن يكبر ، ثم قصد نور الدين الفرنج مرة [أخرى] ، فجمعوا ولقوه فقتل منهم وأسر ، فكان من جملة الأسرى زوج أم بيمند ، فمدح الشراء نور الدين ، فمن مدحه : أبو عبد الله محمد بن صغير بن القيسراني بقصيدة أولها :

هذي العزائمُ لا ما تدعى القُضْبُ	وذى المكارمُ لا ما قالتُ الكتبُ
وهذه المهمُ اللاتي إذا خُطبتُ	تعثرتُ خلفها الأشعارُ والخطبُ
صاغتُ يا بن عمادِ الدين ذرْوَتَها	براحةٍ للساعي دونها التعبُ
ما زال جِدْكَ يبنى كل شاهقةٍ	حتى بنى قبةً أوتادها الشهبُ
أغرَّت (٣) سيوفك في الأفرنج راجفةً	فواذ رومية الكبرى لها يجبُ
ضربت كبشهم منها بقاصمة	أودى لها الصُلبُ وانحطت لها الصُلبُ
طهرت أرضَ الأعدى من دماهم	طهارةً كل سيف عندها (٤) جنبُ
حتى استطار (٥) شرارَ الزندِ قادحُه	فالْحَرْبُ تُضرمُ والآجالُ تُحْتطبُ
من كان يغزو بلادَ الشِركِ مكتسباً	من الملوك ، فنورُ الدين محتسبُ

(١) في الأصل « سمد » بدون نقط ، وما هنا عن : (الروضتين ج ١ ، ص ٥٨) وهو بومند الثالث .

(٢) هي « كونستانس » وقد تزوجت في مناسرا اسم « رينو دي شاتيون » . أنظر : (جنس : نور الدين والصليبيون ، ص ٨٤) .

(٣) في الأصل : « أغرب سيوفك في الأفرنج راجعة » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٩) .

(٤) في الأصل : « عنهما » ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٥) الأصل : « استطار » والتصحيح عن المرجع السابق .

ذو غُرَّةٍ ما مَمَّتْ والليلُ معكِرٌ
أفعاله كاسمه في كلِّ حادثةٍ
إلا تمزق عن شمس الضحى الحجبُ
ووجهه نائبٌ عن وصفه اللقبُ
ومدحه آخر (١) بقصيدة أولها:

أقوى الضلالُ وأقفرُ عرصاته
وانتاش دينَ محمدٍ محموده
وعلا الهدى وتبلجت قناته (٢)
من بعد ما غلبت (٣) دما عبراته
رَدَّتْ على الإسلامِ عصرَ شبابه
ووثباته من دونه ، وثباته
[٧٣] أرسى قواعدهُ ومدَّ عماده
صُعدا وشيّد سورَه سوراته
وأعاد وجهَ الحقِ أبيضَ ناصعا
أصلاته ، وصلاته ، وصلاته

وفي هذه السنة توفي معين الدين أنر القيم بتدبير دولة مجير الدين آبق بن محمد
— صاحب دمشق — .

ذكر فتح أفامية

وفي سنة خمس وأربعين وخمسة سار نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله —
إلى حصن أفامية — وهو للفرنج — فقاتل من به ، وضيق عليهم ، فاجتمع الفرنج
وساروا نحوه ليرحلوه عنه ، فلم يصلوا إلا وقد ملكه وملاه ذخائر وسلاحا ورجالا
وجميع ما يحتاج إليه ، فلما بلغه سير الفرنج رحل عنه ، وقد فرغ من أمره ،
وسار للقائهم ، فحين رأوا قوة عزمه ، وأن الحصن قد ملك ، عدلوا عن طريقه ،
ودخلوا بلادهم .

(١) هو الشاعر أحمد بن منير . أنظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٠) .
(٢) الأصل : « نساته » والتصحيح عن المرجع السابق .
(٣) كذا في الأصل ، ولعلها « هكت » .

ذكر انهزام نور الدين من الفرنج

في سنة ست وأربعين وخمسة مائة جمع نور الدين — رحمه الله — عساكره ، وسار إلى بلاد جوسلين بن جوسلين صاحب تل باشر وعين تاب وعزاز ، وكان جوسلين أشد الفرنج شجاعة وأقوام بأساً وأصحهم رأياً وأعظمهم مكيدة ، فجمع جمعا كثيراً من الفرنج وسار نحو نور الدين ، فالتقوا ، فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسرى خلق كثير ، وكان من جملة الأسرى سلاح دار^(١) نور الدين ، فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين ، وسيره إلى الملك مسعود^(٢) بن قليج أرسلان بن سليمان ابن قطلمش السلجوقي — صاحب بلاد الروم — وقال له : « هذا سلاح زوج ابنتك وسياتيك بعده ما هو أعظم منه » ، وبلغ ذلك نور الدين فعظم عليه .

ذكر وقوع جوسلين في أسر نور الدين — رحمه الله —

ثم شرع نور الدين في أعمال الحيلة على جوسلين ، فأرغب جماعة ممن معه من التركان ، ووعدهم الوعود الجميلة إن أتوه بجوسلين أسيراً أو عقيراً^(٣) ، فأدلوا عليه العميون ، فاتفق أنه خرج متصيدياً فظفر به طائفة منهم فوعدهم بمال جزيل إن أطلقوه ، فأجابوه إلى الاطلاق إن حضر المال ، فأرسل في إحضاره ، فمضى بعضهم [٧٤] إلى الأمير مجد الدين بن الداية — النائب بحلب — وأعلمه الحال ، فسير عسكراً ، فكبسوا أولئك التركان ومعهم جوسلين ، فأخذوه أسيراً وأحضره إلى نور الدين .

(١) سلاح دار أي ممسك أو صاحب سلاح السلطان ، وله الاشراف على السلاح خاناه السلطانية ، ويختار عادة من بين الأمراء القدامين . (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨) .

(٢) حكم بين سنتي ٥١٠ و ٥٥١ . أنظر : (Zambaur Op. Cit. P. 143) .

(٣) « عقير » أي جريح . (اللسان) .

وذكر الأمير مؤيد الدولة بن منقز أن أسر جوسلين إنما كان في سنة
خمس وأربعين وخمسة ، وذكر أن صورة أسره أنه خرج من مدينة تل باشر ،
وسار في الليل فأدركه النوم ، فنزل ومعه نفر يسير من أصحابه ، وقال لباقي أصحابه :
« انطلقوا فانا ألحقكم » ونزل فنام ، فموت به سرية من التركان اتفاقاً ، فانهزم
أصحابه ، وأخذ جوسلين أسيراً ، وهم لا يعرفونه ، فاجتازوا به من الغد على رجل
أرمني ، فجاء وقبّل يده ، فقالوا له التركان : « من هذا ؟ » فقال : « هذا جوسلين
صاحب تل باشر » ، فلما عرفوه احتفظوا به ، وبلغ خبره إلى مجد الدين أبي بكر
بن الداية — النائب بحلب — فأحضر التركان وأعظام حتى أراضاه ، وأخذ
جوسلين وتركه عنده ، فلما وصل نور الدين إلى حلب كحل جوسلين وأهلكه .

ذكر فتح تل باشر

وكتب النواب بتل باشر في هذه السنة نور الدين — أعني سنة ست وأربعين
وخمسة — في أن يتسلمها ، وكان نور الدين — رحمه الله — نازلاً بدهشق ،
فكتب إلى مجد الدين أبي بكر بن الداية لمضى إليها ويتسلمها ، فمضى إليها وتسلمها
يوم الخميس خمس بقين من ربيع الأول من السنة ، ثم تسلم عين تاب وعزاز وتل خالد
وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفر سود وكفر لانا (١) في مدة
قريبة ، وسنذكر ذلك . وفي أسر جوسلين يقول محمد بن صغير بن القيسراني
من قصيدة :

كما أهنت الأقدارُ للقمص أسره وأسعدُ قرنٍ من حواه لك الأسرُ

(١) هذه كلها هي القلاع والمدن والحصون المحيطة بتل باشر من أملاك جوسلين . وقد أضاف
إليها (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥٨) : « دلوك ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك من أعماله » .
ولتعريف بها جيداً انظر : (ياقوت ، معجم البلدان) .

طغى وبغى (١) عدوا على غلوائه فأورثه البغي العداوة والكفر
وأمت عزاز كاسمها بك عزة تشق على النسرين لو أنها وكر
كأني بهذا العزم لا فل حده فأقصاه بالاقصى وقد قضى الأمر
[٧٥] فسروا ملك (٢) الدنيا ضياء وبهجة فبالاق الداجي [إلى (٣)] اذا السنا فقر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا وليس سوى جارى الدماء له طهر

ذكر كسرة الفرنج بدلوك (٤) وفتحها

وفي سنة سبع وأربعين وخمسة تجمعت الفرنج وحشدت فارسهم وراجلهم
وصاروا نحو نور الدين محمود بن زنكى — رحمه الله — وهو ببلاد جوساين ليمنموه
من تملكها وأخذها، فوصلوا إليه وهو بدلوك، فوقع المصاف بها، واقتلوا قتالا
شديداً، وصبر الفريقان عليه، فانكسر الفرنج، وقتل منهم وأسر عدد كثير،
وملك دُلوك واستولى عليها.

ذكر استيلاء محمود بن زنكى على مدينة دمشق

ونخروج الملك عن بيت طغتكين

آخر من ملك دمشق من بيت الأمير ظهير الدين أتابك طغتكين الأمير
مجبر الدين آبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك (٥) بورى بن طغتكين، وكان القيم

(١) الأصل: « طفاوبفا » .

(٢) كذا في الأصل، ولعلها: « واملا » .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة: (ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ٥٨) .

(٤) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها بليدة من نواحي حلب بالمواصم .

(٥) في الأصل لفظ « بن » زائدة بين « تاج الملوك » و « بورى » .

بتدبير أمره معين الدين أثير مملوك جده ، وكان الحكم له ، وليس لمجير الدين إلا مجرد الاسم ، ثم توفي معين الدين سنة أربع وأربعين وخمسةائة .

ولما كانت هذه السنة — وهي سنة سبع وأربعين وخمسةائة — نازل الفرنج على قتلان — وهي للمصريين — فأخذوها وكان نور الدين لما نازل العدو عسقلان يتأسف إذ لا يمكنه الوصول إليهم ، ودفعهم عنها بسبب توسط دمشق بينه وبينهم ، فلما ملكها العدو وقوا وطعموا في ملك دمشق ، واستضعفوا بجير الدين ، وتابعوا الفارة على أعماله ، وأكثروا القتل بها والنهب والسبي ، وأفضى الأمر بالمسلمين إلى أن جعل الفرنج على دمشق قطيعة في كل سنة ، وكان رسولهم يجيئ وبجبيها من البلاد ، ثم اشتد البلاء حتى أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإمامهم الذين هبوا من سائر بلاد النصرانية ، وخبروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب وطنه سار إليه ، وقلت حرمة مجير الدين عند أهل دمشق إلى أن حصره في القلعة مع إنسان من أكابر أهل البلد يقال له مؤيد الدين ابن الصوفي .

ولما اتصل ذلك بنور الدين لحقته الحمية ، وخاف من [٧٦] استيلاء العدو على بلاد المسلمين ، وأهمه أهل دمشق ، وعمل الحيلة في ملكها حيث علم أنه إن قصدتها ورام أخذها بالقلبة استمال صاحبها الفرنج واستعان بهم على حربه ، فاستمال نور الدين حينئذ مجير الدين صاحبها ولاطفه وأظهر مودته وواصله بالهدايا والتحف حتى وثق به ، ثم كان في بعض الأحيان يقول له : « إن فلاناً من الأمراء قد كاتبني في تسليم البلد إلي » ، فيبعد مجير الدين ذلك الأمير ويأخذ إقطاعه ، وفعل ذلك مراراً حتى أبعد مجير الدين عنه أكثر الأمراء ، وبقي عنده أمير يقال له عطاء بن حفاظ السلي ، وكان شهماً شجاعاً ، فنوّض إليه مجير الدين أمر دولته ، وكان نور الدين

لا يتمكن معه مما يريد ، فاتفق أن مجير الدين قبض عليه وقتله ، فتم غرض نور الدين إلى دولته ، وكاتب الأحداث بدمشق ووعدهم بالإحسان إليهم واستمالهم إليه ، ثم صار إلى دمشق وحصرها ، فأرسل مجير الدين إلى الفرنج وبذل لهم الأموال ، ووعدهم تسليم بعلبك إليهم إن نجدوه ورحلوا نور الدين عنه ؛ فجمعوا فارسهم وراجلهم ، ولم يجتمع جمعهم إلا وقد تسلّم نور الدين البلد .

وكان صورة تسلمه له أن الأحداث ناروا وفتحوا الباب الشرقي فدخله نور الدين وملك البلد ، وحصر مجير الدين في القلعة ، وراسله في التسليم ، وبذل له إقطاعاً من جلته حصص ، فأجاب إلى ذلك ، وسلم قلعة دمشق إلى نور الدين ، وصار إلى حصص ثم إنه راسل أهل دمشق ليسلموا إليه البلد ، وعلم نور الدين بذلك ، فأخذ منه حصص ، وسلم إليه بالس ، فلم يرضها ، وصار عنها إلى بغداد وأقام بها ، وابتنى داراً بالقرب من مدرسة النظامية ، وتوفى بها ، وصفت الممالك بالشام لنور الدين .

وذكر ابن الأثير أن فتح تل بامر كان في هذه السنة ، وأن نور الدين بعث إلى حسّان — صاحب منبج — في أن يتسلمها فتسلمها .

وكنا حكينا عن ابن منقز أن تسلمها كان في سنة ست وأربعين ، وما ذكره ابن الأثير هو الأصح ، فإنه ذكر أنه لما ورد عليه رسل النواب بتل بامر يبذلون التسليم إليه كان نور الدين نازلاً على دمشق ، ومنازلة الماء كانت في هذه السنة .

ذكر منازلة نور الدين — رحمه الله — حارم

[٧٧] وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة حاصر نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله — قلعة حارم وهي لبينند — صاحب أنطاكية — ؛ فجمع الفرنج وصار إلى لقائه ، فمنعوا منه ، وكان في الحصن رجل من دهاة الأفرنج يرجعون إلى وأيه

وعقله ، فأرسل إليهم يقول لهم : « إننا نقدر على حفظ القلعة ، وليس بنا ضعف ، فلا نخاطروا باللقاء ، فإنه إن هزمكم أخذها وغيرها ، والرأى مطاولته ، فأرسلوا إليه وصالحوه على أن تعطوه نصف أعمال حارم . واصطلحوا على ذلك ورحل عنهم .

وفي سنة اثنين وخمسين وخمسةائة كانت الزلزلة العظيمة التي هدمت حماة وشيزر ، وهلك تحت الردم بنو منقذ^(١) الكنانيون — أصحاب شيزر — فبادر إليها نور الدين فملكها ، وأضافها إلى مملكه ، وكانت هذه الزلزلة عظيمة جداً ، أهلكت حماة وشيزر ، وذكر بعض من أدركها أنه قال بعض معلى الكتاب : « كان عندي خلق من الصبيان هلكوا كلهم ، فما جاء أحد من أقاربهم سأل عن هلاك من هلك له » ، وهذا يدل على أنها أهلكت أقارب أولئك الصبيان كلهم ، وكانوا بنو منقذ اجتمعوا ذلك اليوم في مكان ، وعندهم قرد يلعب بين أيديهم ، فوقع البناء عليهم فأهلكهم كلهم ، ولم يسلم إلا ذلك القرد ، فإنه هرب إلى بستان هناك من شبك الدار التي كانوا فيها ، فسلم وحده ، وارتدم الحصن الذي لهم حتى كأنه لم يكن .

ذكر استيلاء نور الدين على بعلبك

وفي هذه السنة — سنة اثنين وخمسين وخمسةائة — ملك نور الدين بعلبك ، وقد ذكرنا ملك عماد الدين بن زنكي لها ، تم تسليم نائبه بها نجم الدين أيوب بن شاذي بعلبك إلى صاحب دمشق ، فاستناب بها رجلا يقال له ضحّاك البقاعي^(٢) ، فلما ملك

(١) لاستيفاء أخبار شيزر وحصنها وأخبار الزلازل وأخبار بني منقذ أنظر : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٨٢ — ٨٣) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٠٤ — ١٠٥) و (محمد حسين : أسامة بن منقذ) و (طاهر النعساني : أسامة بن منقذ) .
(٢) نسبة إلى بقاع بعلبك . (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٨٥) .

نور الدين دمشق امتنع ضحكاً بعبك ، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربها من الفرنج ،
وخاف إن حاصرها يسلمها ضحكاً إليهم ، فتلطف الحال معه إلى أن عوَّضه عنها
وتسليمها ، وفي ذى الحجة من هذه السنة توفي عز الدين الديسي صاحب جزيرة
ابن عمر ، وهو من أكبر الأمراء العمادية .

[٧٨] ذكر استيلاء نور الدين على مدينتي بصرى وصرخد

كانت صرخد بيد الأمير أمين الدولة كُشْتِكِين (١) من جهة الأمير
ظهر الدين أتابك طُغْتِكِين ، وكان بصرى التيتاش (٢) غلام أمين الدولة ، فتوفي
أمين الدولة في ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسة ، فصار غلامه التيتاش
إلى صرخد فملكها ، واجتمعت له بصرى وصرخد ، وأظهر المشاقة لصاحب دمشق ،
وسار إلى الفرنج يستنجد بهم ، فسار الأمير معين الدين أنر مقدم الجيوش بدمشق
إلى تلك الناحية ، فلما خرج الفرنج لنصرة التيتاش ، وهو معهم ، سار إليهم معين الدين
فكسرم ، وعادوا مخذولين إلى بلادهم ، ومعهم التيتاش ، ونزل الأمير معين الدين
على صرخد وبصرى في ذى القعدة سنة إحدى وأربعين وخمسة ، وأقام محاصراً لها
شهرين فملكها ، وانفصل التيتاش عن الفرنج ، وعاد إلى دمشق بغير أمان ،
وكان في أيام ولايته قد قبض على أخيه خطلخ فكحله ، وأخرجه من عنده ،
فلما وصل التيتاش إلى دمشق حاكمه أخوه خطلخ وكحله بالشرع قصاصاً ، ولما ملك
الأمير معين الدين قلعتي بصرى وصرخد ، سلم صرخد إلى الأمير مجاهد الدين

(١) أمين الدولة كُشْتِكِين نائب قلعتي بصرى وصرخد ، ولاء عليهما الأتابك طُغْتِكِين ،
أنشأ المدرسة الأميلية في دمشق للفقهاء الشافعية ، توفي سنة ٥٤١ هـ . أنظر : (النجمي ،
الدارس في تاريخ المدارس ، ص ١٧٨ وما بعدها) .

(٢) كذا في الأصل ، وهو في (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق) : « التوتاش »
و « البيونياس » ؛ وفي : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٠) : « التوتاش » .

بُرْزَانُ بْنُ يَامِينَ (١) الْكُرْدِيُّ ، وَسَلَّمَ بِبَصْرَى إِلَى حَاجِبِهِ فَارَسَ الدَّوْلَةَ صَرْخِيكَ (٢) ،
ثُمَّ تَوَفَّى مُجَاهِدَ الدِّينِ بُرْزَانَ بِصَرْخَدَ لَيْلَةَ ثَانِي صَفْرِ سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، فَلَمَّا كَانَتْ
بَعْدَهُ وَوَلَدَهُ سَيْفَ الدِّينِ مُحَمَّدَ بْنَ بُرْزَانَ ، فَأَخَذَهَا مِنْهُ نُورُ الدِّينِ — رَحِمَهُ اللَّهُ —
بَعْدَ امْتِنَاعٍ ، وَعَوَّضَهُ عَنْهَا حَصْنَ أَبِي قَبَيْسٍ ، وَقَتَلَ فَارَسَ الدَّوْلَةَ صَرْخِيكَ صَاحِبَ
بَصْرَى فِي الْمَحْرَمِ سَنَةِ خَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، قَتَلَهُ ابْنُ الْحَاجِبِ جَوَاهُ (٣) زَوْجَ ابْنَتِهِ ،
فَأَخَذَهَا نُورُ الدِّينِ — رَحِمَهُ اللَّهُ — وَوَلَّى فِيهَا نَوَابِهِ .

ذِكْرُ خُرُوجِ أَمِيرِ أَمِيرَانَ (٤) بْنِ زَنْكِيِّ عَلَى أَخِيهِ نُورِ الدِّينِ

وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ مَرَضَ نُورُ الدِّينِ — رَحِمَهُ اللَّهُ — بِقَلْعَةِ حَلَبٍ ،
وَاشْتَدَّ مَرَضُهُ ، وَأَرْجَفَ النَّاسُ بِمَوْتِهِ ، فَجَمَعَ أَخُوهُ الْأَصْفَرُ أَمِيرَ أَمِيرَانَ بْنِ زَنْكِيِّ
النَّاسِ ، وَحَصَرَ قَلْعَةَ حَلَبٍ ، وَكَانَ الْأَمِيرُ أَسَدُ الدِّينِ شَيْرَكَوَهُ بْنُ شَاذِيٍّ بِحِمَصٍ ،
وَهُوَ مَقْطَعُهَا ، فَسَارَ إِلَى [٧٩] دِمَشْقَ لِيَتَغَابَ عَلَيْهَا ، وَبِهَا أَخُوهُ (٥) نَيْجُ الدِّينِ أَيُّوبُ
ابْنُ شَاذِيٍّ ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ نَيْجُ الدِّينِ ذَلِكَ وَقَالَ : « أَهْلَكْتَنَا ، وَالْمَصْلَحَةُ أَنْ تَعُودَ

(١) فِي الْأَصْلِ هُنَا وَفِيهَا بَلِي : « بُرْزَانَ بْنِ يَامِينَ » ، وَالتَّصْحِيحُ هُنَا عَيْنٌ : (النِّبْمِيُّ :
الدَّارِسُ ، ج ١ ، ص ٤٥١ ، هَامِش ٢) حَيْثُ ذَكَرَ النَّاشِرُ أَنَّ الْأَسْمَ صَحِيحٌ بَعْدَ مُرَاجَعَةِ
الْكِتَابَةِ الْمَنْقُوشَةِ عَلَى عَتَبَةِ بَابِ الْمَدْرَسَةِ الْمُجَاهِدِيَّةِ الْجَوَانِيَّةِ الَّتِي أُنْشِأَهَا بِاسْمِهِ فِي دِمَشْقٍ . وَهُوَ
مُجَاهِدُ الدِّينِ أَبُو الْفَوَارِسِ بُرْزَانَ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ مِنَ الْأَكْرَادِ الْجَلَالِيَّةِ وَهِيَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ، بِلَادِمِ
فِي الْمَرَاقِ بِنَوَاحِي دِقْقُوقَا مِنْ أَعْمَالِ بَنْدَادٍ ، وَكَانَ أَحَدَ مُتَقَدِّمِي الْجَيْشِ بِالشَّامِ فِي دَوْلَةِ نُورِ الدِّينِ
وَنَابَ بِصَرْخَدَ ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ٥٥٥ هـ . أَنْظَرَ تَرْجَمَتَهُ فِي : (الْمَرْجِعُ السَّابِقُ) وَ (ابْنُ الْقَلَانِسِيِّ :
الْقَبِيلُ ٥ ص ٣٥٩) وَ (الرُّوضَتَيْنِ ، ج ١ ، ص ١٢٣) .

(٢) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَفِي : (النِّبْمِيُّ : الْمَرْجِعُ السَّابِقُ ، ص ٤٥٢) : « صَرْخِكُ »
وَلَمْ يَسْتَطِعِ النَّاشِرُ ضَبْطَ الْأَسْمِ .

(٣) كَذَا فِي الْأَصْلِ وَلَمْ يَسْتَطِعِ النَّاشِرُ ضَبْطَ الْأَسْمِ .

(٤) هُوَ نَعْرَةَ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ زَنْكِيِّ ، وَيُقَالُ لَهُ أَيْضاً « أَمِيرُ مِيرَانَ » .

(٥) فِي الْأَصْلِ : « أَخِيهِ » .

إلى حلب مجدداً ، فإن كان نور الدين حياً خدمته في هذا الوقت ، وإن كان قد مات فأنا في دمشق تفعل ما تريد من تملكها ، فماد إلى حلب مجدداً وصعد القلعة ، وأجلس نور الدين في شباك يراه الناس ، وكلهم فلما رأوه حياً تفرقوا عن أخيه أمير أميران ، فسار إلى حران فملكها ، فلما عوفي نور الدين قصد حران فهرب أخوه أمير أميران وترك أولاده بالقلعة ، فملكها نور الدين وسلمها إلى الأمير زين الدين علي كوجك بن بكتكين — صاحب إربل ونائب أخيه قطب الدين مودود ابن زنكي بالموصل — .

ثم سار نور الدين إلى الرقة ، وبها أولاد أميرك الجاندار ، وهو من أعيان الأمراء العمانية ، وكان قد توفي وبقي أولاده ، فشنع فيهم جماعة من الأمراء ، فغضب ، وقال : « هلا شفعم (١) في أولاد أخي لما أخذت منهم حران ، وكانت الشفاعة فيهم من أحب الأشياء إلى » ، ولم يشفعهم وأخذها منهم .

ذكر وفاة المقتفي (٢) لأمر الله وسيرته

قد ذكرنا خلع السلطان مسعود للراشد بالله ، وإقامة المقتفي لأمر الله للخلافة ، ولما تولى الخلافة أحسن السيرة ولم يتعرض لمحاربة أحد ، ولا لتجنيد أجناد ، حسب ما اشترطه السلطان مسعود عليه ، ثم راسله السلطان ليتصل بأخته فاطمة بنت محمد بن ملكشاه ، فأجابه إلى ذلك ، وعقد العقد بدار الخلافة على صداق مبلغه مائة ألف دينار ، ثم حملت الجهة من همدان إلى بغداد ، وصحبتها قاضي القضاة ،

(١) في الأصل : « تشفموا » والتصحيح عن : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٩٥) .
(٢) انظر ترجمته في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٩٧) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٩٦) و (سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥) و (ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٣٢) و (السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٠ — ٢٩٣) .

واستوزر المقتنى يحيى بن هُبَيْرَةَ ، فأقام حشمة الدولة ، ثم توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بباب همدان يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، فاضطربت الدولة السلجوقية بموته ، وكثر الخلف بين ملوكها ، فحينئذ تفرد الخليفة المقتنى لأمر الله بأمر العراق ، وطرد عنه نواب السلجوقية ، وبني سور بغداد ، وجنّد الجنود ، وجمع العساكر ، وقام وزيره [٨٠] عون الدين أبو المظفر يحيى بن هُبَيْرَةَ بأعباء مملكته حق القيام ، فقصد بغداد السلطان محمد شاه ابن محمود بن ملكشاه طالبا من الخليفة أن يخطب له بالسلطنة ، فامتنع الخليفة من ذلك فجمع السلطان الجموع من الأطراف ، واستعان بالأمير قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكى — صاحب الموصل — ، فسير إليه عسكريا مقدمهم زين الدين على كُوجَك بن بكتكين صاحب إربل ، فنازل السلطان محمد شاه بغداد من يوم السبت ثانى عشر المحرم سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة إلى يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول من هذه السنة ، ونصب على بغداد المنجنيقات والسلام ، فلم ينل غرضا ، وظهر من الخليفة المقتنى لأمر الله من الشجاعة والثبات وبذل العطاء مالا مزيد عليه ، ولما طال الحصار ولم ينل السلطان محمد شاه غرضا رحل عن بغداد خائبا ، واتفقت وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه — عم القوم — صاحب خراسان ، وكانت الخطبة مستمرة له ببغداد ، فقوى أمر الخليفة بالعراق ، وقامت حشمة الدولة العباسية ، ورجعت إلى أحسن ما كانت عليه ، وكان المقتنى لأمر الله فاضلا حسن العقيدة ، وله شعر حسن من جملته :

قالت أحبك ، قلت : كاذبة ، غُرِّيَ بذا منّ ليس يفتقدُ
لو قلت لي : أشناك ، قلت : أجل ، الشيخُ ليس يجبه أحدُ

ورُوي أنه وقف يوماً على ظاهر مشهد علي بن أبي طالب — رضى الله عنه — بالنجف ، وكان قد عزم على الدخول إليه لزيارته ، فمنعه وزيره عون الدين بن هُبَيْرَة (١) من ذلك ، وصدفه عنه بأقوال قالماله ، فتمثل المقتفى بأبيات منجم بن نويرة ، وأشار إلى جهة القبر ، وهو واقف خارج سور المشهد :

لقد لامني عند القبور على البكا رفيق لي لتذراف (٢) الدموع السوافك
وقال : أتبكي كل قبر رأيت لقبر نوى بين اللوى (٣) فالد كادك ؟
أمن أجل ميت واحد أنت نائح على كل قبر أو على كل هالك
فقلت له : إن الأسي يبعث الأسي ، ذروني ، فهذا كله قبر مالك

ثم قال مشيراً بأصبعه إلى القبر : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، [٨١] اللهم أنت قلت وقولك الحق : « وأتوا البيوت من أبوابها » ، وهذا باب من أبوابك ، اللهم فاغفر لي به كل خطية ، واقض لي به كل حاجة ، وأكفني بركة كل منهم ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » ، وانصرف . وكانت وفاة المقتفى لأمر الله يوم الأحد ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسة ، وكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة ، وثلاثة أشهر ، واثنين (٤) وعشرين يوماً ، وعمره ست وستون سنة .

(١) هو عون الدين أبو الظفر بجي بن هبيرة ، توفى سنة ٥٦٠ هـ ، انظر ترجمته في : (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٧٦ — ٢٧٩)
(٢) في الأصل : « بتذراف » .
(٣) في الأصل : « بين الثرى والدكادك » .
(٤) في (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٩٦) و (ابن الجوزي : المرجع السابق) : « وستة عشر يوماً » .

ذكر بيعة المستنجد بالله

وفي هذا اليوم يبيع ببغداد للخليفة المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المظفر ،
بنص من أبيه عليه ، وبإيعامه عمومته وبنو عمه ، وأقرّ الوزير عون الدين أبا المظفر
يحيى بن هبيرة على وزارته ، وكان له معظماً مكرماً لأن والده أوصى إليه بذلك ، وبلغ
من تقريبه أن بعضهم حكى ، قال : « دخلت الدار فوجدت الخليفة المستنجد بالله ،
وبين يديه وزيره يحيى بن هبيرة ، والخليفة ينشده شعراً لنفسه يمدح به وزيره . وهو :

صَفَّتْ نُعْمَتَانِ ، خَصَّتَاكَ وَعَمَّتَا ، قَدِ كَرُمَا حَتَّى الْقِيَامَةِ يُذَكَّرُ : (١)
وَجُودُكَ وَالدُّنْيَا إِلَيْكَ قَتِيرَةٌ ، وَجُودُكَ وَالْمَعْرُوفُ فِي النَّاسِ يُشْكَرُ
قُلُوبُ رَامٍ يَا يَحْيَى مَقَامَكَ جَعْفَرُ وَيَحْيَى لِكِفَا عَنْهُ يَحْيَى وَجَعْفَرُ
وَلَمْ أَرَ مِنْ بَنِي لَكَ الشَّرَّ يَا أَبَا بَالٍ مُظَفَّرٌ إِلَّا كُنْتَ أَنْتَ الْمُظَفَّرُ

ذكر حصر نور الدين مدينة حارم

وفي سنة سبع وخمسين وخمسمائة جمع نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله —
العساكر وسار بهم إلى حارم ، فحصرها وجد في قتلها ، فامتنت عليه لخصانتها وكثرة
من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم ومقاتيلهم ، ولما علم الفرنج مناورة نور الدين حارم
جمعوا فارسهم ورجالهم واستعدوا وحشدوا ، وساروا نحوه ليرحلوه عنها ، فلما قاربوه
طلب منهم المصاف ، فلم يجيبوا إليه ، وراسلوه ، وتناظفوا معه الحال ، فلما رأى عجزه
عن أخذ الحصن وأنهم (٢) لا يجيبونه إلى المصاف عاد إلى بلاده .

(١) في (ابن الجوزي ، ج ١٠ ، ص ٢١٤) : « ينشر » .

(٢) في الأصل : « وأنه » .

ذكر هزيمة نور الدين من الفرنج

وفي سنة ثمانية وخمسين وخمسة [٨٢] جمع نور الدين — رحمه الله —
المساكر ، قتل بالبقية ، تحت حصن الأكراد ، عازماً على دخول بلادهم ، ومنازلة
اطرابلس ، فبينما الناس في بعض الأيام في خيامهم وإذا بصلبان الفرنج وراء الجبل
الذي عليه الحصن ، فكبسوا المسلمين ، ووضعوا فيهم السيف ، وأكثروا فيهم القتل
والأمر ، وقصدوا خيمة نور الدين محمود ، فخرج من ظهر خيمته عجلاً بغير قباء ، فركب
فرساً (١) هناك للنوبة ، ولسرعته ركبته وفي رجله الشبحة (٢) ، قتل إنسان
من الأكراد قطعها ، فنجا نور الدين ، وقتل الكردي ، فسأل نور الدين من بعد
ذلك عن مخافيه فأحسن إليهم جزاء الفعلة .

وكان أكثر القتل في السوق ، وسار نور الدين إلى حمص ، قتل ظاهرها ،
وأحضر ما يحتاج إليه من الخيام فنصبها على بحيرة قدس ، وكان الناس يظنون
أنه لا يقف دون حلب ، واجتمع إليه كل من نجا من المعركة ، وأرسل إلى دمشق ،
وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وجميع ما يحتاج إليه ، وفرق ذلك
على من سلم ، ومن قُتل أقر إقطاعه على أولاده ، ومن لم يكن له أولاد فعلى بعض
أهله ، فعاد المسكر (٣) في مدة قريبة كأنه لم يفقد منه أحد ، فرحه الله وقُدس
روحه ، وهكذا فلتكن الملوك .

(١) في الأصل : « فرس » .

(٢) كذا في الأصل ، وفي (الاسان) : « الشبحة العود » ، ولعل المقصود أن رجل
الفرس كانت لاتزال مربوطة إلى التود .

(٣) بعد هذا اللفظ في الأصل : « كأنه لم يفقد منه أحد » وقد حذفها الناشر لأنها
تكرار من الناسخ يخل بالمعنى .

ولما انهزم العسكر الإسلامي عن الفرنج — لعنهم الله — ظنوا أنهم لا يقوم لهم قائمة بعدها ، وصمموا على قصد حمص وأخذها ، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها ، قالوا : « لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا » ، وأكثر نور الدين من الخروج ، فذكر أنه قسم في يوم واحد مائتي ألف دينار سوى غيرها من الدواب والسلاح وتلخيام ، وتقدم إلى الديوان أن يحصروا الجند ، ويسألوا كل واحد عن الذي أخذ منهم ، فكلما ذكر شيئاً أعطوه عوضه ، فحضر بعض الجند وادعى شيئاً كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحاله ، فأرسلوا إلى نور الدين وأنها إليه القضية واستأذنوه في تحليفه على ما ادعاه ، فخرج الجواب : « لا تكذبوا عطاءنا ، فإنني أرجو الأجر والثواب [٨٣] على قليله وكثيره . »

ومن أحسن ما يؤثر عنه أنه قال له أصحابه : « إن لك في بلادك إدارات كثيرة ورسالات عظيمة للفتهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت الآن بها لكان أمثل » ، فنضب وقال : « والله إنني لا أرجو النصر إلا بأوائك ، فإنما ترزقون وتنصرون بضغائنكم ، كيف أقطع رسالات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ ، وأصرفها إن من لا يقاتل عني إلا إذا رأي ، بسهام قد تخطئ وتصيب ؟ ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم ، كيف أعطيه غيرهم ؟ » فسكتوا .

وراصات الفرنج نور الدين في معنى المهادنة ، فامتنع ، ففترقوا في بلادهم ، وفي هذه الواقعة يقول مذهب الدين بن أسعد الموصلی (١) المدرس بحمص قصيدة منها :

(١) هو أبو الفرج عبيد الله بن أسعد بن علي بن عيسى الموصلی الحمصي المعروف بابن الدهان . النقيب الشافعي الشاعر وينتسب بمذهب الدين ، توفي سنة ٥٥٩ هـ . ترجم له (ابن تفری بردی : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٦٥ — ٣٦٦) قال : « كان نصيحاً فقيهاً فاضلاً أديباً شاعراً غلب عليه الشعر واشتهر به ، وله ديوان صغير وكله جيد ، ورحل البلاد وهدح بمصر الوزير الصالح علاء الدين بن رزبك وغيره » ، أنظر أيضاً : (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٨) .

نظي^(١) المواضي وأطراف القنا الذيل
وكافل^(٢) لك كاف ما تحاوله
وما يعيبك ما نأوه^(٤) من سلب
وإنما أخذوا حيناً إلى خدع
واستيقظوا ، وأراد الله غفلتكم
قناً لقاً ، وقسى غير موترة
ما يصنع الليث — لاذاب ولا ظفر —
هلا وقد ركب الأسد المصور وقد
ضامن^(٣) لك ما حازوه من نقل
عز^(٢) وحزم^(٢) وبأس غير منتقل^(٣)
بالخل ، قد تؤسر الأسود بالخليل
إذ لم يكن لهم بالجيش من قبل
لينفذ القدر المحتوم في الأزل
والخليل عارية^(٥) ترعى مع الحمل
بما حوالبه : من عنبر ومن وعل
سلو الظبي تحت غابات من الأسل

ذكر مسير أسد الدين شيركوه الأول إلى مصر

ولما كانت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وصل أمير الجيوش أبو^(٦) شجاع شاور
ابن مجير السعدي إلى دمشق ، وذلك لست مضين من ربيع الأول ، مستنصراً بنور
الدين علي ضرغام بن سوار الملقب بالمنصور ، وكان تغلب على الوزارة وأخرج شاوراً
منها ، وقتل ولده طياً ، والخليفة يومئذ العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف
ابن أبي الميمون عبد المجيد [٨٤] الحافظ لدين الله . والحكم للوزراء ، من قهر

(١) في الأصل : « نظيا » .

(٢) في (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٨) : « وعزم » .

(٣) في المرجع السابق : « منتعل » .

(٤) في نفس المرجع : « ما حازوه » .

(٥) في (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٨) : « عازبة » .

(٦) في الأصل : « نصر بن شجاع ، وهو خطأ واضح ، واسمه بالكامل : « أبو شجاع

شاور بن مجير ابن نزار بن عشار بن شاس السعدي » انظر ترجمته في : (ابن خلكان :

الوفيات ج ٢ ، ص ١٥٦ — ١٦٠) .

بالسيف أخذها ، وانخافوا بمصر تحت قهرهم ، وكان الأمر كذلك من أيام المستنصر بالله معدي بن الظاهر .

وشرط شاور لنور الدين أنه إن سير معه العسكر ليقوى بهم على خصه ضرغام ، وينزع الوزارة منه ، أن يكون لنور الدين حصة من البلاد ، ويكون شاور متصرفا تحت أمره ونهيه واختياره ، فتردد نور الدين — رحمه الله — في إجابته ، فتارة يقوى عزمه على ذلك طلبا للزيادة في الملك وليقوى على عدو الدين ، فإن لم يكن له — رحمه الله — همة لإجادهم ، وتارة يثنى عزمه خوفا على العساكر من خطر الطريق بسبب توسط الفرنج بينه وبين الديار المصرية .

ثم إنه قوى عزمه ، وصم على إجابة شاور إلى ملتصقه ، واستخار الله سبحانه في ذلك ، فتقدم إلى أسد الدين بالتجهيز للمضي مع شاور ، واستصحب معه العساكر ، وسار وفي صحبته شاور ، وسار معها نور الدين إلى طرف بلاد الإسلام مما يلي بلاد الأفرنج في بقية العسكر ، ليشتغلهم عن التعرض لأسد الدين .

وكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين ، ثم طارق أسد الدين نور الدين ، وسار بمن معه إلى الديار المصرية ، وكانت الطريق إذ ذاك شرقي الكرك والشوبك ، على عقبة أيلة (١) إلى صدر (٢) وسويس ، ثم إلى البركة (٣) التي على باب القاهرة .

(١) مدينة على ساحل بحر القلزم وهي المعروفة اليوم باسم العقبة اختصاراً . انظر أخبارها في : (ياقوت : معجم البلدان) و (المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٩٨ — ٣٠٠) .
(٢) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها قلعة خراب بين القاهرة وأيلة .
(٣) هي بركة الجب ، وقد عرفها (المقرئى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٦٥ — ٢٦٧) بقوله : « هذه البركة في الجهة البحرية من القاهرة على نحو بريد منها ، عرفت أولاً بحج عميرة ، ثم قبل لها أرض الجب ، وعرفت اليوم ببركة الحجاج من أجل نزول حجاج البرية عند مسيرهم من القاهرة وعند عودهم .. إلخ » .

ولما قارب أسد الدين مصر خرج إلى لقائه ناصر الدين أخو الضرغام بساكر مصر ، فلقبهم ، فانهزم ناصر الدين وعاد إلى القاهرة مهزوما ، ووصل أسد الدين فنزل على القاهرة في أواخر جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسة ، فخرج الضرغام من القاهرة سلخ الشهر ، فأدرك وقتل عند مشهد السيدة نفيسة بنت الحسن ابن زيد بن الحسن بن علي — رضوان الله عليهم — ، وبقي مطروحا يومين ، ثم حمل ودُفن بالقرافة ، وقتل أخوه أيضاً .

وخلع على شاور خلع الوزارة في مستهل رجب من السنة المذكورة ، وأعيد إلى الوزارة وتمكن منها ، وأقام أسد الدين [٨٥] بظاهر القاهرة ، وغدر به شاور ، ورجع عما كان وافق نور الدين عليه ، وأرسل إليه يطلب منه الرجوع إلى الشام ، فامتنع أسد الدين ، وطلب منه ما وقع الاستقرار عليه ، فلم يجبه شاور ، فلما رأى أسد الدين إصرار شاور على الغدر ، وأرسل نوابه إلى مدينة بلبس ، فتسلوها ، وحكم على الأعمال الشرقية ، فأرسل شاور حينئذ إلى الفرنج يستمدهم ، وبخوفهم من نور الدين إن ملك الديار المصرية ما يطيب لهم معه مقام ، وكان الفرنج لما سمعوا بتوجه عساكر نور الدين إلى الديار المصرية قد خافوا خوفاً شديداً ، وأيقنوا بالهلاك ، وأن بلادهم تستأصل ، فلما وصلتهم رسل شاور يدعومهم إلى مساعدتهم سروراً بذلك ، وبأدروا إليه .

ذكر وصول الفرنج إلى الديار المصرية

ومحاصرتهم أسد الدين بلبس

فسارعوا إلى تلبية شاور ، وطعموا في الديار المصرية ، وتجهزوا — بعد وقوع الاتفاق بينهم وبين شاور — على مال كثير يحميهم إن رحلوا عسكر نور الدين عن البلاد .

ولما بلغ نور الدين — رحمه الله — توجّه الفرنج إلى مصر سار بالسكر إلى طرف بلادهم ليمتنعوا عن المسير ، فلم يمنعهم ذلك ، لعلمهم أن الخطر في تملك أسد الدين مصر أكثر ، فتركوا في بلادهم من يحفظها من نور الدين ، وتوجّه ملك القدس في بقية عساكره إلى ديار مصر ، واستعان بجمع كثير من الفرنج الذين كانوا قد وصلوا لزيارة البيت المقدس ، فلما قارب الفرنج مصر قصد أسد الدين شيركوه مدينة بلبليس وأقام بها هو وعسكره ، وتحصن بها ، واجتمعت العساكر المصرية والفرنج ، ونازلوا بلبليس وحصروها ، وحماها أسد الدين وعسكره ثلاثة شهور ، مع أن سورها من طين ، وليس لها خندق يحميها ، وجد في قتالهم بكرة وعشية ، فلم ينالوا منها غرضاً .

ذكر وقوع الصلح بين أسد الدين والمصريين والفرنج

فبينما هم يجتهدون في حصار بلبليس إذ أتاهم الجند بكثرة الفرنج على حارم ، وتلك [٨٦] نور الدين لها ، ومسيره بعد ذلك إلى بانياس لأخذها ، فمظم ذلك عليهم ، وخافوا على البلاد فراسلوا أسد الدين في الصلح وتسليم ما أخذه من البلاد إلى المصريين ، ففعل ذلك ، لأن الأقوات قلت عليه ، وعلم عجزه عن مقاومة الفريقين ، فصالحهم ، وخرج من بلبليس في ذي الحجة من هذه السنة ، فذكر من شجاعته وشهامته التي لم يسمع بمثلها أن أصحابه خرجوا بين يديه ، وخرج خلفهم ويده لث (١) حديد ، وهو يحمي ساقتهم ، والمسلمون من المصريين ، والفرنج ، ينظرون إليه ويتمجبون منه ، فأتاه إفرنجي من الغربا (٢) ، وقال : « أما تخاف

(١) لفظ فارسي ، وجمه « لتوت » ، ومعناه القدوم أو الناس الكبيرة . انظر :

(محيط المحيط) و (Dozy : Supp. Dict. Arab) .

(٢) يقصد أنه إفرنجي من الوافدين من أوروبا ، لا من الفرنج المستقرين في الشام .

أن يقدروا بك هؤلاء المصريون والفرنجة ، وقد أحاطوا بك وبأصحابك ، فلا يبقى منكم بقية . فقال أسد الدين : « لينهم ، لو فعلوا حتى كنت ترى ما أ فعل ، كنت والله أضع فيهم السيف ، فلا يُقتل منا رجل حتى يقتل رجلاً ، وحينئذ يقصدهم نور الدين وقد ضعفوا وفنيت شجعانهم ، فيملك بلادهم ، ويهلك من بقي منهم ، والله لو أطاعوني هؤلاء لخرجت إليكم أول يوم ، ولكنهم امتنعوا » ، فصلب الفرنجي على وجهه وقال : « كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في وصفك وخوفهم منك ، والآن قد عذرتناهم » .

ثم سار أسد الدين إلى الشام سالماً ، وكان الفرنج قد وضعوا له في الطريق رسداً ليأخذوه ، فعلم بذلك ، فعاد عن تلك الطريق ، ففي ذلك يقول عمارة بمدحه من قصيدة :
أَخَذْتُمْ عَلَى الْإِفْرَنْجِ كُلَّ ثَنِيَّةٍ وَقُلْتُمْ لِأَيْدِي الْخَيْلِ مُرَى عَلَى مُرَى
لَئِنْ نَصَبُوا فِي الْبَرِّ جِسْرًا فَإِنَّكُمْ عَبَرْتُمْ بِبَحْرٍ مِنْ حديدٍ عَلَى الْجِسْرِ (١)

ووصل أسد الدين إلى نور الدين ، وفي عود الوزارة إلى شاور بعد عزله عنها يقول عمارة بن علي اليميني ، بمدحه من قصيدة :

فَنصرتَ في الأولى بضربٍ (٢) زلزل الـ لأقدامٍ ، وهي شديدةُ الإقدامِ
ونصرتَ في الأخرى بضربٍ صادقٍ أضحى يطير به غرابُ الهامِ
[٨٧] أدركتَ ناراً ، وارتجتَ وزارةً نزعاً بسيفك من يدي خِرغامِ

وفي حصار بلبليس والانتصار على أسد الدين شيركوه ، يقول عمارة من قصيدة يمدح بها العاضد ووزيره شاور أولها :

إِنَّ السَّعَادَةَ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهَا وَاقْتَرَّ عَنْ نَفْسِ الْهَنَا أَلْوَانُهَا

(١) ورد هذان البيتان في : (عمارة : النكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية ، ج ١ ، ص ٨٠) .

(٢) في (المرجع السابق ، ص ٨٩) : « برعب » . وهناك آيات كثيرة أخرى هي بقية القصيدة .

واقفك أول عامها بمسرة
مجدداً بنى عبد المجيد فإنكم
كم آية رويت ، لكم أسرارها
وَهَبِ الخِلافةَ شاركوكم في اسمها
فكأنما تأويلكم أرواحها
نظقتُ بآية نصركم من شيركوه (١)
أخبرتمونا عنه قبل مجيئه
وكانت علم الحاديات (٢) وديعة
تأني الأمور وقد سطرتم ذكرها

ومنها (٣) في مدح شاور :

ولقد دُفعت إلى ثلاث (٤) نوايب
فِعصَابَةٌ غُزِيَّةٌ غادرتها
وعصابة روميَّةٌ عاشرتها
وعصابةٌ مصريَّةٌ بك (٥) أصبحت
خلَّصت كلَّ قبيلةٍ من ضئها
أشبهت نوحاً مدةً وهدايةً
كادت تشيب لهولها ولذاتها
وأجلُّ ما ترجوه منك أمانها
فتأدبت وتهذبت أذهانها
فوق البرية راجعاً مبرأها
لما التوت وتعمدت عقداها (٦)
في أمةٍ متزايدٍ طغيانها

(١) في الأصل : « في شيركو » والتصحيح عن : (ديوان عماره ، ص ٣٦٨) .

(٢) في الديوان : « الكائنات » .

(٣) بهذا اللفظ يتقابل النص مرة أخرى مع نسخة من أول (ص ١٢٧) .

(٤) في س (ص ١٢٧) : « نك » بدون نقط والتصحيح عن : (ديوان عماره ،

ص ٣٦٩) .

(٥) في س (ص ١٢٧) « نك » .

(٦) في : (عماره : النكت المصرية ، ج ١ ، ص ٨٣) : « اشطانها » .

وتداركت بلبيس منك عواطف^١ يسع الزمان وأهله غفرائها
 [٨٨] أقسمت لولا حسن رأيك لاغتدى إلى ناقوس في بلبيس وهو أذائها
 بلد لو انهدمت قواعد^١ سورة (١) بيد النصارى لم يُعد بنيائها
 ومنها في عود الوزارة إليه :

كانت وزارتك القديمة مشرعاً صفاً ، ولكن كُدرت غُدرائها
 غصبت رجال تاجه وسريه من بعد ما سجدت له تيجانها
 أخلى لم (٢) دنت الوزارة عالماً أن سوف يتزغ بينهم شيطانها (٢)
 قد كان أودع (٣) في الرقاب صنائماً كُفرت به ، فأبادهما (٤) كُفرائها

ذكر فتح حارم وكسر الفرنج

لما قصد الفرنج ديار مصر — كما تقدم ذكره — أراد نور الدين — رحمه الله —
 قصد بلاد الفرنج ليعودوا عن مصر ، فاستعد للجهاد ، وكتب أخاه قطب الدين مودود
 ابن عماد الدين زنكي — صاحب الموصل — وقرأ أرسلان (٥) بن داود بن سقمان بن
 أرتق — صاحب حصن كيفا والديار الجزيرية — ، ونجم الدين ألب أرسلان بن تمرناش
 ابن إيلغازي بن أرتق — صاحب مardin — وأصحاب الأطراف يدعوم إلى مساعدته
 على الجهاد ، فجمع قطب الدين مودود عساكره وسار إلى نجدة أخيه ، وأما فخر الدين

(١) في س : « سورها » .

(٢) في س : « احلام » « وبسطانها » .

(٣) في س : « أصنع » .

(٤) في الأصل : « فأرداها به » ، والتصحيح عن : (المرجع السابق ، ص ٨٤) .
 واقى رواه المؤلف هنا أبيات مختارة ، والتصيدة في (الديوان) و (النكت) أكثر أبياتاً ،
 فانظرها هناك .

(٥) في الأصل : « قرأ أرسلان » ، وما هنا عن : س (ص ١٢٧)

صاحب الحصن فقال له ندماءؤه وخواصه : « على أى شئ عزمت (١) ؟ » فقال :
« على القعود ؛ فإن نور الدين قد تحشف (٢) من كثرة الصوم والصلاة ، فهو كل يوم
يلقى نفسه في وقعة ، والناس معه في المهالك » ؛ فواقته أصحابه على هذا الرأي ؛
فلما كان الغد أمر أصحابه بالتجهز للغزاة ، فقال له أصحابه : « ما عدا مما (٣) بدا ؟
فارقناك بالأمس على حال ونرى منك اليوم على (٤) ضدها » ؛ فقال : « اعلموا
أن نور الدين قد سلك معي طريقا إن لم أنجده خرج أهل بلادى عن طاعتي ، وأخرج
البلاد عن يدي ، فإنه قد كاتب زهادها وعبادها يذكر لهم ما لقي المسلمون (٥)
من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر ، ويستمدم الدعاء ، وطلب منهم أن يبحثوا
المسلمين على الغزاة ؛ [٨٩] وقد قعد (٦) كل واحد منهم ومعه أصحابه وأتباعه
يقرأون كتب نور الدين ويبيكون ، ويلمنوني ويدعون على ، ولا بد من السير
إليه » ثم إنه تجهز وسار إليه .

وأما صاحب ماردین فإنه سیر إليه عسکرا [وكذلك سار إليه كل من كاتبه] (٧) ،
ولما اجتمعت العساكر عند نور الدين — رحمه الله — نازل حارم ونصب عليها
المجانيق ، فاجتمع من بقى في الساحل من الفرنج ، وجاءوا إليه في جموعهم ، ومعهم
بمئذ صاحب أنطاكية وابن جوسلين وغيرها ، وقصدوا نور الدين — رحمه الله —
فرحل عن حارم إلى أرتاح ، وطمع في أن يتبعوه فيتمكن منهم بيمدهم عن بلادهم

-
- (١) في س (٢٢ ب) : « قد عولت » .
 - (٢) في س : (٢٧ ب) : « تشف » .
 - (٣) في س : « فبا » .
 - (٤) في س : « الآن ضدها » .
 - (٥) في الأصل وفي (س) : « المسلمین » .
 - (٦) في س (س ٢٧ ب) : « مدممه » بدون نقط .
 - (٧) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (س ٢٧ ب) .

إذا لقوه ، فساروا ونزلوا على عَمِّ (١) ، ثم علموا عجزهم عن لقائه ، فعادوا إلى حارم ، فتبعهم نور الدين في عساكره ، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال ، فحمل الفرنج على مينة المسلمين — وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن — فانهزموا ، وتبعهم الفرنج ، فأبعدوا عن راجلهم ، فحينئذ عطف الأمير زين الدين على كُوجَك في عساكر الموصل على راجل الإفرنج فأفناهم قتلاً وأسرا ، فعادت خيالاتهم الذين ساقوا وراء المهزمين خوفاً على راجلهم ، فلما عادوا عاد المهزمون ، وحملوا على الإفرنج ، وأحرق المسلمون بهم من كل جانب ، واشتدت الحرب ، وقامت على ساق ، فتمت الهزيمة على الفرنج ، وأنزل الله سبحانه [وتعالى] نصره على المسلمين وأسر من الفرنج ما لا يُحَد ، ومن جملة الأسرى : صاحب أنطاكية ، والقومص صاحب طرابلس ، وابن جوسلين ، وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف [فارس وراجل (٢)] .

وسار نور الدين — رحمه الله — إلى حارم ، فقتلها لتسع بقين من رمضان من هذه السنة ، — أعنى سنة تسع وخمسين وخمسة — وأشار عليه أصحابه بالمسير إلى أنطاكية لملكها ، فخلوها من يحميها ويدفع عنها ، فامتنع ، وقال : « أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد حصار طويل ، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية فيسلموها إليه ، ومجاورة بيمند أحب إلينا من جوار ملك الروم » . ثم أطلق نور الدين بيمند صاحب أنطاكية على أن يحمل أموالاً كثيرة وأسرى من المسلمين أطلقهم .

(١) كذا في الأصل ، وهي في س (٢٧ ب) : « غم » ، وهم قرية من أعمال حارم وتقع في منتصف الطريق تقريبا بين حلب وأنطاكية ، انظر : (ياقوت : معجم البلدان) و (ابن الشحنة : تاريخ مملكة حلب ، ص ١٦٧) .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ص ١٢٨) .

وفي هذه السنة توفي جمال الدين محمد بن [٩٠] على الأصفهاني (١) وزير
قطب الدين مودود بن [عماد الدين (٢)] زنكي — صاحب الموصل — ، وكان عظيم
القدر جواداً حسن السيرة ؛ ولما توفي نُحِلَّ إلى مكة — حرمها الله تعالى — وطيف
بنته حول الكعبة المعظمة ، ثم حُلَّ إلى المدينة فُدْفِنَ بها في تربة بنيت له قريبا
من الحجرة المقدسة — على ساكنها [أفضل (٢)] الصلاة والسلام .

(٣) ذكر فتح بانياس

كانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسة — كما ذكرنا (٣) — ،
ولما فتح نور الدين — رحمه الله — حارم أذن للعساكر الموصاية والديار بكريّة بالعود
إلى بلادهم ، وأظهر أنه يقصد طبرية ، فجعل الفرنج همّهم حفظها ، فسار مُجِدًّا
إلى بانياس لعلمه بقلّة المانين لها ، فنازلها وضايقها ، ومعه أخوه الأمير نصر الدين
أمير أميران بن [عماد الدين (٤)] زنكي ، — [وكان قد عاد إلى خدمة أخيه نور الدين ،
وقد رضى عنه نور الدين وأعطاه ما أراد (٤)] — فأصابه سهم أهدى عينيه ،
فقال له نور الدين : « لو كشف لك عن الأجر الذي أعدّ لك لتميت ذهاب الأخرى . »
وجدّ — رحمه الله — في حصارها ، فحشد الفرنجُ وجمعوا ليمنعوه منها ، ففتحها
قبل أن يتكامل جمعهم ، وملك القلعة وملاها ذخائر ورجالا ، ثم عاد إلى دمشق ،
وكان في يده خاتم يسمى الجبل بفض ياقوت من أحسن الجواهر لكبره وحسنه ، فسقط
من يده في شعرا بانياس ، وهي كثيرة الأشجار ، ملتفة الأغصان ، فلما أبعدها

(١) انظر ترجمته في : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١١٥) .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن : س (ص ١٢٨) .

(٣) ما بين الرقبن غير موجود في س .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادات عن : س (ص ٢٨ ب) .

عن المكان الذي ضاع فيه [الخاتم (١)] علم به [نور الدين (١)] ، فأعاد بعض أصحابه في طلبه ، ودلّم على المكان الذي كان آخر علمه وعهده به ، فعادوا فوجدوه ، فقال بعض الشعراء بمدحه من قصيدة [أولها (١)] :

إِنْ يَمْتَرِي الشُّكَّاءُ فَيْكَ بِأَنْكَ ۖ ۖ سَهْدِي مُطْفِي (٢) جَمْرَةَ الدِّجَالِ
فلعودة الجبل الذي أضلته بالأمس بين غياظٍ وجبال
لم يُنْطِها إلا سلبان ، وقد نلتَ المنى (٣) بموشك (٤) الإعجال
زجر جرى لسرير مالك إنه كسريه عن كل جذع (٥) عال
فلو البحارُ السبعة استهويتهُ وأمرتهن (٦) ، قذفه في الحال

[قال : وفي سنة ستين وخمسة مائة مات الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ، ذكر القاضي شهاب الدين (٧) في تاريخه ، قال : كان الوزير ابن هبيرة عالماً ورعاً عفيفاً محباً لأهل العلم محسناً إليهم ، وزير الخليفتين] (٨) .

-
- (١) ما بين الحاصرتين زيادات عن : س (ص ٢٨ ب) .
(٢) في الأصل : « فتطى » وفي س (٢٨ ب) : « وتطى » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٠) .
(٣) في الروضتين : « الرقاء » ، وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١١٤) : « نبت الربا بموشك الإعجال » .
(٤) في الأصل وفي (س) : « بموسك » وما هنا من الروضتين .
(٥) في الأصل : « جد » وفي الروضتين : « جدر » ، وما هنا عن (س) .
(٦) في الأصل وفي (س) : « وأمرته لثذفته » ، والتصحيح عن الروضتين .
(٧) القاضي شهاب الدين هو شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي أبو شامة ، وتاريخه هو « كتاب الروضتين في أخبار الدولتين » . انظر ترجمة ابن هبيرة بهذا التاريخ (ج ١ ، ص ١٤١) .
(٨) ما بين الحاصرتين زيادة أضفناها عن س (ص ٢٨ ب) ، وبها تنهى الصفحة ويضطرب النص مرة أخرى في تلك النسخة ، وبالتالي تنقطع الصلة بينه وبين نص النسخة الأصلية (ك) .

[٩١] ذكر فتح حصن المنيطرة

وفي سنة إحدى وستين وخمسة فتح الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله — حصن المنيطرة ، وكان بيد الفرنج ، سار إليه جريدة ، وانتهز^(١) الفرصة فيه ، وجد في قتاله عنوة وقهراً ، وقتل من به ، وسبي^(٢) وغنم غنيمة كثيرة ، وذكر القاضي بهاء الدين بن شراد — رحمه الله — أن الواقعة كانت سنة اثنتين وستين وخمسة .

ذكر مسير أسد الدين شيركوه بن شاذي

المسير الثاني إلى مصر

وفي سنة اثنتين وستين وخمسة سبّر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله عليهما — أسد الدين شيركوه إلى مصر لملكها ، وذلك لما ثبت في نفسه من غدر شاور به ورجوعه عما كان وقع من العهد والاتفاق عليه ، وسبّر معه جمعاً من الأمراء ، فبلغت عدتهم ألفي فارس ، وذلك في شهر ربيع الأول من السنة ، وسار معه نور الدين إلى أطراف البلاد خوفاً من معرفة (كذا)^(٣) الافرنج .

(١) أمام هذا اللفظ بالهامش معناه باللغة اللاتينية : (captavit occasionem) ويبدو أن كاتبها واحد من المستشرقين الذين قرأوا هذه النسخة بمكتبة جامعة كامبردج .

(٢) في الأصل : « سبا » .

(٣) كذا في الأصل ، ولا يستقيم بها المعنى ، وصيغة (ابن الأثير) : « خوفاً من أحداث

يتجدد عليهم فيضف الاسلام » .

وكان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذي مع عمه
أسد الدين في هذه السفارة؛ وفي ذلك يقول عَرَقَلَة (١) الدمشقي بمدح صلاح الدين،
وجرى بملكه الفال، والفال موكل بالمنطق:

أقول والاتراكُ قد أزمعتُ مصر إلى حربِ الأعرابِ
ربُّ كما ملكتها يوسفُ ال صديقَ من أولادِ يعقوبِ
يملكها في عصرنا يوسفُ ال صادقُ من أولادِ أيوبِ
من لم يزل ضرباً هامِ العدي حقاً، وضرباً العرّاقيبِ

ثم سار أسد الدين — رحمه الله — إلى الديار المصرية (وترك بلاد الأفرنج
عن يمينه فوصل الديار المصرية) (٢)، وعبر النيل عند أطفيح (٣) بالجانب الغربي،
ونزل بالبلاد الجزية، وتصرف في البلاد، وأقام بها نيفاً وخمسين يوماً.

وأرسل شاور — وزير العاضد — يستنجد بالفرنج، فأتوه على الصعب والذلول،
وحملهم على ذلك أمران: أحدهما الطمع في تملك الديار المصرية، والثاني الخوف
من تملك الساكر النورية لها؛ وعلموا أنه إن ملكها نور الدين — رحمه الله —
واستضافها إلى [٩٢] البلاد الشامية لم يبق لهم بالبيت المقدس والشام مقام،
وأنه يستأصلهم وتصير بلادهم في وسط بلاده؛ ولما وصلوا مصر اجتمعوا بالساكر
المصرية وعبروا إلى الجانب الغربي.

(١) هو حسان بن نمير الكلبي أبو الندى الشاعر المعروف بمرقلة الدمشقي، كان شيخاً خليماً
أعور مطبوهاً لطيفاً ظريفاً، اختص بالسلطان صلاح الدين وله فيه مدائمه، توفي سنة ٥٦٧ هـ.
انظر: (ابن تفرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٦٤) و (سبط بن الجوزي:
مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٢٨٦—٢٨٧).

(٢) هذه الجملة كتبت في هامش الأصل وأشير إلى مكانها بالثن بلامه.

(٣) أطفيح حالياً قرية من قرى مركز الصف بمديرية الجيزة، وهي مدينة قديمة كانت
تسمى في العصر اليوناني «افروديتوبوايس». انظر: (مصاحفة الساحة: فهرس مواقع
الأمكنة) و (على مبارك: الخطط، ج ٨، ص ٧٧—٧٨).

ذكر واقعة البابين

وكان أسد الدين شيركوه قد سار بالعساكر في الصعيد إلى أن بلغ إلى مكان يعرف بالبابين^(١)، فسارت الفرنج والمصريون خلفه، فأدركوه به في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة؛ وكانت جواسيسه قد أخبروه بكثرة عدد الفرنج والمصريين وقوتهم؛ فجمع أصحابه واستشارهم، فكلمهم أشاروا عليه بعبور بحر النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالوا: «إن نحن انهزمنا فإلى من نلتجئ؟ وبمن نحتسئ؟ وكل من في هذه الديار من جندي وفلاح عدو لنا». فقام أمير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش — صاحب الشقيف — وكان شجاعا وقال: «من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملك، بل يكون في بيته مع امرأته، والله لن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة وبلاء نُعذر فيه ليأخذن أموالنا وما معنا من الإقطاع^(٢) والجامكية^(٣)، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منه من يوم خدمناه وإلى يومنا هذا، ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم، وتسلمون مثل مصر إلى الكفار». فقال أسد الدين: «هذا الرأي، وبه أعمل».

وقال ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب مثله؛ وكثر الموافقون، واجتمعت الكلمة على القتال، وأقاموا بمكانهم حتى وصل الفرنج والمصريون وهم على تعبيتهم، فجعل أسد الدين الأثقال في القلب، لا ليتكثر بها لأنه لا يمكنه تركها في مكان آخر خوفا من أن تنهب؛ وجعل صلاح الدين في القلب وقال له ولن معه: «إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب، فإذا حملوا عليكم

(١) قرية كانت تقع جنوب مدينة النيا.

(٢) هذا نص قيم له قائده عند دراسة نظام الإقطاع في عهد نور الدين وعند الأتابكة عموما.

(٣) الجامكية — والجمع جامكيات وجوامك — الراتب. انظر: (Dozy: Supp. Dict. Arab.)

فلا تصدقوهم القتال ، ولا تهلكوا أنفسكم ، واندفعوا من بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم » ، واختار هو من شجعان عسكره جمعا يثق بهم ، ويعرف [٩٣] صبرهم في الحرب ، ووقف بهم في الميمنة ، فما اصطفوا للحرب ، حمل الفرنج على القلب ، فقاتلهم من به قتالا يسيرا ، ثم انهزموا بين أيديهم غير متفرقين ، وتبعهم الفرنج ، وحينئذ حمل أسد الدين بن معه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج — الفارس والراجل — فهزمهم ، ووضع السيف فيهم ، وأثنى وأكثر من القتل والأسر .

فما عاد الفرنج من أثر المهزمين ، ورأوا عسكرهم مهزوما ، والأرض منهم قفرا انهزموا أيضاً ، ونصر الله المسلمين .

ذكر استيلاء أسد الدين شيركوه على الاسكندرية

ثم سار أسد الدين — رحمه الله — إلى ثغر الاسكندرية ، وجبى ما في طريقه من القرى ، ووصل إلى الاسكندرية ، فسلمها أهلها إليه — لميائهم إلى مذهب السنة وكرهتهم لرأى المصريين — ، فاستتاب بالاسكندرية ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعاد إلى الصعيد ، فملكه وجبا أمواله ، وأقام به حتى صام شهر رمضان .

ذكر محاصرة الفرنج لصلاح الدين يوسف بالاسكندرية

وعاد الفرنج والمصريون بعد الواقعة إلى القاهرة ، وأصلحوا عساكرهم ، وجمعوا ثم ساروا إلى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين ، واشتد الحصار وقتل الطعام بها ، فصبر أهلها على ذلك ، ولما بلغ ذلك أسد الدين سار من الصعيد إليهم ، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركان .

ذكر وقوع الصلح بين أسد الدين والفرنج والمصريين

ثم راسل المصريون والفرنج أسد الدين يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار ، فأجابهم إلى ذلك بشرط أن الفرنج لا يقيمون في البلاد ، ولا يملكون منها قرية واحدة ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام .

وتسلم المصريون الاسكندرية في منتصف شوال ، وعاد أسد الدين إلى دمشق لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة ، واستقر بين الفرنج والمصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها مع فرسانهم وبأيديهم ، ليمتنع نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم (١) ، ثم عاد الفرنج [٩٤] إلى بلادهم ، وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم .

وكان الكامل شجاع بن شاور قد أرسل إلى نور الدين مع بعض الأمراء ينهى محبته وولائه ، ويسأله الدخول في طاعته ، وضمن عن نفسه أنه يجمع بمصر الكلمة على طاعته ، وبذل له مالا يجمه كل سنة ، فأجابه إلى ذلك ، فحمل إلى نور الدين مالا جزيلا .

ذكر فتح صافيثا والعزيمة

وفي هذه السنة — أعني سنة اثنتين وستين وخمسمائة — سار قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكي إلى أخيه الملك العادل نور الدين محمود ، وجعا العساكر

(١) أضاف (ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٢٢) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٤٣) نصا آخر هاما من نصوص هذه المأهدة ، وهو : « ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار » .

ودخلا بلاد الفرنج ، فاجتازوا على حصن الأكراد (١) ، فأغاروا ونهبوا وسبوا ،
ونزلوا عرقة ، وحاصروا حلبة ، وأخذوها وخربوها ، وسارت المساكر إلى بلادهم
يميناً وشمالاً تُغير وتُخرب ، وفتحوا العزيمة وصافينا ، وعادوا إلى حصن ، فصاموا بها
رمضان ، ثم ساروا إلى بانياس ، وقصدوا حصن هونين ، فانهزم الفرنج عنه ، فأخربوه ،
فوصل إليه نور الدين من القد ، فهدم سورته جميعه ، وأراد الدخول إلى بيروت ،
فتجدد في المساكر خُلف أوجب التفريق ، وعاد قطب الدين إلى الموصل فأعطاه
نور الدين الرقة .

وفي هذه السنة حصى غازي بن حسان المتبجى بمنبج (٢) ، وكانت قد صارت له
بعد أبيه إقطاعاً من نور الدين ، فسير إليه عسكرياً فحصره ، وأخذها منه ، وأقطعها
أخاه قطب الدين ، فأعطاها ينال بن حسان ، فبقي فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين
سنة اثنتين وسبعين وخمسة .

وفيها توفي فخر الدين قرأ أرسلان (٣) بن داوود بن سُقمان بن أرتق — صاحب
حصن كيفا — وأكبر ديار بكر ، ولما اشتد مرضه أرسل إلى الملك العادل نور الدين
يقول له : « بيننا صحبة في جهاد الكفار ، أريد أن ترعى بها ولدي » ، ثم توفي

(١) حصن منبج على الجبل الذي يقابل حصن من جهة الغرب وهو جبل الجليل ، وذكر
(ياقوت) أن بعض أسراء الشام كان قد بقي في موضعه برجا وجبل فيه قوماً من الأكراد
طليعة بينه وبين الفرنج ، وأجرى لهم أرزاقاً ، فتدبروها بأهاليهم ثم خانوا على أنفسهم في غارة
لجّلوا يمحسونه إلى أن صار قلعة حصينة منعت الفرنج عن كثير من غاراتهم فنازلوه فباعه
الأكراد منهم ورجعوا إلى بلادهم وملكه الفرنج . ثم يقول : وبينه وبين حصن يوم . انظر

أيضاً : (G. Demombynes : *La Syrie a l'Époque des Mamelouks*. P. 112)

(٢) إحدى مدن العواصم ، وذكر (ياقوت) أنها مدينة كبيرة كان عليها سور مبني بالحجارة
بينها وبين القرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ .

(٣) ولي حكم حصن كيفا من سنة ٥٣٩ إلى سنة ٥٦٢ هـ . انظر : (Zambaur : Op.

فملك بعده ولده نور الدين (١) محمود بن قرا أرسلان ، فقام الملك العادل نور الدين بنصرته والنَّبَّ عنه ، فأراد قطب الدين مودود بن زنكي — صاحب الموصل — قصده ، فأرسل إليه أخوه نور الدين ومنعه ، وقال : « إن قصدته أو تعرضت إلى بلاده منعتك قهراً » ، فامتنع من قصده .

ذكر فراق الأمير زين الدين علي كوجك قطب الدين مودود ابن زنكي صاحب الموصل

[٩٥] كان زين الدين علي كوجك بن بكتكين هو النائب عن قطب الدين بالموصل والمتحكم في دولته ، وكانت بيده إربل ، وفيها بيته وأولاده وخزائنه ، وكانت أيضاً بيده شهرزور وجميع القلاع التي معها ، وجميع قلاع الهكارية ، ومنها قلعة العمادية ، وبلد الحميدية ، وتكريت ، وسنجار ، وحران ، فأصابه طرش وعمى في سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، فلما عزم على مفارقة الموصل إلى إربل سلم جميع ما كان بيده من الأعمال إلى قطب الدين ، وبقي معه إربل حسب ، وكان شجاعاً عادلاً حسن السيرة ميمون النقيبة ، لم ينهزم في حرب قط ، وكان كريماً كثير العطاء للجند ، ولما توجه إلى إربل توفي في هذه السنة ، وصارت إربل بعده لولده زين الدين ، ثم توفي على مرج عكا وهو في خدمة السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، فملكها بعده أخوه مظفر الدين كوكبوري إلى سنة ثلاثين وستمائة ، فملكها الخليفة المستنصر بالله ، وصارت نوابه فيها ، وملكها المستنصر بالله ، إلى أن ملكها التتر (٢) الملاعين حين ملكوا البلاد .

(١) ولي الحكم في حصن كيفا من سنة ٥٦٢ — ٥٨١ هـ . انظر المرجع السابق .
(٢) لهذا النص أهمية خاصة ، فهو يدل على أن المؤلف كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٥٦ هـ وهي السنة التي استولى فيها هولاء كوجك على بغداد وقتل الخليفة المستنصر ، ثم أرسل قائداً من قواده لمهاجمة إربل والاستيلاء عليها ؛ انظر : (دائرة المعارف الإسلامية — الترجمة العربية — ، مادة إربل ، وما بها من مراجع) .

ذكر استيلاء الملك العادل نور الدين على قلعة جعبر

كان السبب في تملك نور الدين لها أن صاحبها شهاب الدين مالك العقيلي نزل يتصيد فأخذه بنو كلب أسيراً ، فحملوه إلى نور الدين — رحمه الله — في رجب سنة ثلاث وستين وخمسة ، فاعتقله وأحسن إليه ، ورغبه في المال والإقطاع ليسلم إليه القلعة ، فلم يفعل ، فعدل إلى الشدة والعنف وتهده ، فلم يفعل ، فسير إليها نور الدين الأمير فخر الدين مسعود بن علي بن الزعفراني ، فحصرها مدة ، فلم يظفر بطائل ، فأمدم بعسكر ، وجعل على الجميع مجد الدين أبا بكر بن الداية ، فلم يحصل على غرض ، فأخذ صاحبها بطريق اللين ، وأشار عليه أن يأخذ عوضاً عنها ، فقبل ذلك ، وتسلمها ، وتسلم سرّوج وأعمالها ، والملاحه التي في بلد حلب ، وباب ، وبزاعة (١) ، وعشرين ألف دينار معجلة ، وكانت قلعة جعبر بيد هؤلاء القوم من حين سلمها إليهم جلال الدولة ملكشاه ، وقد ذكرناه في موضعه . وكان استيلاء نور الدين عليها سنة أربع وستين وخمسة .

ذكر مسير أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية

[٩٦] المسير الثالث

وكان السبب في ذلك أن الفرنج كانوا قد دخلوا ديار مصر مرتين ، واطلعوا على عورتها ، وكان لهم بالقاهرة شحنة ، وأبوابها مسلمة إليهم ، وبالقاهرة جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم ، فحكوا على المسلمين حكماً جائراً ، وركبهم بالاذى الشديد ، فلما رأوا تمكنهم من البلاد ، وأنه ليس بها راد ولا عن أخذها صاد كاتب

(١) جاء في (ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ١٧٢) أن « الباب » و « بزاعة » قريتان عظيمنتان بل مدينتان صغيرتان في كل واحدة منهما منبر وخطيب ، وهما من أعمال حلب ، أما الباب فهي أكثر عمارة من بزاعة .

الفرنج الذين بالقاهرة ملكهم بالشام المعروف بمرسي^(١)، وكان ذا شجاعة ومكر ودهاء، يستدعونه لتملكها، وأعلموه خلوها من الممانع، وهوتوا أمرها عليه، وكاتبه أيضاً جماعة من أعيان المصريين كانوا أعداء لشاور، منهم: ابن الخياط^(٢)، وابن قرجه^(٣)، فشاور الملك فرسان الفرنج وذوى الرأى منهم، فكل منهم أشار بقصدها وملكها، فقال لهم: «الرأى أنا لا نقصدها، فإنها طعمة لنا، وأموالها تساق إلينا، نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لتملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحها لا يسلموها إلينا، ويقاثلوننا دونها، وبمحامهم الخوف منا على تسليمها لنور الدين، ولئن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام». فلم يقبلوا قوله، وقالوا: «إنه لا مانع منها ولا محامى، وإلى أن يتجهز نور الدين ويسير إليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتعنى نور الدين السلامة». فوافقهم على كره، وتجهز للسفر، وأظهروا أنهم يريدون قصد حمص.

وسمع نور الدين بتجهيزهم فجمع عساكره، وتجهز للقائهم وتأهب، ثم سار الفرنج من عسقلان إلى الديار المصرية.

(١) هو «أمريك الأول Amalric I» ملك بيت القدس، وتسميه المراجع العربية «مرسى» أو «عمورى»، وقد ولى الملك بعد وفاة أخيه «بهوين الثالث Baldwin III» الذى لم يعقب. انظر: (Ranciman: A History of the Crusades. Vol. 2. The Kingdom of Jerusalem and the Frankish East. 1100 - 1187. PP. 362. ff).

(٢) هو يحيى بن الخياط، كان من قواد الدولة فى عهد وزارة الصالح طلائع بن رزيك، ثم أصبح من رجال شاور: بل أصبح استفسلار المساكين فى أول عهد شاور، ولكنه اختلف معه فى عهد وزارته الثانية وخرج عليه فى قوس يطلب الوزارة لنفسه، فأخضع حركته الكامل بن شاور. انظر: (عمارة، النكت المصرية، ص ٣٥ و ٦٩ و ٧٨ و ٣١٩ و ٣٤٨)، (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٢٦).

(٣) ورد ذكره فى (النكت المصرية ص ٤٩٥) عند الحديث عن المؤامرة الكبرى ضد صلاح الدين التى اشترك فيها عمارة، قال: «وكاتبوا سناناً صاحب الحبشية بأن الدعوة واحدة والسكامة واحدة... وكان الرسولون خاك ابن قرجه» أنظر أيضاً: (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٧٠).

ذكر منازلة الفرنج بلبيس وملكهم لها

فوصلوا إلى مدينة بلبيس فنازلوها وملكوها غرة صفر من هذه السنة — سنة أربع وستين وخمسة — قهّبوا أهلها ، وقتلوا وسبوا وأسروا ، ثم رحلوا عنها .

ذكر منازلة الفرنج القاهرة

ونازلوا القاهرة عاشر صفر وحصروها ، فامتنع أهل البلد واستحصنوا خوفاً أن تملكها [٩٧] الفرنج ، فسيروا فيهم سيرتهم في أهل بلبيس ، فقاتلوا ، وبذلوا الجهد في الحفظ .

ذكر إحراق مصر

وأمر شاور بإحراق مصر ، وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة ، وأن ينهب البلد ، فانتقلوا ، وبقوا على الطرق ، ونهب مصر ، وافتقر أهلها ، وذهبت أموالهم ونعمهم ، وذلك في تاسع صفر قبل نزول الفرنج على القاهرة بيوم واحد ، فبقيت النار تعمل في مصر أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر ، واشتد الأمر ، وعظم الخطب ، وضاق الحصار ، وخيف البوار ، وعلم شاور عجزه وضعفه ، وأن البلاد ذاهبة لا محالة ، فسلك طريق التملح ، وأرسل إلى ملك الإفرنج مُرّياً يذكر له مودته ومحبتة ، وأن هواه معه ، وتخوفه من نور الدين ، وأن المسلمين لا يوافقونه على التسليم ، ويشير بالصلح وأخذ مال ، لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين .

ذكر وقوع الصلح بين شاور والفرنج

فأجابه مُرّي إلى الصلح على ألف ألف دينار، يجعل البعض ويؤخر الباقي؛ ورأى الفرنج أن المصلحة في ذلك لتلا يتدارك نور الدين البلاد ويأخذها، فمَجَّل لهم شاور مائة ألف دينار، وماطل بالباقي خداعاً ومكرًا، وسبَّ الكتب إلى نور الدين مُسَوِّدَةً وفي طيها ذوائب نساء أهل القصر مجزوزة، وواصل الكتب إليه مستفزاً ومستنصراً، ويقول: «إن لم تبادر ذهبت البلاد»، وأرسلها مع نجابين — يتلو بعضهم بعضاً — وأقام منتظراً ما يرد عليه من نور الدين، وهو مع ذلك يدافع الفرنج ويماطلهم.

ووردت مكاتبة العاضد لدين الله إلى نور الدين في هذا المعنى، وبذل له — إن وصل — ثلث البلاد، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقبلاً عنده في عسكر، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين.

ولما وردت الرسل إلى نور الدين بذلك كان بحلب، فأرسل إلى أسد الدين شيركوه — وكان بحمص، وهي إقطاعه — يستدعيه، فلما خرج القاصد من حلب متوجهاً إلى أسد الدين وجده قد وصل إلى حلب، لأنه كان أيضاً قد أتته كتب المصريين يحثونه على سرعة الوصول إليهم، فلحرص أسد الدين على التجهيز إلى الديار المصرية سار من حمص إلى حلب، فوصلوا في ليلة واحدة، فأمره نور الدين بالتجهيز [٩٨] إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكّمه في العساكر والخزائن، فاختر من العسكر ألفي فارس، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس.

وندى الملك العادل نور الدين صلاح الدين أبا المظفر يوسف بن أيوب ابن شاذى أن يمضى مع عمه إلى الديار المصرية ، فكره ذلك صلاح الدين ، فروى عنه الفاضل بهاء الدين بن سراج — قاضى حلب رحمه الله — قال : لقد قال لى السلطان — يعنى صلاح الدين — « كنت أكره الناس فى الخروج فى هذه الواقعة ، وما خرجت مع عمى باختبارى » ، قال : وهذا منى قوله سبحانه « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

قال عز الدين بن الأثير — رحمه الله — فى تاريخه الطامل : « أحب نور الدين مسير صلاح الدين ، وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير ، وفيه سعاده وماكه » قال : « فلقد حكى لى صلاح الدين ، قال : لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين — رحمه الله — أحضرنى وأعلمنى الحال ، وقال : تمضى إلى عمك أسد الدين بمصر مع رسول إليه تأمره بالحضور ، وتمثته أنت على الإسراع ، فما يحتمل الأمر التأخير .

قال : ففعلت ، فلما فارت حلب ، على ميل منها ، لقيناه قادمًا فى هذا المعنى ، فقال له نور الدين : تجهز المسير ، فامتنع خوفًا من غدرهم أولاً وعدم ما ينفقه فى المساكر ثانياً ، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال ، وقال له : إن تأخرت عن المسير إلى مصر ، فالصاحبة تقتضى أن أسير أنا بنفسى إليها ، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ، ولا يبقى معهم مقام بالشام ولا غيره ، قال : فالتفت إلى عمى أسد الدين وقال : تجهز يا يوسف ، قال : فكأنما ضرب قلبى بسكين ، قلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق بها ما لا أنساه أبداً ، فقال عمى لنور الدين : لا بد من مسيره معى ، فترسم له ، فأمرنى نور الدين وأنا استقبله ، فانقضى المجلس ، ثم جمع أسد الدين المساكر

من التركان وغيرهم ، ولم يبق [٩٩] غير المسير ، فقال لى نور الدين : ولا بد من مسيرك مع عمك ، فشكوتُ إليه الضائقة وقلة الدواب وما احتاج إليه ، فأعطاني ما تجهزت به ، وكأنما أساق إلى الموت ؛ — وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لبيته ورحمته — ، فسرتُ معه . فلما توفي أعطاني الله من الملك ما كنت أتوقعه .

ثم سار نور الدين وأسد الدين من حلب إلى دمشق فوصلها صلح صفر ، ثم رحلا إلى رأس الماء ، وأنفق نور الدين لكل فارس عشرين ديناراً ، وأضاف إلى أسد الدين جماعة من الأمراء ، ومنهم ثملوكه عز الدين جورديك — وهو الذى لما توفي نور الدين كان نائباً عنه بقلمه حاة — ، والأمير غرس الدين قليج — والد الأمير سيف الدين وعماد الدين — ، وشرف الدين برغش ، وعين الدولة الباروقى ، وقطب الدين ينال بن حسان — صاحب منبج — ، وغيرهم .

ثم (١) سار أسد الدين شيركوه من رأس الماء منتصف ربيع الأول .

ذكر قدوم أسد الدين شيركوه مصر

ورحيل الفرنج عنها

ولما قرب أسد الدين — رحمه الله — من الديار المصرية رحل الفرنج عنها خائبين ، وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم ، لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، ووصلت الأخبار بذلك إلى نور الدين — رحمه الله — ، فأمر بضرب البشائر (٢) في البلاد الإسلامية ، فإنها كانت أجل الفتوح (٣) وأعظمها ، إذ لو استولى العدو — لعنه الله — على الديار المصرية لاستولى على سائر الخطة الإسلامية .

(١) بهذا اللفظ تبدأ (ص ١١٦) من نسخة س ، وبذلك تعود للمقارنة بين نصي النسختين .

(٢) في الأصل : « المشائر » وما هنا عن : س (ص ١١٦) .

(٣) في س : « الفتوحات » .

وكان وصول أسد الدين — رحمه الله — إلى القاهرة لأربع مضين من ربيع الآخرة من هذه السنة ، — أعني سنة أربع وستين وخمسمائة — ، ودخل إلى القصر ، واجتمع بالعاقد (١) لدين الله ، وخاع عليه ، وعاد إلى مخيمه بالخلعة العاضدية ، وفرح به أهل مصر ، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة .

ذكر مقتل شاور (٢)

وأقام شاور يتردد إلى أسد الدين شيركوه ، وكان قد وعده بمال في مقابلة ما خسره من النفقة ، فلم يوصل إليه شيئاً ، وقيل إنه ماطله في تقرير ما بذل (٣) له من المال والإقطاع [١٠٠] للمساكر ، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين ، وذكر أنه كان [شاور (٤)] قد عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ، ويقبض عليهم [فيها (٤)] ، قتهاه ابنه الكامل ، وقال : « والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفنَّ أسد الدين » . فقال أبوه : « والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً » ، قال : « صدقت ، ولئن نُقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نُقتل وقد ملكتها الفرنج ، وليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على [أسد الدين (٤)] شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاقد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ، ويملكون الفرنج البلاد » . فترك [شاور (٤)] ما كان عزم عليه واجتمع أسد الدين وأصحابه على الفتك بشاور لأنهم علموا أن الفرنج متى وجدوا فرصة

(١) في س : « بالخليفة العلوي العاقد » .

(٢) هذا العنوان غير موجود في س .

(٣) في س (ص ١١١٦) : « في الذي استقر بينهما من المال . . الخ » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س .

أخذوا البلاد ، وإن ترددم إليها في كل وقت لا يفيد ، وإن شاور يلعب بنا (١) تارة
وبالفرنج أخرى ، وإنيهم إن قتلوه واستولوا على البلاد حفظوها من عدو الدين ،
وقيل إن صلاح الدين وعز الدين جرديك اتفقا على ذلك ، وشاورا أسد الدين في ذلك ،
فتهاهما عنه ؛ وقيل إن أسد الدين سير الفقيه ضياء الدين عيسى (٢) إلى شاور يشير عليه
بالاحتراس (٣) ، وقال : « أخشى عليك ممن عندي من الناس » ؛ فركب شاور
منبسطاً على عادته واسترساله ، وكان يركب على قاعدة الوزراء بالطبل والبوق والعلم ،
وكان أسد الدين قد توجه لزيارة قبر الشافعي — رحمة الله عليه (٤) — بالقرافة (٥) ،
فقصده شاور مخيم أسد الدين ليجتمع به على العادة ، فصادفه صلاح الدين يوسف
ابن أيوب والامير عز الدين جرديك — رحمهم الله — ومعهم جمع من المعسكر ،
فقدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة ، فقال : « نمضي إليه » ، فسار — وهما

(١) في س : « بهم » .

(٢) هو الفقيه أبو محمد ضياء الدين عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري ، كان في مبدأ أمره
يشغل بالمدسة الزجاجية بحلب ، ثم اتصل بالأمير أسد الدين شيركوه فعينه إماماً له ، وأتى معه
إلى مصر وكانت لميسى اليد الكبرى في إقناع أمراء الجيش النوري بمصر لتولية صلاح الدين
الوزارة للعاقد بعد موت عمه أسد الدين ، وأصبح منذ ذلك الحين واحداً من كبار الأمراء
الصلاحية ، وكان عيسى فقيهاً وجندياً مجاهداً ، يلبس زي الأجناد ويعتم بهامة الفقهاء ، وقد أسره
الفرنج وبقي في الأسر إلى أن اقتداء صلاح الدين بمبلغ كبير من المال . وتوفي في ذي القعدة
سنة ٥٨٥ هـ . انظر : (ابن خلكان ، الوفيات ، ج ٣ ، ص ١٦٥ — ١٦٦) .

(٣) في س (١١٦ب) : « بالاحتراس على نفسه » .

(٤) في س : « رضى الله عنه » .

(٥) خطة من خطط الفسطاط الأولى كانت لبني غصن بن يوسف بن وائل من المفاخر ،
وقرافة بطن من المفاخر ، نزلوها عند الفتح فسميت بهم ، قال (ياقوت) : وهي اليوم مقبرة
أهل مصر وبها أبنية جديلة ومحال واسعة وسوق قائمة وشاهد لصالحين وترب الأكارم مثل
ابن طولون والاذراني وبها قبر الامام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي في مدرسة للفقهاء
الشافعية . وقد أصبح هذا اللفظ علماً يطلقه المصريون إلى اليوم على كل مقبرة لدفن الموتى في أي
مكان وفي أي مدينة من مدنها .

معه — قليلاً، فأخذ صلاح الدين بتلابيبه (١)، وأمر العسكر أن يقبضوا على أصحابه،
ففرّوا، ونهبهم العسكر، وألقى شاور عن فرسه، ولم يتمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين،
فذهبوا به إلى خيمة مفردة، فسجنوه بها، ووكل به من يحفظه بها، وعلم أسد الدين
الحال فعاد من القرافة مسرعاً، ولم يتمكنه إلا إتمام ما عملوه، وجاء رسول العاضد
لدين الله في الوقت، وهو أحد الخدم [١٠١] الخواص (٢)، ومعه (٣) توقيع
يتضمن: « [أنه (٤)] لا بد من [أخذ (٤)] رأسه »، جرياً على عاداتهم في وزرائهم،
في تقرير قاعدة من قوى منهم على صاحبه، فضرب عنقه وحمل رأسه إلى القصر،
وذلك سابع ربيع الآخر.

ودخل أسد الدين القاهرة، ورأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خاف منه
على نفسه، فقال لهم: « إن أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور »، فقصدوها
الناس قهيبوها، وتفرقوا عنه.

ذكر استيلاء أسد الدين شيركوه على الديار المصرية

وتقلده وزارة العاضد

ثم خلع العاضد على أسد الدين خلع الوزارة، فلبسها، وسار، ودخل القصر،
وفوضت إليه الوزارة والتقدم على الجيوش، ولُقِّبَ الملك المنصور أمير الجيوش؛

(١) كتب في هامش الأصل معنى هذه العبارة باللغة اللاتينية هكذا (Vestis quae
circa Jugutu)

(٢) إلى هنا تنهى (ص ١١٦ ب) من نسخة س، وبعدها يعود الاضطراب في ترتيب
الصلحات.

(٣) بهذا اللفظ تبدأ (ص ١٢٩) من نسخة س.

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن س.

وقصد دار الوزارة (١) قنزلها ، واستقر في الأمر ، ولم يبق له منازع ولا منازي
وكتب له منشور بالإنشاء الفاضلي أوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله وولَّيه [عبد الله (٢)] [أبي محمد الإمام
العاقد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش
ولي الأئمة ، مجير الأمة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ،
أبي الحرث شيركوه — العاضدي — عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه
أمير المؤمنين ، وأدام قدرته ، وأعلى كلمته : سلام عليك ، فإنه بحمد (٣) إليك الله
الذي لا إله إلا هو ، ويسأله (٣) أن يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين
[صلى الله عليه (٢)] وعلى آله الطاهرين ، والأئمة المهديين ، وسلم تسليماً
[كثيراً (٢)] . »

ثم مضمون بقية (٤) المنشور تفويض أمور الخلافة إليه ، والقيام بأعباء حفظها ،
والذب عنها ، والتوصية بتقوى الله تعالى ، والعمل بفرائضه ، والانهاء عن مناهيه ،
وإلى غير ذلك من الوصايا ، أعرضنا عن ذكرها لطولها .

(١) ذكر المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٠١ — ٣٠٤) أن هذه الدار أنشأها الأفضل
شاهنشاه بن بدر الجمالي ، ولهذا كان يقال لها أيضاً الدار الأفضلية ، وكانت تقوم بجوار القصر
الكبير الشرق تجاه رجة باب العبد ، وما زال وزراء الفاطميين أرباب السيوف من عهد الأفضل
يسكنون بدار الوزارة إلى أن زالت الدولة فاستقر بها تلك الناصر صلاح الدين ثم من تلاه
من ملوك الأيوبيين وصاروا يسمونها الدار السلطانية ، وأول من انتقل عنها وسكن بالقلمة
الملك الكامل محمد ، وجعلت منذ ذلك الحين منزلاً لضباط الرسل .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن : (صبح الأعشى ج ١٠ ، ص ٨٠) .

(٣) في س (١١٢٩) : « فاني أحمد » ، « نسأله » .

(٤) ورد نص هذا المنشور كاملاً في : (صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٨٠ — ٩٠)
فراجع هناك ، وانظر أيضاً نفس المرجع ، ص ٦ ؛ (ابن الحنبلي : شفاء القلوب ، ص

وكتب العاضد في هذا (١) المنشور بخطه :

« هذا عهد لم يُعهد لوزير مثله ، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لملها (٢) ،
والحجة عليك . عند الله ، بما (٣) أوضحه لك من مرشد سبيله (٤) ، فخذ كتاب
أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزّت خدمتك إلى بنوة النبوة ،
واتخذ (٥) للفوز سبيلاً ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها [١٠٢] وقد جعلتم
الله عليكم كفيلاً (٦) . »

ولما انتظمت الأمور لاسد الدين بالديار المصرية أقطع البلاد للمساكر التي (٧)
قدمت معه ، وصلاح الدين — رحمه الله — ابن أخيه ، مباشر الأمور مقرر لها ،
وبيده زمام الأمر والنهي .

ومدح الشعراء أسد الدين ، فمن مدحه عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد (٨)
الأصفهاني الكاتب من قصيدة سيرها إليه من الشام ، وهو في خدمة نور الدين
— رحمه الله — :

بالبجد أدركت ما أدركت لا اللب كم واحترُجيت من دوحة التنب

(١) في س : « في طرة » وقد ورد نص هذا التوقيع في : (صبح الأعيان ج ٩ ،
ص ٤٠٦ — ٤٠٧)

(٢) النص في : (القلقشندي : صبح الأعيان ، ج ٩ ، ص ٤٠٦) هو : « وتقليد أمانة
رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلاً لملها » .

(٣) في الاصل : « وبما » والتصحيح عن : (س) و (صبح الأعيان) .

(٤) في س : « سبيله » .

(٥) في : (صبح الأعيان ، ج ٩ ، ص ٤٠٧) « واتخذ أمير المؤمنين » .

(٦) السورة ١٦ (النحل) ، الآية ٩١ (ك) .

(٧) في الأصل : « الذي » .

(٨) انظر ترجمته في : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٢٣٣ — ٢٣٨) و (الصفيدي :

الوفاء بالوفيات ، ج ١ ، ص ١٣٢ — ١٤٠) و (النيمي : العراس في تاريخ المدارس ،

ج ١ ، ص ٤٠٨ — ٤١٢) و (مقدمة خريدة النصر للمهاد ، الجزء الأول من القسم الأول

— شعراء مصر — نشر أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس) .

نادى فعرف خير ابن بخير أب
من المدى في العلى ما حُزّت بالخَبِيبِ
عنها الملوك فطالت سائر الرُتَبِ
ميسراً فتح بيت القنص عن كَتَبِ
فتح البلاد ، فبادر نحوها وثب
والدين من عزيمه في جعل لبب
والقلب في شجن ، والنفس في شجب
حمر المنايا بها مرفوعة الحُجَبِ
أرى سلامتها من أعجب العَجَبِ (٢)
في شكرنا ما به الإسلام عنك (٣) حبي
فقت فيهم مقام الوالد الحبيب
بما دهام ، فقد باتوا على نذب
وكم قضيت لحزب الله من أرب
إسلام حتى سعوا للقصد والطلب
في الحشر من أفضل الطاعات والقرب
لما دعا الشرك : هذا قد تعزز بي
إلا لنيل رضا الرحمن بالنضب
وفي ذويه وقوع النار في الحطب
نصرت نصر رسول الله بالرعب

ياشركوه بن شاذي الملك دعوة من
جري الملوك ، وما جازوا بركضهم
تمل من ملك مصر رتبة قصر
فتحت مصر ، وأرجو أن تصير بها
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من
أنت الذي هو فرد من بسالته ،
في حلق ذي الشرك من عدوى سطاك شجاء ،
زارت بني الأصفر البيض التي لقيت
وإنها نقد (١) من خلفها أسد
لقد رفعتنا إلى الرحمن أيدينا
يشكو (٤) إليك بنو الإسلام يتمهم
في كل دار من الأفرنج نادبة
من شر شاور أتقت العباد ، فكم
هو الذي أطمع الأفرنج في بلد ال
وإن ذلك عند الله محتسب
[١٠٣] أذله الملك المنصور منتصراً ،
وما غضبت لدين الله منتقماً
وأنت من وقعت في الكفر هيبته
وحين سرت إلى الكفار فانهزموا

(١) النقد جنس من الغنم تصار الأرجل قباح الوجوه تكون بالبحرين ، وقيل هي غنم
صغار حجازية ، (السان) .

(٢) بهذا اللفظ تنتهي (ص ٢٩ ب) من نسخة ص ، ثم يضطرب بعد ذلك ترتيب الصفحات
في تلك النسخة وبالتالي تنقطع الصلة بين النسخ هناك وبين المتن هنا (نسخة ك) .

(٣) في (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٩) : « منك » .

(٤) نص الروضتين : « شكاً » .

يا محبي الأمة الهادي بدعوته
لما سميت لوجه الله مرتقباً
أعدت نعمة مصر نعمة ، ففدت
أركبت رأس سنان رأس ظالمها
رد الخلافة عباسية ، ودع ال
لا تقطن ذنب الأفعى وترساها ،
للرشد كل غوى منهم وغبي
نوابه ، نلت عفوا كل مرتقب
تقول لكم نكت (١) الله في التوب
عدلا ، وكنت لوزر غير مرتكب
دعي فيها يصادف شر منقلب
فالجزم عندي : قطع الرأس والذنب .

وفي قتل شاور وتولى أسد الدين الوزارة يقول عرقلة الدمشقي الشاعر وبماح
صلاح الدين يوسف بن أيوب وأخاه الملك العادل سيف الدين أبابكر بن أيوب من قصيدة :
لقد فاز بالملك العقيم خليفة
كان ابن شاذي والصلاح وسيفه
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه ،
بني وطني ، حتى لقد قال صحبه (٣)
فلا رحم الرحمن تربة قبره
له شيركوه العاضد وزير
علي ، لديه شبر وشبير (٢)
وشاور كلب للرجال عقور
على مثلها كان اللعين يدور
ولا زال فيها منكر ونكير

ذكر وفاة أسد الدين شيركوه بن شاذي - رحمه الله -

ذكر القاضي بهاء الدين بن شراذم - رحمه الله - في تاريخه أن أسد الدين
كان كثير الأكل شديد المواظبة على اللحوم الغليظة ، تتوار عليه التخم والخوانيق ،
وينجو منها بعد معاناة شديدة عظيمة ، فأخذه مرض شديد واعتراه خنوق (٤) عظيم

(١) كذا في الأصل ، ولعلها : كم من .

(٢) شبر وشبير اسمان للحسن والحسين ولدى علي بن أبي طالب ، فقد جاء في (اللسان) :
شبر وشبير ومشبر م أولاد هارون علي نبينا وعليه الصلاة والسلام ، ومعناها بالعربية : حسن
وحسين ومحسن ، وبها سمي علي أولاده شبر وشبير ومشبر يعني حسنا وحسينا ومعنا .

(٣) النس في (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٧) : « قائل » .

(٤) الخناق أن يحدث في البلع ضيق ، يقال له خوانيق ، وهو مخنوق . (الخوارزمي :

مفاتيح العلوم ، ص ٩٧) .

فقتله ؛ وقيل بل توفي فجأة ، وكانت وفاته يوم السبت [١٠٤] لثمان بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة — سنة أربع وستين وخمسةائة — فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام .

ذكر استيلاء صلاح الدين يوسف بن أيوب — رحمه الله — على الديار المصرية ، وتقلده وزارة العاضد .

ذكر القاضي بهاء الدين أن الوصية كانت إليه من عمه أسد الدين ، وأنه لما فُوض إليه الأمر تاب عن شرب الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص لباس الجد والاجتهاد ، وما عاد وما زاد إلا جدًّا إلى أن توفاه الله إلى رحمته .

قال : « ولقد سمعته — رحمه الله — يقول : لما يسر الله تعالى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل ، لأنه أوقع ذلك في نفسي » .

وذكر عن بهاء الدين أنه لما توفي أسد الدين كان بمصر جماعة من أكابر الأمراء النورية ، منهم : عين الدولة الياروقى (١) ، وقطب الدين خسرو بن التليل ، — وهو ابن أخى ابن أبى الهيجا الهذبانى صاحب إربل وقد ذكرناه — وسيف الدين على بن أحمد المشطوب ، — وكان جده صاحب قلاع المكارية — وشهاب الدين الحارمى — خال صلاح الدين — ، وكل منهم تطاول إلى الأمر ورام التقدم ، فأرسل العاضد من القصر يستدعى صلاح الدين ليخاع عليه ويوليه الوزارة ، وكان الذى حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين ، وعلم أنه إذا ولى وليس له عسكر ولا رجال كان تحت يده وحكمه ، ولا يجسر على المخالفة ؛ وأنه يضع على الصكر الشامى من يستميلهم إليه ، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين ، وتعود البلاد

(١) لعل النسبة هنا إلى « الياروقية » وهى محلة بظاهر حلب . أنظر : (الروضتين .

إليه ، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين ، فامتنع صلاح الدين ،
وضعت نفسه عن هذا المقام ، فألزم به ، وأحضر إلى القصر ، وخلعت عليه
خلع (١) الوزارة ، ولُقّب الملك الناصر ، وعاد إلى دار الوزارة ، وهي الدار التي كان
يقيم عنده ، فلم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء ولا خدموه ، فقام بأمره الفقيه
ضياء الدين عيسى الهكاري ، وما زال بسيف الدين علي بن أحمد المشطوب حتى أماله
إليه ، وقال : « إن هذا الأمر لا يصل إليك مع (٢) وجود عين الدولة وشهاب الدين
الحارمي وابن تليل » ، ثم قصد به شهاب الدين وقال : « إن هذا صلاح الدين
هو ابن أختك ، وملكه لك ، وقد استقام الأمر له ، فلا تكن أول من يسعى
[١٠٥] في إخراجه عنه ، فلا يصل إليك » ، ولم يزل به حتى استحلفه له .

واجتمع بعد ذلك بقطب الدين وقال له : « إن صلاح الدين قد أطاعه الناس
ولم يبق غيرك وغير الياروقي ، وعلى كل حال فالجامع بينك وبين صلاح الدين أن أصله
من الأكراد ، فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك » ، ووعدته زيادة في إقطاعه ،
فأجلب وحلف .

(١) ورد في (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٣) وصف كامل لهذه الخلع التي خلعت على صلاح
الدين عند تواجده الوزارة ، وقد آثرنا نقله هنا لأهميته : « وكانت خامة الوزارة : همامة
بيضاء تيسى بطرز ذهب ، وثوب ديبق بطرازي ذهب ، وجبة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب ،
وطيلسان ديبق بطراز ديبق ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار ، وسيف على
مجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس حبر صفراء من مراكب الماضد قيمتها ثمانية
ألف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها ، وطوق ، ونخت ، ومرفسار ذهب مجوهر ،
وفي رقبة الحجر مشدة بيضاء ، وفي رأسها مائتا حبة جوهر ، وفي أربع قوائم الفرس أربع
عقود جوهر ، وقصبة ذهب في رأسها طالعة مجوهرة ، وفي رأسها مشدة بيضاء بأعلام ذهب ،
ومع الخلعة عدة بققج ، وعدة من الخيل ، وأشياء أخر » .

(٢) في الأصل : « إلا مع » وقد حذف « إلا » ليستقيم المعنى . راجع : (النجوم

الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٧) .

ثم اجتمع بالياروفى - وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا - ، فلم ينفع فيه رقاؤه ولا نفث فيه سحره ، وقال : « أنا لا أخدم يوسف أبدا » . وعاد إلى نور الدين ومعه غيره ، فأنكر عليهم فراقه له .

وذكر عماد الدين الطنّب في كتابه المعروف بالبرق السامى : « أن أسد الدين لما توفى وهضت له التعزية اختلفت آراء الأمراء واختلفت آراؤهم ، ثم اجتمعت كلمتهم على عقد الأمر لصالح الدين ، وألزموا العاضد - صاحب القصر - بتوليته ، فولاه وزارته ، وكتب له منشور (١) بالإشياء الفاضلى ، من جملة :

« فأنت راضعُ دَرِّه وناشئةُ حَجْرِهِ ، وظهور الخليل مواطنك ، وظلال الخيام مساكنك ، وفي ظلمات قساطله (٢) تجلى محاسنك . وفي أعقاب نوازله تتلى مناقبك (٣) ، فشتر له عن ساق من القنأ ، وخض فيه بحوافر (٤) الظبأ ، واحلل في عقد كلمة الله وثيقات الجبى (٥) ، وأسل الوهاد بدم العدا ، وارفع برهوسهم الرثبا ، حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لا يامك ، ومشهوداً لك يوم مقامك » .

وكتب العاضد لدين الله فى طرته (٦) بخطه :

« هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحجته عند الله سبحانه عليك ، فأوف بهدك ويمينك ، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ، وبمن مضى بجدنا رسول الله

(١) هذه فقرة قصيرة من المنشور ، وقد أوردتها بينها (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٦١) أما نص المنشور كاملاً فقد ورد فى : (صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٩١ - ٩٨) فراجع هناك فهو وثيقة هامة . وورد فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٣) أن منشور الوزارة هذا كان ملفوفاً فى ثوب من الأطلس الأبيض .

(٢) فى صبح الأعشى : « مشاكا » .

(٣) فى صبح الأعشى : « ميامنك » .

(٤) فى المرجع السابق . « بحرامن » .

(٥) فى نفس المرجع : « واحلل فيه عقدة كلمات الله سبحانه وثيقات الجبى » .

(٦) ورد نص ما كتبه العاضد فى الطرة فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦١ - ١٦٢)

و (صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠٧) .

— صلى الله عليه وسلم — [أحسن] (١) أسوة ، [ولمن بقى بقربنا سلوة] (١) وَتِلْكَ الدَّارُ
الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا، وَالْمَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٢).

وهذا آخر منشور كتب عنهم ، وانقرض أمرهم ، وانفصمت عرى دولتهم .

وفي هذا التاريخ ابتداء الدولة الأيوبية ، وأخذت الدولة المصرية في الوهن
والضعف والانحطاط إلى أن انقرضت بالكلية بعد سنتين على ما سنذكره
— إن شاء الله تعالى —

ورثى عماد الدين الكاتب أسد الدين — رحمه الله — بقصيدة عزى بها أخاه
نجم الدين [١٠٦] أيوب وولده الأمير ناصر الدين محمد بن شيركوه ، وهنأها بملك
الملك الناصر صلاح الدين الديار المصرية :

ما بعد يَوْمِكَ . للمعنى المذنب
ما أجراً الحدنان كيف عدا (٣) على الآ
مَنْ ثَابِتٌ دُونَ الْكُفَاةِ سِوَاهُ ؟ إِنْ
مَنْ ذَا رَأَى الْأَسَدَ الْمَهْصُورَ فَرِيْسَةً
مَا كَانَ أَسْنَى الْبَدْرِ لَوْ لَمْ يَسْتُرْ
أَيَّامُ عَمْرِكَ لَمْ تَزَلْ مَقْسُومَةً
مَهْجِدًا لِعِبَادَةٍ ، أَوْ تَالِيًا
فَجَّعَ النَّدَا وَالْبَاسُ مِنْكَ بِجَاتِمِ
بِالْمَلِكِ قُزْتُ ، وَخُزْتَهُ عَنْ قُدْرَةٍ ،
وَوُصِفْتَ يَا أَسَدًا لِدِينِ مُحَمَّدٍ
غَيْرُ الْعَوِيلِ وَحَسْرَةِ الْمُتَأَسِّفِ
سَدَ الْخَوْفِ سَطَا ، وَلَمْ يَتَوَقَّفِ
زَأَتْ بِهِمْ أَقْدَامُهُمْ فِي الْمَوْقِفِ
أَمْ أَبْصَرَ الصَّبْحَ الْمُنِيرَ وَقَدْ خَفِيَ ؟
مَا كَانَ أَبْهَى الشَّمْسِ لَوْ لَمْ تُكْشَفِ
لِلَّهِ : بَيْنَ تَعَبُدٍ وَتَعْرِفِ
مِنْ آيَةٍ ، أَوْ نَاطِرًا فِي الْمُنْصَحَفِ
وَبِحَيْدَرٍ ، وَالْعِلْمُ مِنْكَ بِأُخْتَفِ
وَمَضِيَّتَ عَنْهُ بِسِيرَةِ الْمُتَعَقِّفِ
مَدْحًا بِمَا مَلَكَ بِهِ لَمْ يُوصَفِ

(١) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة المرجعين السابقين .

(٢) السورة ٢٨ (القصص) ، الآية ٨٣ ك .

(٣) في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٢) « سطا » .

وقَفَّوتَ آثارَ الشريعةِ كُلِّها ، وقد اهتدى من للشريعةِ يقتنى
 أَأَنْفِتَ من دنياك حينَ عَرَفتَها ؟ فلوِيتَ وجهَ العارفِ المستكفِ (١)
 يا ناصرَ الدينِ استمدِ بتَصَبُّرٍ مُدُنٍ إلى مرضاةِ رَبِّ مِرْزَفِ
 وتَعَزَّزْ نَجْمَ الدينِ عنه مُهَنَّأً أبدَ الزمانِ بِمَلِكِ مِصرَ ، وَيُوسُفِ
 لا نستطيعُ سوى الدعاءِ ؛ فكلنا — إلا بما في الوُسْعِ — غيرُ مُكَلَّفِ

ولما ملك الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب — رحمهما الله — مصر
 كتب إلى بعض أصدقائه وأودائه بالشام كتابا أوله :

« أيتها الغائبون عني وإن كنتم لقلبي بذكركم جيرانا
 إنني مذ فقدتكم لأراكم بعيون الضمير عندي عيانا »

فأجابه ، والشعر والترسل لعماد الدين الأصفهاني :

[١٠٧] « أيتها الظاعنون عنا (٢) وقلبي مهم (٣) ما يفارق الأشجانا (٤)
 ملكوا مصرَ مثلَ قلبي ، وفي هـ ذاء ، وفي تلك (٥) أصبحوا سُكَّانَا
 فاعدلوا فيها ، فإنكم اليوم م ملكتم عليهما سُلطَانَا
 لا تروعوا بالهجر قلبَ محبٍ أورتته أوصابه (٦) الخلقانَا
 حبذا مهتد قضيئنا به العيب ش ، وكنا بِرِيعِهِ جيرانا (٧)

(١) في الروضتين : « التكف » .

(٢) في الروضتين : « عني » .

(٣) في الروضتين : « لا » .

(٤) في الروضتين « الاطمئنانا » .

(٥) في الروضتين « وهاتيك » .

(٦) في الروضتين : « روطاه » .

(٧) هذه القطوعة ينقصها بيتان يبيان هذا البيت الأخير ، أوردهما صاحب الروضتين

(ج ١ ، ص ١٦٢) ، وهما :

إذ وجدنا من الحوادث أمانا وأخذنا من الخطوب أمانا
 ورتنا من التي في رياض وسكننا من الغاي جنانا

وبعد : فإن وفود الهناء ، وأمداد الدعاء ، متواصلة على الولاء ، صادرة عن محض الولاء ، إلى على جنابه المأنوس ، ومنيع كنفه المحروس ، فليهنه الظفران بالملك وبالعدو ، وفرع هضاب المجد والعلو ، وكيف لا يكون النصر مساوقاً لدين هو صلاحه ، والتأييد موافقاً لمزم هو (١) نجاحه وفلاحه .

فالشامُ يُغِيظُ مصرًا مُدَّ حَلَّتْ بِهَا كَمَا الْفِرَاتُ عَلَيْكُمْ بِحَسَدُ الْبَيْلَا
نَلْتَمُ مِنَ الْمَلِكِ عَفْوًا مَا الْمَلُوكُ بِهِ عُتِنُوا قَدِيمًا وَرَامُوهُ فَمَا نَيْلَا «

وثبتت قدم الملك الناصر صلاح الدين في الملك ورسخ ملكه ، والخطبة مع ذلك على المنابر بالديار المصرية للخليفة العاضد ، وبعده للملك العادل نور الدين ؛ فالملك في الظاهر له ، ولا يتصرف صلاح الدين إلا عن أمره ، والمكاتبة ترد عليه من نور الدين : « بالأمير الاسفهلار (٢) » ، ويكتب نور الدين اسمه قبل علامته (٣) تعظيماً لنفسه ، ولا يُفردُه بالمكاتبة ، بل يكتب إليه : « الأمير الاسفهلار صلاح الدين ، وكافة الأمرء بالديار المصرية يفعلون كذا » .

(١) الأصل : « موافقاً به نجاحه » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٢) انظر ما فات هنا ص ٢ ، هامش ١ .

(٣) العلامة مصطلح خاص يكتبه الخليفة أو السلطان بيده على الرسائل أو الأوامر أو السجلات الصادرة عنه ، ولا تصدر هذه الوثائق على اختلافها إلا بعد كتابة هذه العلامة ، وكان كل خليفة أو سلطان أو ملك يتخذ لنفسه مصطلحاً خاصاً ليكون علامته ، وقد يكون توقيعاً باسمه أو آية قرآنية أو قولاً مأثوراً الخ . . وهذه العلامة هي التي تطورت في أواخر العصر المملوكي وفي العصر العثماني فأصبحت تعرف « بالظفر » . انظر : (القرظي ، الحطاط ، ج ٣ ، ص ٣٦٧ — ٣٦٨) حيث يشير إلى « الظفرا » و « العلامة » بقوله : « وكان في الدولة السلجوقية يسمى ديوان الانشاء بديوان الظفرا ، وإليه ينسب مؤيد الدين الظفرائي . والظفرا هي طرة الكتوب ، فيكتب أعلى من البسمة بقلم غليظ ألقاب الملك ، وكانت تقوم عندم مقام خط السلطان بيده على الناشير والكتيب ويستغنى بها عن علامة السلطان ، وهي انظة فارسية » .

انظر أيضا : La : (C. Cahen : la Tughrá Seljukide. Journal Asiatique, 1945 ; La : Correspondance de Diyā ad-Din Ibn al-Athir. B. S. O. S. V. XIV. Part 1.)
و (القرظي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٤ ، هامش ١) .

ثم شرع صلاح الدين في استمالة قلوب الناس إليه ، وبيذل من الأموال ما كان
أسد الدين جمعه ، وطلب من العاضد شيئاً يخرج به ، فلم يمكنه منه ، فقال الناس
إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضمف
أمر العاضد .

ثم بلغ نور الدين أن الفرنج قد اجتمعت لتسير إلى مصر ، فأمد نور الدين
صلاح^(١) الدين بعسكر فيهم الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب
— وهو أكبر من صلاح الدين — وقال له نور الدين لما أراد أن يسيره إلى أخيه :
« إن كنت تسير إلى مصر [١٠٨] وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم
في خدمتك وأنت قاعد ، فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد ، وأحضر ك حينئذ وأعاقبك
بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامى ، وتخدمه
بنفسك كما تخدمنى ، فسر إليه ، واشدد أزره ، وساعده على ما هو بصدده » ،
فقال : « أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى » ،
فكان كما قال .

ذكر وقعة السودان بالقاهرة

وكان بالقاهرة خصى^٢ يقال له مؤمن الخلافة^(٢) ، وكان متحكما في القصر ،
ولما ثقلت وطأة الملك الناصر على أهل القصر ، وعلموا أن دولتهم زائلة بسببه ،
أحبوا الراحة منه ، فأجمعوا على مكاتبة الفرنج ليصلوا إلى البلاد ، فإذا خرج
صلاح الدين إلى لقاءهم قبضوا على من بقى من أصحابه بالقاهرة ، واجتمعوا هم والفرنج

(١) في الأصل : « لصلاح » .

(٢) اسمه الكامل : « مؤمن الخلافة جوهر » وكان أحد الأستاذين المحكين بالقصر .

انظر : (الفريرى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٢) .

على حربه وحرب أصحابه واستئصالهم ، ويكون بعد ذلك البلاد بينهم وبين الفرنج
يقدمونها ، فسير مؤتمن الخلافة رجلا وحمله (١) كتابا إلى الفرنج ، فخرز عليه نعله ،
وظنوا أن ذلك يخفى عن صلاح الدين والمسلمين (٢) ، « وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيمَ نُورَهُ
وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣) » .

فاتفق أن ذلك القاصد لما عبر بالبئر البيضاء (٤) رآه رجل تركماني وعلى القاصد
خلقان ، وفي يده النعلان اللذان (٥) أخفيت فيهما المكاتبه ، وليس فيها أثر شيء ،
فأنكرها التركماني ، فأخذها ، وأحضرها إلى صلاح الدين ، ففتقها فوجد مكاتبه
الفرنج فيها من أهل القصر ، فأخذ صلاح الدين الكتاب ، وقال : « دلوني على كاتب
هذا الخط » ، فدلوه على رجل يهودي ، فلما أحضروه ليسألوه ويعاقبوه ويقابلوه ،
نطق بالشهادتين واعتصم بهما ، واعترف أنه كاتب الكتاب عن أهل القصر ،
فأخفى صلاح الدين الحال ، واستشعر مؤتمن الخلافة ، وخاف على نفسه ، ولازم القصر
لا يخرج منه ، فإذا خرج لم يُبعد ، وصلاح الدين معرض عن ذكره البتة ، منفض عنه ،
لا يأمر فيه بيسط ولا قبض ، فاسترسل حينئذ وظن أنه لا يقدم عليه ، وكان له قصر

(١) في الأصل : « وأصحابه » ولا يستقيم المعنى بها ، وقد صححت بعد مراجعة : (ابن الأثير :
الكامل ، ج ١١ ، ص ١٢٩) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٨) .
(٢) بين كلمة « المسلمين » والآية القرآنية لفظ « دبابا » ولا معنى لها المحذفت .
(٣) السورة ٩ (التوبة) ، الآية ٣٢ (م) .

(٤) ذكر (المقرئزي : المخطط ، ج ٣ ، ص ٢) أنها قريبة من بلبيس ، هذا ويستفاد
مما ورد في (صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٧٦) عند الكلام عن مراكز البريد
وعن الطريق بين القاهرة وغزة أن هذه البئر كانت واقعة بين بلدتي الخانكة وبلبيس ، وقد حقق
الرحوم محمد رضوي بك موقعها ، قال في : (الاجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٤٤ ، هامش ٢) :
« وبالبحث عن موقعها تبين لي أن مكانها اليوم عزبة أبي حبيب الواقعة في حوض البيضاء بأراضي
ناحية الزوامل بمركز بلبيس ، ولا يزال اسم البيضاء والنسب إليه هذه البئر يطلق
على الحوض المذكور » .

(٥) في الأصل : « المذنب » .

بقرية على شاطئ النيل بقرب قليوب تعرف [١٠٩] بالخرقانية (١) ، ذات منزله وبساتين ، فخرج إليها للتنزه ، فلما علم صلاح الدين أرسل إليه جماعة من أصحابه فاغتالوه من مأمنه ، وقتلوه وأتوا برأسه ، وذلك يوم الأربعاء لحس بقين من ذى القعدة من هذه السنة — أعنى سنة أربع وستين وخمسة — .

فلما قُتل غار السودان (٢) عبيد القصر وثاروا ، وكانوا يزيدون على خمسين ألفاً ، وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه ، فلما ثاروا أنهض (٣) إليهم الملك الناصر صلاح الدين أبا الهيجاء السمين ، ووقعت الحرب بين الفريقين — بين القصرين بالقاهرة — واشتد القتال بين الفريقين ، واستمر ذلك يومين ، وصاروا كلما لجأوا إلى محلة أحرقت عليهم ، وكانت لهم محلة عظيمة على باب زويلة ، تعرف بالمنصورة ، (٤) ، فأرسل صلاح الدين إليها من أوقع الحريق فيها على أموالهم وأولادهم وحرهم ، فلما أتاهم الخبر بذلك ولوا منهزمين ، وركبتهم السيوف ، وأخذت عليهم

(١) ذكر (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٠ ، ص ٩٧) أنها قرية صغيرة من مديرية القليوبية من قسم قليوب واقعة على الشط الشرق للنيل في الشمال الغربي لقرية أبي النيظ بنحو نصف ساعة ، ومنها إلى القناطر الخيرية نحو ثلث ساعة ، وأبنيتها ريفية وبها جامع بمنارة ، وذكر أنها كانت تسمى في العصر الفاطمي « الخاقانية » .

(٢) أشار (المقريزي في الخسط ، ج ٣ ، ص ٣) إلى بعض الفرق السودانية التي شاركت في هذه الواقعة ، وهي : « الطائفة الريحانية ، والطائفة الجبوشية ، والطائفة الفرجية ، وغيرهم من الطوائف السودانية ، ومن انضم إليهم بين القصرين » .

(٣) في الأصل « نهض » ولا يستقيم بها المعنى . وقد صححت بمد مراجعة : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٨) ، قالص هناك نقلا عن العماد : « فثار أصحاب صلاح الدين إلى الهيجاء ، ومقدمهم الأمير أبو الهيجاء » .

(٤) ذكر هذه المحلة (المقريزي في الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩) باسم « الحارة المنصورة » . قال : « هذه الحارة كانت كبيرة منسمة جداً ، فيها عدة مساكن للسودان ، فلما كانت واقعتهم في ذى القعدة سنة ٥٦٤ م صلاح الدين يوسف بن أيوب بتخريب المنصورة هذه وتغيب أثرها وتخربها خطيبا بن موسى الملقب صارم الدين ، وعملها ستانا » . ثم حدد مكانها في (ص ٣٠) قال : « وكان موضع المنصورة على يمنة من ملك في الشارع خارج باب زويلة . هي إلى جانب الباب الحديد الذي يعرف اليوم بالقوس عند رأس التنجبية فيما بينها وبين الهلاية » .

أفواه السكك ، فطلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل ، فأجيبوا إلى ذلك ؛ وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة ، فمضوا إلى الجزيرة ، فعبر إليهم الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أوب — أخو السلطان — في طائفة من العسكر فأبادهم بالسيف ، فلم يبق منهم إلا الشريد ، وضعف أمر العاضد بالكفاية وتلاشى أمره ؛ وأمر صلاح الدين بتخريب محلة السودان ، وأعنى أثرها ، فخرَّبها بعض الأمراء واتخذها بستانا ؛ وأصبح أمر السودان كأن لم يكن قط (١) ؛ ففي ذلك يقول عماد الدين الكاتب بمدح صلاح الدين ، وسبِّرها إليه من الشام :

بالمكِّ الناصر استنارت	— في عصرنا — أوجه الفضائل
على من حقه فروض	شكراً لما جاد من نواقل
يوسف مصرَ الذي إليه	تشدُّ آمالنا الرواحل
أجريت نيلين في زاهما :	نيل نجيع ، ونيل نائل
وما نفيت السودان حتى	حكمت البيض في المقاتل
[١١٦] صيرت رجبَ الفضاء ضيقاً	عليهم كفه بمائل (٢)
وكل رأى منهم كراء	وأرض مصر كلام واصل
وقد خلت منهم المغاني	وأقمرت منهم المنازل

(١) أورد المقرئ في كتابه (المخطوط ، ج ٣ ، ص ٢٩) نصاً هاماً يشير إلى مكانة السودانيين في الجيش الفاطمي ومبلغ ما كان لهم من نفوذ ، وكيف تتبعهم صلاح الدين في الصعيد بعد هذه الواقعة إلى أن قضى على نفوذهم نهائياً ، قال : « وكان للسودان بديار مصر شوكة وقوة ، فتبعهم صلاح الدين ببلاد الصعيد حتى أقام بعد أن كان لهم بديار مصر في كل قرية ومحلة وضيعة مكان مفرد لا يدخله وال ولا غيره ، احتراماً لهم ، وقد كانوا يزيدون على خمسين ألفاً ، وإذا ثاروا على وزير قتلوه ، وكان الفرور بهم عظيماً لامتداد أيديهم إلى أموال الناس وأهاليهم ، فلما كثر بينهم وزاد تعدد أهلكهم الله بذنوبهم . . الخ » .

(٢) الأصل : « كفة الحابل » ، وما هنا عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٨) ، وقد وردت هذه القصيدة أيضاً في : (المقرئ : المخطوط ، ج ٣ ، ص ٢٩ — ٣٠) ، وهي هناك أكثر أبحاثاً فانظرها

وما أُصِيبُوا إِلَّا بِظَلِّ فَكَيْفَ لَوْ أَمْطَرُوا بِوَابِلٍ !
وَالسُّودُ بِالْبَيْضِ قَدْ أُبِيحُوا (١) فَهِيَ بِوَادِيهِمْ نَوَازِلُ
مُؤْتَمِنُ الْقَوْمِ خَانَ حَتَّى غَالَتْهُ مِنْ شَرِّهِ غَوَائِلُ
عَامِلِكُمْ بِأَنْخِنَا فَأَضْحَى وَرَأْسُهُ فَوْقَ رَأْسِ عَامِلِ
يَا مَخْجَلًا الْبَحْرَ بِالْأَيْدِي قَدْ آتَى أَنْ تَفْتَحَ السَّوَاهِلُ
فَقَسَسَ الْقَدَمَ مِنْ خِبَاثِ أَرْجَاسٍ كَفَرَتْ عَنْ أَرَاذِلِ

وزكر عمار الدين أنه وصل في هذه المدة كتاب من الملك الناصر صلاح الدين إلى بعض أصحابه بدمشق ، وضمنه هذا البيت :

وانثر دُرَّ الدَّمْعِ مِنْ قَبْلِ أَيْضًا وَقَدْ حَالَ مَذْغَبِي فَأَصْبَحَ يَاقُوتَا
فَنظَمْتُ فِي الْجَوَابِ أَيْبَاتًا مِنْهَا :

هَنِيئًا لِمِصْرَ كَوْنِ يَوْسُفَ مَلِكُهَا بِأَمْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ قَدْ كَانَ مَوْقُوتَا
وَمَا كَانَ فِيهَا قَتْلُ يَوْسُفَ شَاوِرَا بِمَائِلٍ إِلَّا قَتَلَ دَاوُودَ جَالُوتَا
وَقَلْتُ لِقَلْبِي أَبْشُرِ الْيَوْمَ بِالْمَنَى قَدْ نَلْتَمَا أَمَلْتَا ، بَلْ حَزْتَمَا شَيْتَا
ولما وقعت هذه الواقعة تلاشى أمر العاضد خليفة مصر ، إلا أن الخطبة باقية له ،
وبعد لنور الدين ، فحكى لي الأمير حسام (٢) الدين بن أبي علي قال :

« كان جدى فى خدمة الملك الناصر صلاح الدين ، فحكى أنه لما وقعت هذه
الواقعة شرع صلاح الدين كل يوم يطلب من العاضد شيئاً من الخليل والرقيق

(١) الأصل : « ألجوا » وما هنا عن الروضتين ، وفي الخطط : « تنحوا » .

(٢) كان الأمير حسام الدين بن أبي علي قائداً من كبار قواد الدولة فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ونائب السلطنة فى عهده ، كما كان صديقاً حميماً للمؤلف ابن واصل ، وسينقل عنه فيما يلى الكثير من أخبار الدولة وأسرارها وخاصة فى عهد الصالح نجم الدين ، وهذا أول حديث ينقله عنه ، وهو من الأخبار التى ينفرد ابن واصل بإيرادها ، وقد نقله عنه (أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٢٩) .

والأموال ، ليقوى بذلك ضعفه ، قال : فسيرتني يوماً إليه أطلب منه فرساً ، ولم يبق عنده إلا فرس واحد ، فأتيت [١١١] إليه وهو راكب في بستانه المعروف بالكافوري (١) ، الذي يلي القصر الغربي (٢) ، فقلت : صلاح الدين يسلم عليك ، ويطلب منك فرساً ، فقال : ما عندي إلا الفرس الذي أنا راكبه ، ونزل عنه ، وشقَّ خفيته ، ورمى بهما ، وسلم إلى الفرس ، فأتيت به صلاح الدين ، ولزم العاضد بيته ، ولم يعد لركوب حتى كان منه ما كان .

ذكر منازلة الفرنج دمياط وعودتهم عنها خائبين

ولما ملك صلاح الدين — رحمه الله — الديار المصرية ، واستقرت قدمه بها ، واستقرت بها المساكن النورية ، أيقن الفرنج بالهلاك ، وأيقنوا أن بلاد الساحل من المسلمين على شفا جرف هار ، وأنهم إن لم يتداركوا الأمر وإلا ذهبت البلاد

(١) ذكر هذا البستان (المقريزي : الحطط ، ج ٣ ، ص ٣٩) عند كلامه عن « خط الكافوري » ، قال : « هذا الخط كان بستاناً من قبل بناء القاهرة وتملك الدولة الفاطمية لدمياط مصر ، أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طنج الاخشيد ، وكان بجانبه ميدان فيه الخيول وله أبواب من حديد ، فلما قدم جوهر القائد إلى مصر جعل هذا البستان من داخل القاهرة وعرف ببستان كافور ، وقيل له في الدولة الفاطمية البستان الكافوري ، ثم اختط مساكن بعد ذلك . وقد حقق المرحوم محمد رمزي بك مكان هذا البستان في القاهرة الحالية في تعليقاته على كتاب النجوم الزاهرة (ج ٤ ، ص ٤٨ ، هامش ٢) فقال إنه كان بستاناً كبيراً واقماً قبل إنشاء القاهرة في المنطقة التي محمد اليوم من السماك بشارع أمير الجيوش الجواني ، ومن الغرب بشارع الخايج المصري ، ومن الجنوب بشارع السكة الجديدة ، ومن الشرق بشارع الخردجية وبين القصرين والنخارين . ولما خرب هذا البستان وبني في مكانه الدور والمساكن وغيرها أصبح خط الكافوري قاصراً فيما بعد على المنطقة التي محمد اليوم من السماك بشارع أمير الجيوش الجواني ، ومن الغرب بشارع الشعرائي البراني ، ومن الجنوب بشارع الخرنفش ، ومن الشرق بحارة برجوان .

(٢) كان موضعه حيث البيارستان المنصوري (ومستشفى قلاوون لرهمد يشغل جزءاً منه الآن) وكل المساكن التي تجاوره إلى الخليج . انظر : (النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٦٦ ، هامش ١) .

من أيديهم ، فكاتبوا افرنج صقلية [والاندلس] (١) وغيرهم ، واستمدوهم واستنصروهم
لدين النصرانية ، وأمدوهم بالأموال والرجال والسلاح ، واعتدوا للنزول على دمياط ،
فوصل إلى دمياط الفرنج والروم من داخل البحر ، واستصحبوا معهم المنجنيقات (٢)
والدبابات (٣) وآلات الحصار وغير ذلك ، واشتد أمر الفرنج بالشام لما قدم فرنج

(١) ما بين الحاصرتين عن الكامل لابن الأثير ، والروضتين . والمعروف أن أموري عندما
أدرك خطورة استيلاء نور الدين على مصر أرسل يستنجد بمسيحي أوروبا جميعاً . ولكنهم تقاعسوا
عن تجديده لأسباب مختلفة . فلجأ إلى مانويل امبراطور الدولة البيزنطية ، فإبى دعوته ،
ولهذا كانت الحملة على دمياط تتكون من جيش أموري الصليبي وأسطول بزنطى ضخم . لمعرفة
أخبار هذه الاتصالات وموقف البيزنطيين في الحملة انظر : (حسن حبشي : نور الدين
والصليبيون ، ص ١٢٤ — ١٤٠) .

(٢) المنجنيق — بفتح الميم وكسرها — أو المنجنوق ، أو المنجنيق ، والجمع : مجانيق
ومناجيق ومنجنيقات ، لفظ أعجمي معرب فهو في اللاتينية (Mangonellus) ، وفي الفرنسية
(Mangonneon) وفي الإنجليزية (Mangonel) ، وهو آلة من آلات الحصار في العصور
الوسطى ، يقوم مقام المدفع الحالى ، وإن كانت قذائفه من الحجارة ، وقد وصفه صاحب صبح
الأعشى (ج ٢ ، ص ١٤٤) بأنه « آلة من خشب له دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه
ثقيل وذنبه خفيف ، تجمل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله الأعلى
أطالیه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، فإصاب شيئاً إلا أهلكه . وقد
ذكر (مرضى بن على بن مرضى الطرطوسى) في مخطوطته «تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة
في الحروب من الأسواء .. الخ» التي ألفها خصيصاً لسلطان صلاح الدين الأيوبي أن المنجنيقات
على عهده كانت ثلاثة أنواع : « فنها العربى وهو أيقن مصنوعاتها ، وأوثق معمولاتها ، ومنها
التركي وهو أقلها كلفة وأحصرها ، وؤونة ، ومنها الفرنجى » ثم وصف هذه الأنواع جميعاً وصفاً
دقيقاً مشفراً بالرسوم . وقد نشر مقتطفات من هذه المخطوطة مع ترجمة فرنسية وتعليقات قيمه
الأستاذ كلود كاهن . انظر : (Claude Cahen: *Un Traité D'Armurerie Composé pour*
Saladin. Extrait du Bulletin d'Études Orientales, Damas, Tome XII. 1947-1948.)
هذا ويوجد أيضاً في : (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩١ — ١٩٣) وصف
ممنع للمنجنيق وطرق استعماله . انظر كذلك : (الجوالقي : العرب ، ص ٣٠٥ — ٣٠٧)
و (نمان ثابت : الجندي في الدولة العباسية ، ص ١٩٠ — ١٩٣) و (المقرئى : اتعاظ
الحنفا ، نشر الشياك ، ص ١١٩ ، هامش ٣) .

(٣) جاء في (اللسان) أن «الدبابة آلة تتخذ من جلود وخشب ، يدخل فيها الرجال ويقربونها
من الحصن المحاصر لينقبوه وتقيم ما يرمون به من فوقهم ، سميت بذلك لأنها تدفع قناب ،
وقد قرئ (مرضى بن على) بينها وبين الأبراج والستائر ، ووصفها جميعاً وطرق صنعها في كتابه =

الغرب إلى دمياط ، فسرقوا حصن عكار من المسلمين ، وأسروا صاحبها ، وكان مملوكا لنور الدين يقال له خطلخ (١) الجمدار ، وكان وصول الفرنج إلى دمياط في صفر سنة خمس وستين وخمسةائة .

وكان سبق إلى دمياط الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخي السلطان ، وكذا شهاب الدين خاله ، فدخلا دمياط ، وتابع إليهما صلاح الدين الأمداد والنجد في البحر ، وأمدهما بالسلاح والمال والذخائر ، واتصل على دمياط حصار الفرنج وضابقوها ، وتابع صلاح الدين رساله إلى الملك العادل نور الدين - رحمه الله - يشكو إليه ما هو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج ، وإن سار إليها خافه المصريون في مخافيه ومخاني عسكره بالسوء ، وخرجوا عن طاعته ، وصار الفرنج أمامه والمصريون خلفه ، فجهز إليه نور الدين العساكر أرسالا ، كلما تجهزت طائفة أرسلها ، فسارت إليه يتلو بعضها بعضها . ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر ودخل بلاد الفرنج ، [١١٢] فتهبها وأغار عليها واستباحها ، لتتحرك الفرنج إلى حفظ البلاد الشامية ويشتغلوا عن دمياط ، وذكر أنه بلغ من اهتمام نور الدين بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرئ

= المؤلف الذكر . انظر : (C. Cahen: Op. Cit. P.18 -19) كذلك وصفها (الحسن عبدالله : آثار الأوك ، ص ١٩٢) بقوله : « هي آلة سائرة تتخذ من الحشب الثخين المتلرز ، وتلف بالبود والجلود النعمة في الخل لدفع النار ، وتركب على عجل مستديرة ، وتحرك فتتجر ، وربما جعلت برجا من الحشب ، ودبر فيها هذا التديير ، وقد يدفعا الرجال فتندفع على البكر » وقد وصف (المعاد الأصفهاني : الفتح القدي) بأحدى دبابات الفرنج بأنها « كانت دبابه عظيمة هائلة ولها أربع طباق ، وهي خشب وورصاص وحديد ونحاس » . انظر المراجع المذكورة في الحاشية السابقة ؛ (المقرئ في السلوك ، ج ١ ، ص ٩٦ ، حاشية ٨) و (Dozy: Suppl. Dict. Arab.) هذا وقد كتب قارئ في هامش الأصل معنى هذا اللفظ باللاتينية وهو (mufculos machinas bellicas) .

(١) في الاصل : « خلطخ » وقد صحح الاسم بعد مراجعة (الروضتين ، ج ١ ص ١٨٠) وهو يسميه هناك « العمدار » لا « الجمدار » .

بين يديه جزء من حديث كان له به رواية ، فجاءه في جملة تلك الأحاديث حديث
مسلسل بالتبسم ، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبسم ليم السلسلة على ما عرف
من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك ، وقال : « إني لأستحي من الله تعالى
أن يراني مبتسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج » .

وذكر أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحل الفرنج عن دمياط في منامه النبي
— صلى الله عليه وسلم — وقال له : « أعلم نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط
في هذه الليلة » ، قال : فقلت : « يارسول الله لا يصدقني ، فاذكر لي علامة يعرفها » ،
[قال] : « قل له » بعلامة ما سجدت على تل حارم ، وقلت : يارب انصر دينك (١) ،
ولا تنصر محموداً ، من محمود الكلب حتى ينصر ؟ ! » قال : « فأنبئت ، ونزلت
إلى المسجد ، وكان من عادة نور الدين أن ينزل إليه بغلس ، ولا يزال يركع فيه حتى
يصلى الصبح » ، قال : « فتعرضت له ، فسألني عن أمرى ، فأخبرته بالمنام ،
وذكرت له العلامة كلها ، إلا أنني لم أذكر لفظ الكلب » ، فقال نور الدين :
« اذكر العلامة كلها » وألح عليّ ، فقلتها ، فبكي ، وصنق الرؤيا . وأرخت تلك
الليلة ، فجاء الخبر يرحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة » .

ولما رأى الافرنج تتابع الأمداد إلى دمياط من القاهرة والشام ، ودخول
نور الدين إلى بلادهم ونهبها وإخراؤها (٢) رجعوا خائبين ، وكان مدة مقامهم

(١) في الأصل : « دينك » وهو خطأ واضح ، لم يكن تصحيحه يحتاج إلى الإشارة إليه
في الهامش ، لولا أن القارئ الفرنجي الذي اعتاد أن يسجل بعض شروحه باللاتينية على هوامش
المخطوطة لم يفتن للقراءة الصحيحة للفظ ، وفهمه على أنه « دين » ، وشرحه باللاتينية هكذا :
(Canla gregis, mandre) ؛ وفي (اللسان) : الدين حظيرة من قصب تعمل للغنم ، قال كانت
من خشب فهي زرب . فتأمل !!

(٢) في الأصل : « وخرها » والتصحيح عن الروضتين .

على دمياط خمسين يوما ، وكان رحيلهم لتسع بقين من ربيع الأول سنة
خمس وخمسين وخمسمائة .

وأنفق صلاح الدين في هذه النوبة أموالا عظيمة ، وذُكر عنه أنه قال :
« ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار
مصرية سوى الثياب وغيرها » ، وسُيِّرت الكتب إلى الشام بالبشارة برحيل الفرنج ،
فكتب نور الدين إلى العاضد صاحب مصر يهنئه برحيل الفرنج عن دمياط ، وكان
قد ورد عليه كتاب [١١٣] من العاضد يستقبل فيه من الأتراك خوفا منهم ،
ويطلب الاقتصار على صلاح الدين وخواصه وأزواجه ، فكتب إليه (١) نور الدين
يمدح (١) الأتراك ، ويذكر أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعله بأن قنطاريات (٢)
الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك ، وأن الفرنج لا يخافون إلا منهم ، ولولام
ل زاد طمعهم في الديار المصرية ، ولعل الله سبحانه وتعالى يُيسر بهم فتح
بيت المقدس .

ومما مُدح به الملك الناصر صلاح الدين بعد رحيل الفرنج ما كتب إليه به
عماد الدين الكاتب — رحمه الله — من قصيدة (٣) مخلصها :

كَأَنَّ قَلْبِي وَحُبَّ مَالِكُهُ بِمِصْرٍ وَفِيهَا الْمَلِيكُ يُوسُفُهَا

(١) في الأصل : « إلى » و « مدح » ، والتصحيح عن : (الروضتين ج ١ ، ص ١٨١) .
(٢) القنطارية نوع من الرمح ، وهي لفظ من أصل يوناني (κοντάριον = Kontarion) وسُميت
هكذا لأنها تصنع من نوع من الخشب يحمل هذا الاسم باليونانية . وقد وصفها (مرضى بن علي)
وصفا دقيقا في كتابه السالف الذكر ، قال : « وبنو الأصفر ومن جالسهم من الروم يمتدون
رماحا من الخشب الزان والشوح وما شاكله ويسمون القنطاريات ، وليست بالطويلة ، ويطعنون
بها ، ومن فرسانهم من تقربس بها ، وهو أن يجعل طرفها في قربوس سرجه ويطعن ، وأستها
قصار عراض كهينة البلطية وما جرى مجراها » . أنظر : (C. Cahen : Un Traité
D'Armurerie Composé pour Saladin P.P 11, 155) : (Dozy. Supp. Dict. Arab)
(٣) وردت هذه الأبيات في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٢) ، أما القصيدة كاملة
فوجوده في : (الهامد الأصفهاني : الخريدة ، قم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ٩ — ١١) وقد
استغنا بهذين المرجعين لتصحيح الأبيات وضبطها وشرحها .

هذا بسلبِ الفؤاد يظلمني ، وهو بقتل الأعداء يُنصفها
 الملكُ الناصرُ الذي أبدًا بعزُّ سلطانه يُشرفها
 قام بأحوالها ، فدبرها حسنا ، وأثقالها يُخففها
 بعدله والصلاحِ يَعمرها ، وبالندی والجملِ يكتنفها
 من دنسِ الغادرين يرحضها ، ومن خبثِ العدى ينظفها
 وإنه في السَّامحِ حاتمها ، وإنه في الوقارِ أحنفها
 يوسفُ مصرَ التي (١) ملاحجها جاءت بأوصافه تُعرفها
 كتبُ التواريخ لا يُزيبها — إلا بأوصافه — مصنفها
 وحطت (٢) دمياط إذ أحاط بها من يرجوم (٣) البلاء يقذفها
 لاقت غواةَ الفرنج خيبتها فزاد — من حسرة — تأسفها
 أوردت قلب (٤) القلوب أرشية من القنا للدماء تترفها (٥)
 وليتها سفكها فعاملها عاملها (٦) والسنانُ مشرفها (٧)
 يمضى لك الله في قتالهم عزيمةً للجهادِ ترهفها

(١) في الأصل : « الذي » .

(٢) في الأصل : « وحط » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٣) في الأصل : « ممن رجوم » والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٤) القلب جمع قلب وهو البتر ؛ والأرشية الجبال ، وهي جمع وشاء .

(٥) في الأصل : « تصرفها » ، وما هنا عن المرجعين السابقين .

(٦) حامل الرمح صدره ؛ والعامل الوالى .

(٧) مشرف الشيء ما يعلوه ؛ والمشرف كذلك القائم على الأمر .

ذكر وصول الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذى

والد السلطان إلى مصر

[١١٤] ثم أرسل السلطان الملك الناصر صلاح الدين إلى الملك العادل نور الدين — رحمه الله — يطلب أن يرسل إليه والده نجم الدين أيوب ، فجهّز نور الدين وسير معه عسكرياً ، واجتمع معهم من التجار خلق كثير ، وانضاف إليهم من كان له مع صلاح الدين أنس وصحبة ، ثم خاف نور الدين عليهم من الفرنج ، فسار إلى الكرك في عساكره ، فحصره وضيق عليه ، ونصب عليه المجانيق ليشغل الفرنج عنهم ، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وحشدوا وساروا إليه ، فسار نور الدين نحوهم ، فرجعوا عنه القهقري ، وسلك نور الدين وسط بلادهم بحرق وينهب ما على طريقه من القرى ، إلى أن وصل إلى عَشْرًا (١) ، فحجّم بها وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم ، فلم يبرحوا مكانهم ، وأقام هو حتى أتاه خبر الزلزلة العظيمة التي وقعت في هذه السنة ، فرحل .

وهذه الزلزلة (٢) هي المعروفة بزلزلة حلب التي هدت أكثر منازلها ، وكانت عظيمة جداً ، وكان تأثيرها في حلب وبلادها نظير تأثير الزلزلة التي كانت بحماة سنة اثنين وخمسين وخمسمائة — التي قدمنا ذكرها —

ووصل الملك الأفضل نجم الدين أيوب — رحمه الله — إلى القاهرة في الرابع والعشرين من رجب من هذه السنة — أعني سنة خمس وستين وخمسمائة — ، وخرج العاضد — صاحب القصر — لاستقباله ، وبالغ في احترامه والإقبال عليه .

(١) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها موضع بحوران من أعمال دمشق .

(٢) حدثت هذه الزلزلة في ثاني عشر شوال . انظر أخبارها بالتفصيل في : (ابن الأثير :

الكامل ٢ ج ١١ ، ص ١٣٢ — ١٣٣) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٤) .

واتفق لأيوب مع ولده صلاح الدين يوسف شبيه ما اتفق ليعقوب مع ابنه يوسف — عليهما السلام — حين قدم على ولده ، ووجدته متملكا للديار المصرية ، وقال : « ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ (١) » . وذكر أنه لما خرج ولده الملك الناصر صلاح الدين والخليفة العاضد إلى لقائه ، واجتمعا به قرأ بعض المقرئين : « وَرَفَعَ أَبُو يَهُدَى عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا بَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ (٢) » — الآية —

ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته ، وفوض إليه الأمر كله ، فأبى ذلك عليه أبوه وقال له : « يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفو له ، فلا ينبغي أن تغير مواقع السعادة » [١١٥] فخكمه في الخزان بأمرها ، وأنزله اللؤلؤة (٣) المطلة على خايج القاهرة ، فأنشده يوما ابن أبي حصينة (٤) وغض من خلفاء مصر :

(١) السورة ١٢ (يوسف) ، الآية ٩٩ ك .

(٢) السورة ١٢ (يوسف) ، الآية ١٠٠ ك .

(٣) اللؤلؤة منظر من مناظر الفاطميين كانت تعرف بقصر اللؤلؤة ، ويشرف من شرقيه على البستان الكافوري ، ومن غربيه على الخليج ، وصفه (المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ إلى ٣٥٠) بأنه كان من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، أنشأ هذه المنظر العزيز بالله ثم هدمها الحاكم ثم جددتها الظاهر ؛ ومكانها اليوم تبعا لتحقيقات محمد رمزي (النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٤٦ ، هامش ٢) مدرسة الفرير التي بشارع الشراني البراني على رأس شارع الخرنفش بقسم الجمالية . أنظر أيضاً : (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٢ ، ص ١٢٨) .

(٤) هو يحيى بن سالم بن أبي حصينة الأحدب ، ترجم له (المهاد الأصفهاني : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ٢ ، ص ١٥٧) فقال إنه من أهل مصر ، وجدته من أهل المعرة بالشام ، من نسب الشاعر المعروف ، ثم أورد له بعض شعره ، وقد فكر ناشر الخريدة أن لهذا الشاعر ترجمة في (ابن سعيد : المغرب ، الجزء الثاني ، الورقة ١٧٣) و (ابن حجر : التجريد ، الورقة ٢٥٧) . وقد ترجم صاحب الخريدة لأبيه سالم بن مفرج بن أبي حصينة في (نفس المرجع ، ص ١٠٧ — ١٠٨) . أنظر أيضاً : (عمارة : النكت المصرية ، ص ٢٩٢) وفي (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٧٥) ترجمة لشاعر آخر من نفس الأسرة ، فقد قال في وفيات سنة ٤٥٦ هـ : « توفي الحسن بن عبد الله بن أحمد أبو الفتح الحلبي الشاعر المعروف بابن أبي حصينة ، كان قاضيا شجاعا فصيحاً يخاطب بالأمر » .

يا مالك الارض لا أرضى له طرفاً
قد عجل الله هدى اندار تسكنها ،
تشرفت بك عمن كان يسكنها
كانوا بها صدفاً ، والدار لؤلؤة ،
منها ، وما كان فيها لم يكن طرفاً
وقد أعد لك الجنات والغرفاً
فالتبس بها العز ، ولتلبس بك الشرفاً
وأنت لؤلؤة صارت لها صدفاً

فرد عليه عمارة (١) بن علي البني الشاعر ، وكان يتعصب لخلفاء مصر ،

لاصطناعهم إياه وإحسانهم إليه ، فقال :

وقلت ما قلته في ثلبيهم سخفاً
والعرف : ما زال سُكنى (٣) اللؤلؤ الصدفاً
فيها ، (٤) وشف فأسناها الذي وصفا
وكونها حوت (٥) الأشراف والشرفاً
فيها ، ومن قبلها قد أسكنوا الصخفاً
— من البرية — إلا كل من عرفا
ضعف البصائر للأبصار مختطفاً
فالكلب — ياكل — أسنى منك مكرمة ، (٨) لأن فيه حفاظاً دائماً ووقفاً

أمنت (٢) يا من هما السادات والخلفاء
جعلتهم صدفاً حلوا بلؤلؤة
وإنما هي دار ، حل جواهرهم
فقال : لؤلؤة ! عُجباً يهجنها ،
فهي بسكانها (٦) الآيات إذ سكنوا
والجواهر الفرد نور ، ليس يبرفه
لولا تجسسه فيهم (٧) لكان على
فالكلب — ياكل — أسنى منك مكرمة ، (٨)

(١) أشير إلى اسم الشاعر — في الأصل — بعلامة ، وكتبت أمامه في الهامش هذه الجملة اللاتينية : (Vide plura de hoc poeta infra pag. 128.) ويشير كاتب هذه الجملة من الفرنج إلى قصيدة أخرى لهامة وردت في ص ١٢٨ من المخطوطة وهي القصيدة التي رثي بها عمارة الفاطميين .
(٢) في الأصل : « ألت » والتصحيح عن : (عمارة : النكت المصرية ، ص ٢٩٢)
و (المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٥١) .

(٣) في الأصل : « كن » والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٤) في الأصل : « بها » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٥) في الأصل : « حلت » والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٦) في الأصل : « فهم بسكناها » ؛ وفي الخطط « فهم بسكنام » ؛ وما هنا صيغة « النكت » .
(٧) كذا في الأصل وفي (النكت) ؛ وفي (الخطط) : « فيه » .
(٨) كذا في الأصل وفي (الخطط) ؛ وفي (النكت) : « معروفة » .

وفي هذه السنة — أعني سنة خمس وستين وخمسمائة — سار الأمير شهاب الدين محمد بن إلياس ابن إياغازي بن أرْتُق — وكانت له البيرة — في عسكره ، — وهم مائتا (١) فارس — إلى خدمة الملك العادل نور الدين محمود — رحمه الله — ، وهو نازل بعُشْتَرَا ، فلما وصل إلى اللبوة من أعمال بعلبك ، وكان قد ركب متصيِّداً ، فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للإغارة على بلاد الإسلام ، فوقع بعضهم على بعض ، واقتتلوا ، وصبر الفريقان ، وكثر القتل فيهم ، فانهزم الفرنج ، واستولى عليهم القتل والأسر ، فلم يسلم منهم من يُعتد به ، ثم سار شهاب الدين بالأسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين ، فركب هو وعسكره إلى لقائه ، واستعرض الأسرى ورؤوس [١١٦] القتلى ، فرأى فيها رأس مقدّم الاسبتارية (٢) ، صاحب حصن الأكراد ، وكان معظماً عند الفرنج .

ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكي

صاحب الموصل

وفي ذى الحجة من هذه السنة توفي قطب الدين مودود بن زنكي بن آق سنقر — صاحب الموصل — وكان مرضه حاداً ، ولما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكي بن مودود ، فلم يتم أمره ، على ما سند كره إن شاء الله تعالى .

(١) في الاصل : « مايتي » .

(٢) هذه هي التسمية العربية لطائفة الفرسان الهسبتاليين ، وهو تحريف ظاهر للفظ الانجليزي (Hospitallers) أو الفرنسي (Hospitalliers) ، وكان يطلق في عصر الحروب الصليبية على طائفة من الفرسان الدينيين ، وقد أسس هذه الطائفة (Blessed Gerard) في سنة ١٠٩٩ م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . وكانت الدار التي يسكنها هؤلاء الرهبان (Hospice) موجودة قبل ذلك في بيت المقدس وتتخذ مأوى للحجاج والمرضى من السبعين ، وتشبه هذه الطائفة في كثير طائفة فرسان المعبد (Templiers) التي عرفها العرب باسم « الداوية » ، وقد لعب فرسان هاتين الطائفتين دوراً خطيراً في الحروب الصليبية انظر : (king: Knights Hospitallers) (pp. 1-28) و (محمد فريد أبو حديد : صلاح الدين الأيوبي وعصره ، ص ١٠٤ ، هامش ١) .

ذكر سيرته - رحمه الله -

كان من أحسن الملوك سيرة ، وأعفهم عن أموال الرعية ، محسناً إليهم ، كثير الإِنعام عليهم ، محبباً عند الصغير والكبير منهم ، وكان سريع الانفعال للخير ، بطيئاً عن الشر ، جم المناقب ، قليل المعائب ، وجرت واقعة عجيبة ينبغي أن نتعظ بها ، حدث الشيخ عز الدين بن الأثير عن والده ، قال : « كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين كما علمتم ، فلما كان قبل موته يبسير ، أتاني كتاب من الديوان (١) بالموصل ، يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة ، وهي قرية نحاذي الجزيرة وبينهما دجلة ، ولها بساتين كثيرة ، بعضها يُمسح فيؤخذ منه عن كل جريب (٢) شيء معلوم ، وبعضها عليه خراج ، وبعضها مطلق من الجميع ، وكان لي فيها ملك » ، فكتبت أقول : « إن المصلحة أن لا يُغَيَّرَ على الناس شيء ، وما أقول لأجل ملكي ، فإنني أنا أُمسح ملكي ، وإنما أريد أن يدوم الدعاء من الناس لهذه الدولة » ، فجاءني كتاب النائب يقول : « لا بد من المساحة » ، قال : فأظهرت الأمر ، وكان بها قوم صالحون ، لي بهم أنس ، وبيننا وبينهم مودة ، فجاءني الناس كلهم ، وأولئك معهم ، يطلبون المراجعة ، فأعلمتهم أنني راجعت ، وما أجبت إلى ذلك ، فجاءني منهم رجلان أعرف صلاحهما ، وطلبا مني معاودة المخاطبة ثانية ، ففعلت ،

(١) كان لفظ « الديوان » يطلق أحياناً في ذلك العصر على موظف أو موظف الديوان

كما يتضح من النص هنا .

(٢) الجريب هنا مقياس للأرض ، ومقداره عشر قصبات في عشر قصبات ، على أنه قد يختلف باختلاف المكان والزمان ؛ والجريب في الأصل مكبال ، وسعته ما يكفي من الحب لبذر مساحة معينة ، ومن هنا سميت تلك المساحة باسم الجريب . انظر : (الماوردي : الأحكام السلطانية) و (المقرئ ، إفاضة الأمة ، ص ٥١ و ٦٣) و (Enc. Isl. Art: Djarib) وما بها من مراجع .

فأصروا على المساحة ، ففرقهما الحال ، قال : « فمضى إلا عدة أيام وإذا قد جاءني الرجلان ، فلما رأيتهما ظننت أنهما يطلبان المعاودة ، فعجبت منهما ، وأخذت أعتذر إليهما ، فقالا : ما جئنا إليك في هذا ، وإنما جئنا نعرفك أن حاجتنا قد قضيت » ، قال : « فظننت أنهما قد أرسلتا إلى المحصل من يشفع لهما » ، قلت : « من الذي خاطب في هذا [١١٧] بالموصل ؟ » فقالا : « إن حاجتنا قد قضيت من السماء ، ولكافة أهل العقيمة » ، فظننت أن هذا مما حدثنا به نفوسهما ، ثم قاما عني ، فلم يمض غير عشرة أيام ، وإذا قد جاء كتاب من الموصل ، يأمران فيه بإطلاق المحبسين والمساحة والمكوس ، ويأمران بالصدقة . ويقال إن قطب الدين — يعني السلطان — مريض على حال شديدة ، ثم بعد يومين أو ثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته ، فعجبت من قولها ، واعتقدته كرامة لها ، قال : فصار والدي بعد ذلك يكثر إكرامها واحترامها ويزورها .

ذكر استيلاء سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي

على الموصل

كان النائب بالموصل والقيم بأمر الدولة بعد زين الدين علي كوجك فخر الدين عبد المسيح ، وكان خادما لقطب الدين ، وكان يكره عماد الدين لأنه (١) كان طوع عمه (١) نور الدين ، لكثرة مقامه عنده ، ولأنه كان زوج ابنته ، وكان نور الدين يُبغض فخر الدين عبد المسيح ، واتفق فخر الدين والخاتون (٢) ابنة حسام الدين تَمْرُ تاش [بن] إيلغازي — والدة سيف الدين — على صرف الملك عن عماد الدين

(١) الضمير هنا يعود على قطب الدين .

(٢) هي صفية خاتون وكانت زوجة لقطب الدين مودود ، انظر عنها وعن أبيها :

(Zambaur Op. Cit. PP. 33, 136. 227).

إليه ، فأجلس في الملك سيف الدين بن غازي بن قطب الدين مودود ، ورحل عماد الدين زنكي بن مودود إلى عمه نور الدين مستنصراً به ، وكان عمر قطب الدين لما توفي قريباً من أربعين سنة ، ومدة ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً .

وفي هذه السنة توفي الأمير مجد الدين بن الداية ، وهو رضيع نور الدين ، وكان أعظم الأمراء منزلة عنده ، وكان له من الإقطاع حارم ، وقامة جعبر ، فرد ما كان إليه إلى أخيه شمس الدين بن الداية .

ذكر استيلاء الملك العادل نور الدين — رحمه الله —

على الموصل ، وإقرار ابن أخيه سيف الدين عليها

ولما بلغ نور الدين — رحمه الله — وفاة أخيه قطب الدين بالموصل ، واستيلاء عبد المسيح واستبداده بالأمور أنف من ذلك وعظم عليه ، وكان شديد البغض لعبد المسيح — كما ذكرنا — فقصده الرقة ، في سنة ست وستين وخمسة ، فقتلها على عوض أعطاه النائب بها .

ومكي عماد الدين الطائب — رحمه الله — قال : « استدعاني نور الدين — ونحن بظاهر الرقة — ، وقال لي : قد أنست بك ، وأمنت إليك ، وأنا غير مختار للفرقة ، لكن المهم [١١٨] الذي عرّض لا يبلغ الغرض فيه غيرك ، فتمضى إلى الديوان العزيز جريدة ، وتُنهى إليه أني قصدت بيتي وبيت والدي ، فأنا كبيره ووارثه ، وتأخذ لي منه إذناً في ذلك ، وأنا ممثل لما يرد عليّ منه ، وأمر الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه أن يسيرني إلى الرحبة في رجال من عنده ،

وسرت منها إلى البرية غربي الفرات بخفير من بني خفاجة ، فوصلت ، وقضيت الحاجة ، ورجعت من عند الخليفة المستنجد بالله — وهو يحاصر سنجار — .

ولما ملك نور الدين الرقة سار إلى الخابور فملكه جميعه ، ثم ملك نصيبين ، وأقام بها بجميع العساكر ، فأتاه نور الدين محمود بن قرا أرسلان الأرتقي — صاحب الحصن — ، واجتمعت عليه العساكر ؛ ثم سار إلى سنجار فحاصرها ، ونصب عليها المجانيق ، وكان بها عسكر كثير من الموصل ، فكاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه ؛ وأشاروا بترك سنجار ، فلم يقبل منهم ، وأقام حتى ملك سنجار وسلمها إلى ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود ؛ ثم سار إلى الموصل فأتى إلى بلد ، وعبر دجلة من مخاضة عندها إلى الجانب الشرقي ، ثم سار حتى وصل شرقي الموصل على حصن نينوى ، ودجلة بينه وبين الموصل ؛ وبوصوله — أعنى وصول نور الدين — سقط من سور الموصل بدنة كبيرة .

وكان فخر الدين عبد المسيح قد سيره عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود إلى أتاك إيلدكز — صاحب بلاد الجبل وأذربيجان — ، وأراد يستنجدوه ، فأرسل إيلدكز رسولا إلى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل ، ويقول له : إن هذه البلاد للسلطان ، ولا سبيل لك عليها ، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته ، وكان بسنجار ، فسار إلى الموصل ، وقال للرسول : « قل لصاحبك أنا أرفق بيني وأخي منك ، فلا تدخل نفسك بيننا ، وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همدان ، فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام ، وأهملت الثغور ، حتى غلب الكرج^(١) عليها .

(١) الكرج أمة من المسيحيين ، كانت مساكنها بجبال القوقاز المجاورة لتفليس ، ثم استولوا على تفليس من المسلمين سنة ٥١٥ هـ ، ولم يزالوا متمسكين لها إلى أن أغار عليهم جلال الدين خوارزمشاه سنة ٦٢١ هـ واسترد تفليس منهم . انظر : *Allen: History of the Georgian People PP. 85-112.*

وبليتُ أنا بأشجع الناس — الفرنج — ، وأخذتُ بلادهم ، وأسرتُ ملوكهم ، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه ، فإنه يجب علينا الحفظ لما أهملت من بلاد الإسلام ، وإزالة الظلم [١١٩] عن المسلمين . وعاد الرسول بهذا الجواب .

ثم إن الأمراء الذين بالموصل كاتبوا نور الدين وأعلموه عزمهم على الوثوب بعبد المسيح وتسليم البلد إليه ، ولما علم عبد المسيح بذلك راسله في تسليم البلد إليه وتقديره على سيف الدين ، ويطلب الأمان وإقطاعا يكون له ، فأجابه إلى ذلك ، وقال : « لا سبيل إلى لقاءك بالموصل ؛ بل تكون عندي بالشام ، فإنني لم آت لأخذ البلاد من أولادي . وإنما جئت لأخلص الناس منك ، وأتولى أنا تربية أولادي » ، واستقرت القاعدة على ذلك ؛ وتسلم نور الدين الموصل ، ودخلها لثلاث عشرة ليلة مضت من جمادى الأولى من هذه السنة — أعني سنة ست وستين وخمسمائة — ، ونزل في القلعة ، وولى بالقلعة سعد الدين كُشْتِكِين ، وأبقى بالموصل سيف الدين غازي بن مودود ، واسم الملك له ، وقسم تركة قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة .

ذكر وفاة الخليفة المستنجد بالله (١)

أبي المظفر يوسف بن المقتفي وسيرته

كنا ذكرنا وفاة المقتفي لأمر الله في سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، ومصير الخلافة إلى ولده المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ، وأنه أقام بوزارته عون الدين

(١) أنظر ترجمته في : (ابن الجوزي : التنظم ، ج ١٠ ، ص ١٩٢ — ١٩٤ و ٢٣٦) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٤ — ١٣٥) و (سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣) و (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٧٩ — ٢٨٢) و (السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٣ — ٢٩٤) و (ابن دحية : النبراس ، ص ١٥٨ — ١٥٩) .

أبا (١) المظفر يحيى بن هبيرة (٢) — وزير والده — ، وكان عنده مظهراً كما كان عند والده ، ثم بعد ذلك جرت مشاحنة بين الوزير عون الدين وأستاذ الدار عضد الدين محمد بن عبد الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء ، واشتد الأمر بينهما (٣) ؛ وكان عضد الدين هذا متمكناً عند الخليفة المستنجد بالله ، فبقى عون الدين مدارياً له مستوحشاً منه [وطلب الإقالة من الخليفة فأقاله ، ولزم بيته (٤)] ، إلى أن توفي الوزير عون الدين ليلة الأحد ثالث عشر جمادى الأولى سنة ستين وخمسمائة .

وكان من أعيان الوزراء ، وكان إقطاعه في ديوان الخلافة (٥) في كل سنة ما يقارب مائة ألف دينار ، ومات وعليه ديون جمّة ، ولم يدخر ملكاً ولا ديناراً ولا درهماً ؛ وكان ابتاع داراً من (٦) صدقة بياب العامة ، فقيل له : باسم من تكتبه ؟ فقال : باسم الوكلاء — أجاهم الله تعالى — يعني وكلاء الخليفة ؛ فقيل له في ذلك ، فقال : « إن كنت في الوزارة فهذه الدار لي وغيرها ، وإذا عُرِزْتُ عنها فأرجو أن أمكن من الإقامة ببعض المساجد » .

وكانت مدة وزارته للخليفين المقتفي والمستنجد ، ست (٧) عشرة سنة (٨) .

(١) في الأصل : « أبو » .

(٢) أنظر ترجمته في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢١٤ — ٢١٧)

و (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٥ ، ص ٢٧٤ — ٢٨٧) .

(٣) بهذا اللفظ تبدأ ص (١٣٠) من نسخة س . وبذلك نمود للمقارنة بين نصي

النسختين : (ك ، س) .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادات عن س (ص ١٣٠) .

(٥) في س : « الخليفة » .

(٦) في س : « دارين صدقة » .

(٧) في س (١٣٠) : « سبع » .

(٨) يوجد في س (ص ١٣٠) بعد هذا اللفظ الجملة الآتية : « وقد ذكرناه في تاريخ

القاضي شهاب الدين على غير هذه الصورة » .

ثم توفي الخليفة المستنجد [٢٠] بالله يوم الجمعة سابع ربيع الآخر من هذه السنة - أعني سنة ست وستين وخمسمائة - فكانت خلافته إحدى عشرة سنة ، وشهراً ، وأحد عشر يوماً ، وكان يقظاً (١) شهماً عادلاً حسن السيرة ، وله شعر حسن ، ذكرنا بعضه ، ومما أنشده وزيره عون الدين بن هبيرة له [من قصيدة يقول (٢)] :

كُنْتُ عَدُوًّا مَبْرُزًا صَفَحْتَهُ أَوْ فَسَلْنِي إِذَا لَمْ تَكُ قِرْنِي
فِي اشْتِبَاهِ النَّاسِ وَدَيْنِهِمْ وَمَنَاوَاةِ إِلَيْهَا سَوْءِ ضَعْفِي
كَمْ عَدُوٍّ زَلَّ (٣) مِنْ ظَهْرِ أَبِي وَصَدِيقٍ أُمَّهُ مَا وُلِدْتَنِي

ذكر البيعة بالخلافة للمستضيء بنور الله

ابن المستنجد بالله

ولما توفي المستنجد بالله ببيع بالخلافة ولده الإمام المستضيء بنور الله أبو محمد الحسن بن المستنجد [بالله (٤)] بن المقتدي [لأمر الله (٤)] بن المستظهر في عصر اليوم الذي توفي فيه أبوه - وهو يوم الجمعة سابع ربيع الآخر - البيعة الخاصة ، وعمره إذ ذاك تسع (٥) وعشرون سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام ، لأن مولده في ثالث عشر شعبان سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، ويبيع يوم السبت غد هذا اليوم البيعة العامة ،

(١) مكان هذا اللفظ في س : « شجاعا » .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) س (س ١٣٠) : « نازل » .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادات عن س .

(٥) في س (س ٣٠ ب) : « سبع » ، وما هنا هو الصحيح ، فقد ولد المستضيء

سنة ٥٣٦ ، أنظر : المتن هنا و (السبوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٤) .

وأخذ له البيعة على الناس وزيره (١) عضد الدين بن رئيس الرؤساء ، وأقطع
(٢) المستضىء ما كان يجرى في إقطاع ابن هبيرة ، وأقطع قايمارز — مملوك والده (٢) —
الحلة وأعمالها ، (٢) وأقطع تماش وأخاه أردن — نسبي قايمارز (٣) — واسطا وقوشان ،
وطوق (٤) قايمارز ولقبه ملك العرب ، وسوره (٤) ، ولم يكتف لهم بذلك حتى حمل
إليهم من الأموال ما زاد على أمانتهم وأمالهم (٢) .

وبعث إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي خالمة — وكان بظاهر
الموصل — فلبسها ، ثم بعد دخوله الموصل خلمها على ابن أخيه سيف الدين .

وأطلق نور الدين المكوس بالموصل كلها ، وكذلك فعل في سائر ما فتحه
من البلاد ، وأمر بإنشاء الجامع النوري بالموصل ، وأقطع جزيرة ابن عمر لابن أخيه
سيف الدين غازي ، وكان مدة مقام نور الدين بالموصل سبعة عشر يوما ، ثم رحل
إلى الشام ، وفي صحبته فخر الدين عبد المسيح ، فغير اسمه نور الدين ، وصماه عبد الله .

ووصل [١٢١] [نور الدين] إلى حلب في شعبان ، وزوج سيف الدين غازي
ابنته ، وفوض القضاء بسنجار ونصيبين والخابور إلى الشيخ شرف الدين عبد الله
ابن أبي عصرون ، فولى بها نوابه ، ثم رحل نور الدين إلى دمشق وصام بها شهر
رمضان من هذه السنة ، ثم خرج بعد العيد إلى الحجيم ثم سار إلى عشترا .

(١) في الأصل : « وأخذ له البيعة على الناس كما كان وزيره ووزير أبيه بعده ابن هبيرة
عضد الدين الخ » ، وفي س (ص ٣٠ ب) : « وأخذ له البيعة على الناس ووزيره ووزير
أبيه عضد الدين الخ » وهو نص مضطرب المعنى في كليهما ، وقد حذفنا بعض الألفاظ ليستقيم
المعنى ، أنظر ترجمة هذا الوزير في : (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٨٠ — ٢٨٢) ،
واسمه بالكامل : « عضد الدين أبو الفرج محمد بن أبي الفتوح عبد الله بن رئيس الرؤساء » .

(٢) ما بين الرقبن غير موجود في س .

(٣) أنظر أخبار قايمارز وأقاربه في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٠٠) .

ص ٢٥٣ — ٢٥٥) .

(٤) أي ألبه الطوق والسوار .

وقد ذكر عماد الدين [الطائِب] في البرق أن السرية (١) التي خرجت (٢) لصاحب البيرة باللوبة كانت في هذه السنة بعد نزول نور الدين عَشْرًا ، وروى ابن الأثير أنها كانت في السنة الماضية ، وكان هذا هو الأقرب . والله أعلم بالصواب .

ذكر الأحداث الكائنة بمصر في هذه السنة

— أعني سنة ست وستين وخمسةائة —

وفي هذه السنة حرر (٣) صلاح الدين داراً كانت للمعونة (٤) بمصر مدرسة للشافعية ، ولم يكن بمصر للشافعية ولا لغيرهم مدرسة ، لأن الدولة كانت إسماعيلية ،

(١) في س (ص ٣٠ ب) : « السيرة » ، وما هنا هو الصحيح .

(٢) في الأصل : « جرت » ، وما هنا عن س ، أنظر أخبار هذه السرية بالتفصيل

في : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٣٢) .

(٣) في س (ص ٣٠ ب) : « خرب صلاح الدين داراً كانت للمعونة وبنها مدرسة

لشافعية » .

(٤) أشار المقرئ عند كلامه عن السجون إلى حبسين كان كل منهما يسمى « حبس المعونة »

أو « دار المعونة » ، الأول كان بالقسطنطينية : (الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٠٤) ، والثاني كان

بالقاهرة : (الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٤٢) ، والأول هو المقصود هنا ، وقد سميت هذه الدار

بالمعونة لأنها بنيت بمعونة الساميين ينزلها ولاتهم ، ثم عرفت بدار القفل ، وكان مكانها قبل جامع

عمرو بن العاص بالقسطنطينية ، ثم جعلت داراً للشرطة واستمرت كذلك إلى أن حولها يانس العزيزي

— صاحب الشرطة في عهد العزيز — إلى حبس عرف بالمعونة وذلك في سنة ٣٨١ هـ . ثم حوله

صلاح الدين أول توليته على مصر إلى مدرسة للشافعية ، وقد عرفت هذه المدرسة أول إنشائها

« بالمدرسة الناصرية » نسبة إلى الناصر صلاح الدين ، ثم عرفت باسم « مدرسة ابن زين

التجار » وهو أول فقيه تولى التدريس بها ، ثم عرفت بعد ذلك « بالمدرسة الشريفة » نسبة

إلى الشريف القاضي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين الأرموي قاضي المسكر ،

أحد من تولوا التدريس بها . انظر أخبار هذه المدرسة بالتفصيل في : (المقرئ : الخطط ،

ج ٤ ، ص ١٩٣) و (ابن دقان : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٩٣) ، وقال محمد رمزي

في محققاته في (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨٥ ، هامش ١) ان هذه المدرسة زالت ،

ومحلها اليوم أرض نضاء في الجنوب الشرق من جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة مشغولة

بأقنان الجير والفواخير .

ولم يكن لهم ميل إلى شيء من هذه المذاهب؛ ثم بنى — رحمه الله — دار الغزل (١) مدرسة للمالكية .

وقوّض القضاء بالديار المصرية إلى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذباني (٢) الشافعي ، فجعل صدر الدين القضاة في سائر الديار المصرية شافعية ، فاشتهر مذهب الشافعية (٢) واندرس مذهب الإسماعيلية بالكلية ، وانحى أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به .

خروج الملك الناصر صلاح الدين إلى الغزاة

ثم خرج صلاح الدين إلى جهاد الفرنج ، وأغار على الرملة وعسقلان ، وهجم ربض غزة ، ثم عاد إلى القاهرة ، ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله ، فأشفق عليها (٣) وخاف عليهم من الفرنج ، فخرج في النصف من ربيع الأول ، [فالتقى بالقافلة ، وخفرهم إلى مصر بما معهم سالمين ، ثم رد على عقبه (٤)] .

(١) ذكر (المقرئى : الحطّط ، ج ٤ ، ص ١٩٣ — ١٩٤) أن موضع هذه المدرسة يعرف بدار الغزل لأنه كان قيسارية يباع فيها الغزل ، ثم هدمها صلاح الدين وبني مكانها مدرسة للفقهاء المالكية وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة أهمها ضيعة بالفيوم ، كان يجمع منها قح كثير يوزع على فقهاء المدرسة ، ولهذا عرفت بعد ذلك « بالمدرسة القمحية » . انظر عنها أيضا : (ابن دقاق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٩٥) . وقال محمد رضوى في تحقيقاته (المرجع السابق) إن هذه المدرسة زالت ، ومكانها اليوم أرض فضاء في الجهة الشرقية من جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة بجوار أقنان الجير والفواخير .

(٢) هذه النسبة تدل على أن هذا القاضي كردى كصلاح الدين ومن نفس القبيلة التي ينتمى إليها ، وتحويل القضاء في مصر إلى المذهب الشافعي وتعيين قاضي قضاة كردى — والخليفة الفاطمي — لآزك حيا — إجراء له دلالة سياسية الواضحة .

(٣) في ص : « عليهم » .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن ص (١٣١) .

ذكر فتح قلعة أيلة

وكانت بأيلة (١) قلعة في البحر قد حصنها الكفار من الفرنج ، فعمر لها مراكب ،
وحملها إلى ساحل أيلة على الجمال ، وركبها الصناع هناك ، وشحنها بالمقاتلة ، وزحف
إلى القلعة ، ففتحت في العشر الأول من ربيع الآخر ، واستباح أهلها قتلاً وأسراً ،
وملاها (٢) بالعدد والعدد واجتمع (٣) بأهلها عليها ، ثم سار بهم إلى القاهرة (٤)
فدخلها في السادس والعشرين من جمادى الأولى .

ثم سار في [١٢٢] الثالث والعشرين من شعبان إلى الإسكندرية (٥) ليشاهدا
ويرتب قواعدها ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها .

وفي النصف من شعبان في هذه السنة اشترى الملك المظفر تقي الدين عمر بن
شاهنشاه (٥) بن أيوب بن أخي صلاح الدين منازل العز (٦) وجعلها مدرسة للشافعية ،
ووقف عليها وقفاً جليلاً .

(١) في س (١٣١) : « أيلة » .

(٢) في س : « وملاها من العدد والسلاح » .

(٣) مقابل هذا النص في س : « ثم رجم إلى القاهرة » .

(٤) عن الاسكندرية في عصر صلاح الدين انظر : (جاك الدين الشياك : الاسكندرية ،

طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢٢١ — ٢٢٦) .

(٥) في الأصل : « شاهان شاه » .

(٦) ذكر (القرزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٧٦) أن منازل العز بنيتها السيدة تغريد
أم العزيز بالله ، ولم يكن بمصر أحسن منها ، وكانت مطلة على النيل لا يحجبها شيء عن نظره ،
وما زال الخلفاء من بعد العز يتداولونها وكانت ممددة لزهتهم . ثم قال عند كلامه عن « مدرسة
منازل العز » في : (الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٤ — ١٩٥) ان تقي الدين عمر سكن منازل
العز مدة ثم اشتراها من بيت المال في شعبان سنة ٥٦٦ هـ ، وبناها مدرسة للشافعية . وقال محمد
رضي في تحقيقاته : (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨٦ ، هامش ١) إن مكانها اليوم مجموعة
البياني التي تحده من الغرب شارع مصر القديمة ، ومن الجنوب مدخل شارع الرحومي ، وحارة
الشرافوة وعطفة زاهر ، ومن الشرق جنبنة الجمعي وعطفة الأسرلي ، ومن الشمال شارع القبوة ،
وأما المدرسة نفسها فتعرف اليوم باسم جامع شهاب الدين أحمد الرحومي الذي يتوسط هذه المنطقة
بشارع الرحومي بمصر القديمة .

ذكر إقامة الدعوة العباسية بمصر

وانقراض الدولة العلوية بها

كان الملك العادل نور الدين — رحمه الله — لما تحقق ضعف الدولة المصرية ، وأنه لم يبق لهم منعة كتب إلى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد ويخطب للخليفة من بني العباس ، فاعتذر (١) صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلوية (١) ، فلم يصغ نور الدين إلى قوله ، وأرسل إليه يلزمه ذلك إلزاماً لا فسحة فيه ، ثم اتفق مرض العاضد ، فاستشار صلاح الدين الأمراء في قطع الخطبة له ، وكيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية ، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من خاف من الإقدام على ذلك ، إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال [أمر (٢)] نور الدين ؛ وكان قد رحل إلى ديار مصر رجل أعجمي يعرف بالأمير العالم (٣) ، فلما رأى ما بهم من الإحجام ، قال : « أنا أبتدى بها » .

-
- (١) الصيفة في س (٣١ ب) تختلف قليلاً عنها هنا ، وإنما هناك : « فاعتذر صلاح الدين من وثوب أهل مصر عليه ، وامتناعهم من ذلك لميلهم إلى العلويين » .
- (٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) .
- (٣) ذكر (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٨) أن هذا الرجل هو أول من خطب للاستضيء وذكر أنه وآء بنفسه بعد ذلك في الوصل . انظر أيضاً : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) ولكن (ابن الديبشي : تاريخه باختصار الذهبي ، ونشر الدكتور مصطفي جواد ، ج ١ ، ص ١٤٢) ذكر أن أول من خطب للعباسيين رجل آخر اسمه « محمد بن المحسن بن الحسين ابن أبي المضاء البجليكي أبو عبد الله » التوفي سنة ٥٧٢ هـ . فقد قال في ترجمته له : « وطاد إلى مصر ، واتصل بصلاح الدين سلطان مصر ، وهو الذي خطب للامام المستضيء بمصر ، ونفذه صلاح الدين رسولا إلى بغداد ، ثم رجع إلى دمشق فمات بها » . انظر أيضاً : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٣ ، ١٩٥) حيث أورد نص رسالة بقلم القاضي الفاضل ، مرسلة من صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء ، يندبه فيها بإقامة الخطبة له بمصر وأن من قام بالخطبة هو حامل الرسالة الخطيب شمس الدين بن أبي المضاء . انظر أيضاً : (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٣) و (القرظي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٠) .

فلما كان يوم الجمعة (١) من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة صدر المنبر قبل الخطيب ، ودعا للخليفة الإمام المستضيء بنور الله ، فلم ينكر [ذلك (٢)] أحد عليه ، فلما كانت الجمعة الآتية أمر صلاح الدين بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد ، وإقامة الخطبة المستضيء بنور الله ، ففعلوا ذلك ، فلم يتحرك مخالف لذلك ولا منكر له ، وانتظم الأمر ، وكتب الخطباء في ذلك في سائر الإقليم فخطبوا ؛ وكان العاضد قد اشتد مرضه ، فلم يُعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا : « إن سلم فهو يعلم ، فلا ينبغي أن نُنصَّ عليه هذه الأيام التي قد بقيت من أجله (٣) » .

ذكر وفاة العاضد

ثم توفي العاضد [١٢٣] في يوم عاشوراء من السنة ، وهو آخر خلفاء مصر ، وانقضت مدتهم ، ولكل شيء آخر ، فسبحان المتفرد بالأزلية والابدية .
وزكر ابن الأثير أنه لما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ليوصيه ، فظن أن ذلك خديعة ، فلم يرض إليه ، فلما توفي علم صدقه ، فندم على تخلفه عنه .

(١) في س (٣١ ب) : « أول جمعة » . وكذلك في الروضتين .
(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) .
(٣) اختلفت الآراء في أسباب موت العاضد ، وهل مات قبل أن تقطع الخطبة باسمه أم بعد ذلك وقد أورد (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٦) — نقلا عن ابن أبي طي — موجزا لهذه الآراء ، قال : « . . . وقيل إن العاضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة ، قال : لمن خطب ؟ قبل له : لم يخطب لأحد مسمى ، قال : في الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مسمى . واتفق أنه مات قبل الجمعة الثانية . قيل إنه افكر واستولى عليه الفكر والهـم حتى مات . وقيل إنه لما سمع أنه قطعت خطبته اهتم وقام ليدخل إلى داره فمثر وسقط ، فأقام متعللا خمسة أيام ومات . وقيل إنه امتص فص خاتمه وكان تحت سم فوات . ولما اتصل موته بالملك الناصر قال : لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما نصصناه برفع اسمه من الخطبة ، فحكى أن القاضي الفاضل قال للسلطان : لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يموت ، أشار إلى أن العاضد قتل نفسه . . . » .

وأما مؤلف كتاب الروضتين (١) فإنه حكى في كتابه أنه اجتمع بالأمير أبي الفتوح ابن العاضد وهو محبوس مقيد سنة ثمان وعشرين وستمائة ، فأخبره أبو الفتوح أن أباه في مرضه استدعى صلاح الدين فحضر ، قال : « وأحضرنا — يعني أولاده — ونحن صغار ، فأوصاه بنا ، فالتزم إكرامنا واحترامنا » ؛ ولما توفي العاضد جلس الملك الناصر للعزاء وأظهر البكاء والحزن عليه . ومشي في جنازته إلى قبره ؛ ثم تسلم القصر بما فيه من الخزان [والدخائر (٢)] ، والدقائر والدواوين .

وكان لما جرى لمؤمن الخلافة ما جرى وقتل ، وكل صلاح الدين بالقصر الأمير بهاء الدين قراقوش (٣) الأسدي ، وجعله زمام القصر مقام مؤتمن الخلافة فترتب في القصر فما كان يدخل إلى القصر شيء ولا يخرج منه شيء إلا بمراى منه ومسمع ، فضاق خناق (٤) أهل القصر بسببه ؛ فلما مات العاضد احتيط على أهله وأولاده في موضع خارج القصر في مكان أفرد لهم (٥) ، وفرر لهم شيئاً برسم الكسوة والنفقة

(١) انظر (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) .

(٢) ما بين الحاصرتين من ص (١٣٢) .

(٣) قراقوش كلمة تركية معناها الطائر الأسود ، وإن كان ابن خلكان قد ذكر أن معناها « العقاب » ، انظر ترجمته في : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥) و (ابن أبي الوفاء : الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ — ٤٤٤) ، (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٧٦ — ١٧٨) . و (الدكتور عبد اللطيف حمزة : كتاب حكم قراقوش) و (القرينى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢ — ٤) .

(٤) كتب كاتب أمام هذا اللفظ بالهامش من الأصل معناه باللاتينية هكذا « خناق

• « funis

(٥) روى صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ١٩٤) عن الأمير أبي الفتوح بن العاضد أن قراقوش « جعلهم في دار برجوان في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة ، وهي دار كبيرة واسعة ، كان عيشتهم فيها طيباً ، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها ، وأبعدوا عنها » .

وما يحتاجون إليه ، وجمع الباقين من عمومهم وعثرتهم^(١) في القصر في إيوان ، واحترز عليهم في ذلك المكان ، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناولوا ، ثم عرض من بالقصر من الجوارى والعبيد والعدد والآلات والذخائر النفيسة ، فأطلق من ثبتت حرية ، وذهب الباقي من الرقيق ، وأخلى الدور ، وأغلق القصور ، وأخذ ما صلح له ولأهله ولأمرائه وخواص ممالئكه وأصحابه من نفائس الذخائر والملابس ؛ ومن جملة ذلك : الدرّة اليتيمة ، والياقوتة الغالية القيمة ، والمصنوعات العنبرية ، والأواني الفضية ، والصواني الصينية ، والمنسوجات المغربية^(٢) ، [١٢٤] والمنسوجات^(٣) الذهبية ، وغير ذلك مما لا يقع عليه الاحصاء ؛ وأسرف في العطاء والبذل ، وأطلق البيع بعد ذلك فيما دون ذلك ، واستمر البيع مدة عشر سنين .

وكانت خزانة الكتب^(٤) لهم تزيد على مائة ألف وعشرين ألف مجلدة ، وفيها النفائس من الكتب التي لا يكاد يوجد مثلاً ، ومنها ما هو مكتوب بالخطوط المنسوبة التي لا توجد في خزانة أحد من الملوك ، فحُمل من الكتب إلى الشام ثمانية أحمال ، وترك الباقي فبيع بعضه ، وأطلق البعض لمن يختص به .

ونعكّ صلاح الدين الأملاك التي لهم ، وضربت الألواح على رباعهم ودورهم ،

(١) كتب أمام هذا اللفظ بهامش الأصل معناه باللاتينية هكذا : « عثرة » .

• « progenies familia » .

(٢) في س (٣٢ ب) : « الغربية » .

(٣) في الأصل : « الهروجات » وما هنا من : « الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤ » .
والمعراج نوع من القماش الثمين المنسوج بالذهب . هكذا عرفه (Dozy : Supp. Dict. Arab.)

بأنه : « nom d'une étoffe precieuse, brocarat d'or » .

(٤) لاستيفاء الكلام عن هذه المكتبة وقيمتها انظر : (القرظي : الخطط ، ج ٢ ،

ص ٢٥٣ — ٢٥٥) و (ابوشامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٠) و (الدكتور حسن

ابراهيم - حسن : الفاطميون في مصر ، ص ١٤٠ — ١٤١) .

ثم ملك بعضها خاصته وأمرأؤه ، وبعضها أذن ببيعه ، وتفتت آثارهم بالكلية ،
إن في ذلك لموعظة وذكرى لأولى الألباب ، [كما قال بعضهم (١)] :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت له عن عدوِّ في ثيابِ صديقٍ

وكان جميع من ولي الخلافة منهم بمصر أحد عشر خليفة (٢) ، وولى منهم بالمغرب

ثلاثة ، فكانت عدتهم أربعة عشر خليفة (٢) ، عدة خافاء بني أمية بالمشرق .

وقد تكلم الناس في أنسابهم فأكثرُوا وأطالوا ، فمن مصحح ومبطل ،

والله أعلم بغيبه ، وقد ذكرت ما قيل في ذلك في التاريخ الكبير (٣) ، إلا أن الذي

اعتقدته وحقته من تواريخ كثيرة أن القوم أذعيا للاحظ لهم في النسب الهاشمي ،

فمن المؤرخين من قال إن جدهم يهودي (٤) ، ومنهم من قال إنه من الفرس ، والنسابون

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٣٢ ب) .

(٢) في الأصل : « رجلا » ، وما هنا عن س .

(٣) المعروف أن ابن واصل ألف في التاريخ كتابين اثنين : أحدهما مفرج الكروب هذا ،

والثاني ألفه لذلك الصالح نجم الدين أيوب ، وسماه « التاريخ الصالحى » لأنه كان ينوى تقديمه

إليه ، والمرجح أن هذه الإشارة إلى التاريخ الكبير يقصد بها التاريخ الصالحى . وهو تاريخ

عام مختصر أرخ فيه ابن واصل للعالم الاسلامى منذ عهد الرسول إلى سنة ٦٣٧ هـ . وهي السنة

التي تولى فيها الصالح عرش مصر . انظر : (الدكتور جمال الدين الشياك : جمال الدين بن واصل

وكتابه مفرج الكروب) . وهو بحث لم ينشر بعد . و (C. Cahen : *La Syrie du nord*)

à l'Époque de Croisades. p. 70—71)

(٤) تردد القول بانتساب الفاطميين إلى أصل يهودى في كثير من المصادر التاريخية القديمة

وناقش هذا القول كثيرون من المؤرخين المحدثين ، أنظر مثلا : (ابن مالك الحمادى اليمنى :

كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، ص ١٧ — ٢٠) و (الجندى أخبار القرامطة —

ضمن تاريخ اليمن لمارة — ص ١٤٠) و (ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ،

ص ٧٥) و (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣) و (القرزى : اتعاظ الخفا ، نشر جمال الدين

الشياك ، ص ٥٥ — ٥٦) و (O'Leary : *The Fatimid Caliphate. p. 33—34*)

و (B. Lewis : *The Origins of Ismailism. p. 68.*)

من الفاطميين قد أطنبوا في ذلك وذ كروه في كتبهم ، وكتب الشريف المرتضى (١) الموسوى نقيب العلويين وأخوه الرضى (٢) خطهما بالفتح في نسبهم ، وأنهم ليسوا من ولد على بن أبي طالب — رضوان الله عليهم — ، وشهد بذلك أيضاً جماعة من أكابر العلويين (٣) ، ومما يشهد بذلك أن القوم كانوا لا يوصلون نسبهم ، بل ينسبون أنفسهم إلى عبید الله المهدي ، ثم يقولون : « ابن الائمة المستورين » ؛ ولو كان نسبهم صحيحاً لصرحوا كما صرح بنو العباس بنسبهم ، وأى حاجة بهم إلى الغنمة ؛ وغاية ما يقولون إن الثلاثة المستورين كانوا يسترون أنفسهم خوفاً من بنى العباس ، فهم لما ملكوا وقهروا وزال عنهم الخوف كان ينبغي [١٢٥] أن يصرحوا بأسماء أولئك ولا يكتفونهم ، إذ قد زالت العلة المقتضية للكتف ، ولقد حُكي أن رجلاً رمى ورقة إلى بعض خلافتهم (٤) وهرب فلم يعرف ، وكان في الورقة :

(١) أبو القاسم على الشريف المرتضى ، ولد سنة ٣٥٥ وتولى سنة ٤٣٦ ، تولى نقابة الطالبين نيابة عن أبيه — مدة حياته — ثم وإياها وحده سنة ٤٠٦ بعد وفاة أخيه الشريف الرضى ، كان شاعراً مجيداً كأخيه ، وله ديوان ومؤلفات في المذهب الشيعي ، انظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٣ — ٦) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٥٣) وانظر بيان مؤلفاته المطبوعة في : (معجم سر كيبس) .

(٢) أبو الحسن محمد الشريف الرضى ، ولد سنة ٣٥٩ وتولى سنة ٤٠٦ ببغداد . كان شاعراً ممتازاً ، وطبع ديوانه مرتين . انظر ترجمته بالتفصيل في : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٤٤ — ٤٨) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣ — ٤) و (المقرئى : اتماظ الحنفا ، ص ٣٨ ، هامش ١) .

(٣) انظر أسماء الذين وقعوا على هذا المحضر العباسي بالقدح في نسب الفاطميين في : (المقرئى : اتماظ الحنفا ، نصر الشيبان ، ص ٤٥ — ٤٦) .

(٤) حدث هذا في عهد الخليفة العزيز بالله ، أول ولاية على مصر . انظر : (النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١١٦) .

[إنا سمعنا نسباً منكراً] يُتلى على المنبر في الجامع [(١)]

إن كنت فيما تدعى صادقاً

فاكشف لنا عن جدك السابع (٢)

[وإن تُرد تحقيق ما قلته]

فانسب لنا نفسك كالطائع [(١)]

أو قنبر (٣) الأنساب مستورة

وادخل بنا في النسب الواسع

فإن أنساب بني هاشم

يقول (٤) فيها طمع الطامع

ولقد صدق كاتب هذه الورقة ، فإنما نجد الأشراف من بني هاشم والعباس (٥)

يصلون أنسابهم ويصرحون بها ، وهؤلاء يكتبونها ، فللكتمان علة لا محالة ، وما أظن

إلا أن غرضهم أنهم متى صرّحوا بالنسب بأن زيقهم عند النقاد ، فهذا

ما يتعلق بنسبهم .

و [أما (٦)] مذاهيبهم ، فدعوتهم باطنية إسماعيلية ، وعنهم انتشر دعاة الملاحدة

الباطنية في الآفاق ، وهذه المقالة معروفة في كتب المقالات والأصول ، فلامعنى

لايذاعها كتب التاريخ .

ورأى القوم في الإمامة بعد النبي — صلى الله عليه وسلم — لعل بن أبي طالب

— رضوان الله عليه — ثم للحسن بن علي ، ثم للحسين ، ثم لعل بن الحسين —

(١) أضفنا هذين البيتين من : (ابن خلكان : وفيات الأعيان) و (النجوم ، نفس الجزء

والصفحة) وإضاقتها ضرورية إذ بهما يتضح المعنى المقصود من الأبيات مكملة .

(٢) كذا في الأصل ، والمقصود « بالسابع » هنا : الأئمة الثلاثة المستورين والأئمة الأربعة

الذين حكموا في المغرب . وصيغة المرجعين السابقين : « فاذا ذكر أبا بعد الأب الرابع »

وهذه الصيغة فيما أرى أصح لأن آباء العزيز إلى الأب الرابع وهو المهدي معروفون ، وتصد

الشاعر أن يسأله عن الأئمة المستورين المجهولة أسماؤهم .

(٣) في النجوم : « فدع » .

(٤) في النجوم : « يقصر عنها » .

(٥) هذا اللفظ غير موجود في س .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س (١٣٣) ، وهو ضروري لايضاح المعنى .

زين العابدين ، ثم لابنه محمد الباقر ، — وطارقوا في ذلك الزيدية ، الذاهين إلى إمامة زيد — ، ثم لابن محمد جعفر الصادق بن محمد ، ثم لابنه إسماعيل بن جعفر — ، وطارقوا بذلك الإمامية الاثني عشرية القائلين بإمامة موسى بن جعفر ، وغيرهم من أصناف الإمامية — ، ثم لابن إسماعيل محمد بن إسماعيل ، ثم أنهم اعتقدوا أن الإمامة صارت بعد محمد بن إسماعيل في ثلاثة يسمونهم أئمة ستر ، ولا يبوحون بأسمائهم ، ولا ينطقون بذكرهم ، والثلاثة من ولد محمد بن إسماعيل ؛ وقد اختلف في أسمائهم اختلافاً كثيراً ثم إنهم قالوا : صارت بعد ذلك للمهدي عبيد الله (١) الظاهر بسجلماسة (٢) من بلاد إفريقية ، وقالوا إن بينه وبين محمد بن إسماعيل ثلاثة أباءم أئمة الستر ، لم يظهروا أمرهم خوفاً من أعدائهم بنى العباس ، ثم قالوا : إن الامامة صارت بعد ذلك لابنه القائم بأمر الله [١٢٦] أبي القسم محمد ، ثم لابن القائم المنصور بالله إسماعيل ؛ وتوفي المهدي وهذان بالمغرب ، ثم صارت لابن المنصور المعز لدين الله أبي تميم مَعَدَّ (٣) ، وهو أول من ملك الديار المصرية منهم ، دخلها غلامه جوهر في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وشرع في بناء القاهرة وقصور الخلافة بها .

ثم قدم المعز من المغرب واستقر بقصره في القاهرة في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، ثم صارت بعده لابنه العزيز بالله أبي المنصور نزار بن مَعَدَّ ، ثم لابنه الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور ، ثم لابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي ، ثم لابنه المستنصر بالله أبي تميم مَعَدَّ بن الظاهر بن الحاكم ؛ وطالت مدة خلافته حتى بلغت ستين سنة ، ولم يلب الخلافة أحد هذه المدة ؛ وهؤلاء كلهم على عمود النسب

(١) في س (٢٣ ب) : « ابن عبد الله » ، وما هنا هو الصحيح .

(٢) ذكر (ياقوت : معجم البلدان) ان سجلماسة مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد

السودان ، بينها وبين فاس عشرة أيام .

(٣) في س : « بمصر » وما هنا هو الصحيح .

ثم اختلفت الباطنية من هنا وافترقوا ، (١) وسبب افتراقهم (١) . أن أحد الدعاة
المسمى الحسن الصباح (٢) قدم على المستنصر بالله بمصر ، وطالب أن يكون داعياً له
ببلاد العجم ، فأجابه إلى ذلك ، فسأله عن الإمام بعده ، فذكر أنه قال : إنه ولده
نزار ، ولم يكن للمستعلي (٣) إذ ذاك ولد ، فمضى الحسن الصباح (٢) إلى بلاد العجم
فدعا للمستنصر وبعده لولده نزار ، وبث دعوة الباطنية هناك ، فلما توفى المستنصر
كانت الدعوة ببلاد العجم لنزار بن المستنصر وتسمى هذه الفرقة من الباطنية
« الزارية » ، ودعوتهم ببلاد الآموت (٤) بالعجم ، وببلاد الشام بمصياف (٥)

(١) ما بين الرقنين غير موجود في س .

(٢) في الأصل : « الحسن بن الصباح » . أنظر : (الدكتور طه شرف : دولة الزارية
أجداد أفاخان كما أسسها الحسن الصباح ، القاهرة ، ١٩٥٠) و (محمد عبد الله عنان : تراجم
إسلامية ، شرقية وأندلسية ، ص ٤٢ — ٦٠) و (Von Hammer : Geschichte der Assassinen)
قبحها جيداً صورة واضحة للحسن الصباح ودعوته وملكه وجهاده في سبيل نشر الدعوة
 وإقامة الملك .

(٣) كذا في الأصل ه وهو غير واضح المعنى . إذ أن الحسن الصباح وصل إلى مصر
سنة ٤٦٩ ه وذاورها في أوائل سنة ٤٧٢ ه . وكان عمر المستعلي وقتذاك سنتين أو ثلاث
(فقد ولد سنة ٤٦٧ ه) فكيف يكون له ولد أولاً يكون له في ذلك الحين . وإذا قرئ النص
على أنه « ولم يكن للمستعلي إذ ذاك ولد » فإن المعنى يظل غامضاً كذلك .

(٤) آموت قلعة جبلية في الشماك الشرق من بحر قزوين ، ومعنى آموت عش النسر . وكانت
هذه القلعة مقر الاسماعيلية الزارية إلى أن قضى عليهم المغول هناك سنة ٦٥٤ ه . انظر (دائرة
المعارف الاسلامية ، مادة « آموت ») .

(٥) هي عند (ياقوت : معجم البلدان) : « مصياف » ثم يقول : « وبمضمم يقول :
مصياف » ويعرفها بأنها حصن حصين مشهور للاسماعيلية بالساحل الشامى قرب طرابلس . ولكن
(R. Dussaud : Topographie Historique de la Syrie ... etc. p. 148 et suiv) يذكر
أن الرسم « مصياف » الوارد في (ياقوت) وحده خطأ . إذ لم يشاركه فيه غيره ، ولكنه
اعتماداً على المراجع الجغرافية الأخرى وعلى النصوص والوثائق التاريخية يذكر أنها
تنطق ظالماً « مصياد masyad » ولكنها تكتب في أشكال مختلفة : « مصياث masyath »
و « مصيات masyat » .

وقلاعها لئزار بن المستنصر^(١) وولده ، وإمامهم الذي يعتقدون إمامته يقولون إنه من ولد نزار بن المستنصر^(١) ، والله أعلم بذلك .

ولم يزل هؤلاء الذين ينتسبون إلى نزار ببلاد العجم إلى أن انتهى الأمر إلى آخرهم ، وهو ركن الدين خورشاه^(٢) بن علاء الدين محمد بن الحسن ، فحاصره هلاؤوا^(٣) ملك التتار^(١) — خذلهم الله تعالى — سنة خمس وخمسين وستمائة ، ثم ظفر به هلاؤوا^(١) قتلته ، وقتل من معه من الباطنية الملاحدة ، وبقيت لهم حصون بالشام ، ففتحها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ملك الإسلام والمسلمين ، وطهر البلاد منهم كما طهرها من سائر الشرك ، وكان نزار [١٢٧] الذي تنسب إليه النزارية ظهر بعد أبيه بالاسكندرية ، فقبض عليه وقتل .

وأما الباطنية المصريون فخالفوا هؤلاء في الإمام بعد المستنصر ، فقالوا : صارت الإمامة بعده للمستعلي بالله أبي القاسم محمد ، ثم لابن المستعلي الأمر بأحكام الله أبي علي المنصور ، ثم لابن عمه الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم أحمد بن المستنصر ، ثم لابن الحافظ الظافر بالله إسماعيل ، ثم لابن الظافر الفائر بنصر الله عيسى ، ثم لابن عمه العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ .

(١) ما بين الرقين غير موجود في س .

(٢) في الأصل : « خسرو » وقد صحح بعد مراجعة : (دائرة المعارف الإسلامية : مادة « الاسماعيلية ») ، وركن الدين خورشاه هو ابن علاء الدين محمد الثالث بن جلال الدين حسن الثالث . وقد ولي الحكم في الموت من ذى القعدة سنة ٦٥١ هـ إلى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) حيث استولى المنول — أثناء تقدمهم نحو الخلافة العباسية — على ملكه ، وقبضوا عليه وقتلوه في نفس السنة : انظر أيضاً : (الدكتور مصطفى طه بدر : محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية على أيدي المنول ، ص ١٠٨ ، ١١٦) ، (ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ٣١٢ — ٣١٤) .

(٣) كذا في الأصل ، والمقصود به « هولاكو » ويرسم هذا الاسم في بعض الكتب

العربية الأخرى هكذا : « هلاؤو » .

ثم لما توفى العاضد وزالت دولتهم قالت دعاهم : إن الإمامة بعده لابنه داوود ابن العاضد ، ولقبوه « الحامد لله (١) » ، ثم توفى داوود هذا في أيام الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب في الحبس ، ثم قالوا إنها صارت بعده لابنه سليمان (١) ابن داوود بن العاضد ، وكان هذا سليمان قد أدخلت أمه إلى داوود في الحبس سرّاً فوطئها داوود فحبلت بسليمان ، ثم نُحلت الجارية إلى الصعيد فولدت سليمان ، وترعرع (٢) وخفي أمره من الدولة الأيوبية عند بعض الدعاة ، فأعلم السلطان به ، وأظنه (٣) الملك الكامل بن الملك العادل ، فظفر به وحبسه بقلعة الجبل (٤) ، وسافرتُ إلى مصر سنة إحدى وأربعين وستمائة ، وكان سليمان هذا حياً ، وصمعت أن دعوة الإسماعيلية المصريين له ، ولهم فيه اعتقاد عظيم ، ورأيت من اجتمع به (٥) وتحدث معه ، فسأله عنه ، فأخبر (٥) أنه في غاية الجهل والغباوة ، ثم توفى هذا سليمان بن داوود ابن العاضد بقلعة الجبل في شهر شوال سنة خمس وأربعين وستمائة في أيام السلطان الملك الصالح بن الكامل — رحمه الله — ولم يخلف ولداً ذكراً فيما نعلمه ، وصمعت

(١) لم تنته الأسرة الفاطمية بموت العاضد ، بل بقي منها أفراد لبثوا زمناً في أسر الأيوبيين وهم يعتقدون بأحقيتهم في الخلافة ، وللتعرف على هؤلاء الأفراد وعلى الجهود الفاشلة التي بذلت في سبيل إعادتهم للحكم في بعض الأحيان انظر :

(Casanova : *Les Derniers Fatimides. Mémoires de La Mission Archéologique Française du Caire. Tome VI, 1893. P. P. 415-145*) ;

(S. M. Stern : *The Succession of the Fatimid Imam Al-Āmir, The Claims of the Later Fatimids to the Imamate, And the Rise of Tayyibi Ismailism. Oriens, Vol. 4, no. 2, P P. 193 ff*).

(٢) في الأصل : « ونزع » ، وما هنا عن س (١٣٤)

(٣) في س (٣٤ ب) : « وتطلبه » .

(٤) في س (٣٤ ب) قبل هذا اللفظ الجملة الآتية : « قال صاحب الكتاب جاك الدين

ابن واصل قاضي القضاة بحماة المحروسة » .

(٥) ما بين الرقين يقابله في س : « وتحدثت معه فسأته عنه فأخبرت . . الخ » وما هنا

هو الصحيح إذ به يستقيم المعنى ولاحظ ما لهذه الجملة من أهمية ، فهي تنص على وجود المؤلف في القاهرة في سنة ٦٤١ هـ ، وزيارته لقلعة أثناء مقامه بها .

بعض من ينتمى إلى مذهبهم يدعى أن له ولداً ذكراً قد أخفى أمره حسب ما كان يخفى سليمان والده ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

وبقى منهم رجلان محبوبان بقلعة الجبل بالقاهرة المحروسة ، شيخان ، جدهما (١) العاضد ، [١٢٨] وكان أحدهما واسمه القاسم قد بلغه أنى صنفت تاريخاً (٢) لسلطان الملك الصالح ، وذكرت فيه أخبار هؤلاء القوم وما قاله النسابةون فيهم ، وأن بعضهم قال إن أصلهم من اليهود ، فطاعت يوماً إلى القلعة المحروسة ، ودخلت على باب الحبس والقاسم بن ابن العاضد هذا قاعد على بابه ، فسأل عنى ، فعرف بى ، فاستدعانى ، فأتيته ، فقال : « أنت ذكرت أن نسبنا يرجع إلى اليهود ؟ » فحجبت منه ، وما أمكننى له إلا الاعتراف بذلك ، وأحلت الأمر على أقوال المؤرخين [فسكت (٣)] .

وبالجملة فمذاهب القوم رديئة مخالفة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم — وما كان عليه السلف الصالح ، واعتقادهم فى الإلهيات ينزع إلى رأى المتفلسفة ، وإنما سموا باطنية ، لأنهم ينزلون القرآن على معانٍ موافقة لرأيهم ، ويصرفونه عن ظاهره ، ولهم فى هذا الباب حديث كثير وخبث طويل ، وقد انتدب جماعة من أعيان العلماء للرد عليهم ، منهم : الشيخ أبو حامد الغزالي — رحمه الله —

(١) فى الأصل وفى س (٣٤ ب) : « أحدهما » ، وقد صححت كما بالمتن ليستقيم المعنى . وهذا نص نادر هام انفراد ابن داصل فيه بذكر بعض الحقائق عن بقايا الأسرة الفاطمية بعد زوال الدولة ، وفى (الروضتين) و (الخطاط للمقرئى) نصوص أخرى تتصل بالموضوع ، وقد أفاد من هذه النصوص جيداً (Casanova) فى بحثه السالف الذكر ،

(٢) يشير إلى (التاريخ الصالحى) وهو الكتاب التاريخى الثانى للمؤلف .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س (٣٤ ب) .

فإنه رد عليهم في كتاب له سماه : « المستظهير (١) » ، حكى فيه صورة مذهبهم ،
وبالغ في الرد عليهم والنقض لآقاويلهم .

وكان عمارة بن علي البني شديد التعصب لهم ، لأنه قدم عليهم من اليمن
فأحسنوا إليه وخولوه ، فرعى ذلك ووفى لهم ، والإنسان — كما قيل — صنية
الإحسان ، ولم يكن علي مذهبهم ، وإنما كان شافعيًا سنيًا ، فلما زال أمرهم وثام
بأحسن (٢) الشعر ، وذب عنهم باللسان إذ لم يمكنه التنب عنهم باليد ، ثم لما تحرك
جماعة في عود الأمر إليهم ، كان من جملة المساعدين على ذلك ، شكرًا
لهم على إحسانهم إليه ، فأدى به ذلك إلى أن شنيق — على ما سنذكره
إن شاء الله تعالى — ، فمن جملة قوله فيهم يرثيهم بقصيدة (٣) ، ذكرتها بجملة
لفرط حسنها وهي :

رَمِيَتْ يَا دَهْرُ كَنْتَ الْمَجْدِ بِالشَّلْلِ وَجِيْدَهُ بَعْدَ حُسْنِ الخَلِي بِالْعَطَلِ
سَعَيْتَ فِي مَنْهَجِ الرَّأْيِ العَثُورِ فَإِنْ قَدَرْتَ مِنْ عَثْرَاتِ الدَّهْرِ (٤) فَاسْتَقِلْ

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، أصله من غزالة ، قرية من أعمال طوس ، وكان والده
ينزل الصوف ويبيعه . توفي سنة ٥٠٥ هـ . وله مؤلفات كثيرة ، منها هذا الكتاب المثار إليه
هنا واسمه : (فضائح الباطنية وفضائل المستظهيرية) أو (المستظهير) ، أهداه إلى الخليفة
المستظهر العباسي ، وقد نشره الأستاذ كولدزير قطعة كبيرة منه ومنها مقدمة طويلة في المذهب
الباطني باللغة الألمانية . (Goldziher : *Streitschrift des Gazali Gegen die Batiniya-Sekte. Leiden. 1916*) .

وانظر أيضاً ترجمة الغزالي في : (ابن خلكال : الوفيات) و (السبكي : طبقات الشافعية ،
ج ٤ ، ص ١٠١ وما بعدها) و (الدكتور زكي مبارك : الأخلاق عند الغزالي : و (مركبس :
معجم المطبوعات العربية) .

(٢) في س : « بالشعر » .

(٣) لتصحيح هذه القصيدة رجعنا إلى الكتب التاريخية المختلفة التي أوردتها ، وخاصة :
(ديوان عمارة) و (الروضتين لأبي شامة) و (صبح الأعشى لفلقشندي ، ج ٣ ، ص ٥٢٦
وما بعدها) .

(٤) في (الروضتين) : « البني » .

جَدَعْتَ مَارِنَكَ الْأَقْنَى ، فَأَنْفَكَ لَا
 [١٢٩] هَدَمْتَ قَاعَةَ الْمَعْرُوفِ عَنْ عَجَلٍ
 لَهْنِي وَلَهْفَ بَنِي الْأَمَالِ قَاطِبَةً
 قَدِمْتُ مِصْرَ فَأَوْلَقْنِي خَلَائِفَهَا
 قَوْمٌ عَرَفْتُ بِهِمْ كَسْبَ الْأَلُوفِ ، وَمِنْ
 وَكُنْتُ مِنْ وَرَاءِ الدَّسْتِ حَيْثُ تَمَّأَ (٥)
 وَنِلْتُ مِنْ عُظْمَاءِ الْجَيْشِ تَكْرِمَةً
 يَا عَادِلِي فِي هَوَى أِبْنَاءِ قَاطِبَةَ
 بِاللَّهِ زُرْ سَاحَةَ الْقَصْرَيْنِ وَابْكِ مَعِي
 وَقُلْ لِأَهْلِيهِمَا : وَاللَّهِ مَا التَّحَمَّتْ
 مَاذَا تُرَى كَانَتْ الْإِفْرَنْجُ فَاعِلَةٌ
 [هل كان في الأمر شيء ؟ غير قصة ما

يَنْفَكَ مَا بَيْنَ أَمْرِ (١) الشَّيْنِ وَالْحَجَلِ
 سُقِبَتْ مُهَلًّا (٢) ، أَمَا تَمْشِي عَلَى مَهَلٍ ؟
 عَلَى فِجْيَعِيهَا (٣) فِي أَكْرَمِ الدُّوَلِ
 مِنَ الْمَكَارِمِ مَا أُرْبِي عَلَى أَمَلِي (٤)
 كَمَا لَهَا أَنهَا جَاءَتْ وَلَمْ أَسَلْ
 رَأْسُ الْحِصَانِ بِهَادِيهِ عَلَى الْكَفْلِ
 وَخَلَّةٌ حُرِسَتْ مِنْ عَارِضِ الْخَلَلِ
 لَأَنَّ الْمَلَامَةَ إِنْ قَصُرَتْ فِي عَدَلِي
 عَلَيْنِهَا (٦) ، لَا عَلَى صِفِينِ وَالْجَلِ
 فِيكُمْ جُرُوحِي ، وَلَا قَرَحِي بِمُنْدَمِلِ
 فِي نَسْلِ [آل] (٧) أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ ؟
 مَلَكَتُمُو بَيْنَ حُكْمِ السَّبِيِّ وَالنَّفْلِ (٨) ؟

- (١) في (الروضتين) : « نقي » .
 (٢) المهل ما ذاب من صفر أو حديد ، وهكذا فر في التذيل . (السان) ؛ وفي (صبح الأعشى) : « سقيت » مهلا . . . الخ » وهو اجتهاد غير موفق في قراءة النص .
 (٣) في (الروضتين) : « ليجعنا » .
 (٤) في (الروضتين) : « على الأمل » .
 (٥) في س (١٣٥) : « أنا » .
 (٦) في الأصل : « ونح عليها » ولا يستقيم بها الوزن ؛ وما هنا عن : (الروضتين) و (صبح الأعشى) .
 (٧) ما بين الحاصرتين عن س (٣٥ ب) ، و (الروضتين) ، ج ١ ، ص ٢٢٤ (صبح الأعشى) .
 (٨) هذا البيت غير وارد في الأصل ، وإنما ورد في (الديوان) وفي (الروضتين) و (صبح الأعشى) .

وقد حصلتُم عليها واسمُ جدِّكم
مررتُ بالقصرِ ، والأركانُ خاليةٌ
فمِلتُ عنها بوجهِ (٢) ، خَوْفَ مُنْتَقِدِ
أَسبَلتُ من أَسْنَى دَمْنَى غَدَاةَ خَلتُ
أَبكى على مَأْتِرَاتِ (٣) من مَكَارِمِكُمْ ،
دارُ الضَّيَافَةِ كانتِ أنسَ وإفدِكُمْ
وإِطْرَةَ الصُّومِ إِن أَصْنَتِ (٤) ، مَكَارِمِكُمْ
وَكُتُوَةُ النَّاسِ فِي الْفَصْلَيْنِ قَدْ دَرَسَتْ (٥) ،
ومَوْسِمٌ كانَ في يَوْمِ (٧) الْخَلِيجِ لَكُمْ
وأوَّلُ المامِ والعِيدِينِ (٨) كَمْ لَكُمْ
والأَرْضُ تَهْتَرُ في يَوْمِ القَدِيرِ كما (٩)
[١٣٠] وَالخَيْلُ تُعْرَضُ في وَشِي وَفِي شِيَةِ (١٠)

محمدٌ ، وأبوكم خَيْرُ مُنْتَمِلِ (١)
من الوفودِ ، وكانتِ قِبْلَةَ القِبَلِ
من الأَعادِي ، ووجهُ الوُدِّ لم يَمَلِ
رِحَابِكُمْ ، وَغَدَّتْ مَهْجُورَةَ السُّبُلِ
حالَ الزمانِ عليها ، وَهِيَ لم تَحُلِ
وَاليَوْمَ أَوْحَشُ من رَمَمٍ ومن طَلَلِ
تَشْكُو من الدَّهْرِ حَيْفًا غَيْرَ مُحْتَمَلِ
ورثٌ منها جَدِيدٌ عَنْهُمْ (٦) وَبَلِي
يَأْتِي تَجَمُّلِكُمْ فِيهِ على الجَمَلِ
فبَيْنَ من وَبَلِ جُودِ لَيْسَ بِالوَشَلِ
بَهْتَرُ ما يَبْنَ قَصْرِيكُمْ من الأَسَلِ
مثلَ العرائسِ في حَلِي وفي حَلالِ

- (١) كذا في الأصل وفي (صبح الأعشى) ؛ وفي (الديوان) و (الروضتين) :
« غير منتقل » .
- (٢) في «الروضتين» : « بوجهي » .
- (٣) في الأصل وفي «الروضتين» و «الديوان» : « ما تراءت » ، وما هنا عن :
« صبح الأعشى » .
- (٤) في «الصبح» : « إذا اضمحت » .
- (٥) في س : « دنست » .
- (٦) في «الصبح» : « عندم » .
- (٧) في «الروضتين» : « كسر » .
- (٨) في «الروضتين» : « والعبدان كان لكم » .
- (٩) في «الروضتين» : « عيد القدير بما » .
- (١٠) في «الروضتين» : « من وشي ومن شية » .

وما حملتم^(١) قري الأضياف من سعة ال
وما خصصتم^(٢) بيراً أهل مائتكم^(٣)
كانت رواتبكم للوافدين ،^(٤) وللضيء
ثم الطراز^(٥) يتنيس الذي عظمت^(٦)
وللجوامع من أحبائكم^(٧) نعم
وربما عادت الدنيا ، فمقلها^(٨)
والله لا فاز يوم الحشر^(٩) مبنضكم ،
ولا سقي الماء من حر ومن ظمأ
[ولا رأى جنة الله التي خلقت
أمتي ، وهداني ، والذخيرة لي ،
تالله لم أوفهم^(١٠) في المدح حقيهم
ولو تضاعفت الأقوال واستبقت
باب النجاة فهم ، دنيا وآخرة

أطباق إلا على الأكتاف والمعجل
حتى عمتم^(١) به الأضياف من الملل
ف المقيم ، وللطاري من الرسل
منه الصلوات لأهل الأرض والدول
لمن تصدرا في علم وفي عمل
منكم ، وأضحت بكم مخلوطة العقل
ولا نجا من عذاب النار غير ولي
من كف خير البرايا خاتم الرسل
من خان عهد الإمام العاصدين علي^(٧)
إذا ارتهنت بما قدمت من عمل
لأن فضلهم كالوابل المطلق
ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل^(٩)
وحبهم فهو أصل الدين والعمل

- (١) في (الروضتين) : « ولا حاتم » .
(٢) في (صبح الأعشى) : « أهل مائة » .
(٣) في (الروضتين) : « لذمتين » .
(٤) في الأصل : « التي عظمت من » ، وفي س (٣٥ ب) : « يلبس الذي » ،
وما هنا عن (الديوان) و (صبح الأعشى) .
(٥) في (الديوان) : « إحسانكم » ، وفي (الصبح) : « إحصائكم » .
(٦) كذا في الأصل وفي (الصبح) ، وفي (الديوان) : « لمقلها » .
(٧) أضيف هذا البيت عن (الديوان) .
(٨) في (الصبح) : « والله لم نوفهم » .
(٩) في س (١٣٦) : « كالخجل » .

نور الهدى ، ومصايبح الدحي ومح
 أئمة خلقوا نوراً ، فنورهم
 والله لا زلت عن حبي لم أبنا
 [عمارة قلها المسكين وهو على
 لُ الغيث إن وُنت الأنواء في المحل
 من نور خالص نور الله لم ينل
 ما أخرج الله لي في مدة الأجل
 خوف من القتل ، لاخوف من الزلل (١)]

ولما وردت البشارة على الملك العادل نور الدين - رحمه الله - بالخطبة بمصر
 للإمام المستضيء بنور الله أمير المؤمنين سرّاً بذلك ، وكتب إلى سائر الأطراف
 بالبشارة ، وندب القاضي شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن الشيخ شرف الدين
 ابن أبي عصرون بهذه البشارة إلى الديوان العزيز ، وأمر كاتبه عماد الدين الأصفهاني
 بإنشاء بشارة تُقرأ في سائر البلاد الإسلامية ، وبشارة أخرى خاصة [١٣١] تُقرأ
 بحضرة الإمام في مدينة السلام .

ونظم عماد الدين قصيدة مشتملة على ذكر الخطبة للدولة العباسية ، ويمدح فيها
 الإمام المستضيء بنور الله :

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى إمام العصر
 وخذلنا لنصرة العَضُدِ العَدِ حاضداً (٢) والقاصر الذي بالقصر
 واتبنا بها شعار بني العبد امس ، فاستبشرت وجوه النضر
 وترسنا الدعى يدعو (٣) ثبوراً وهو بالذل تحت حجرٍ وحصر (٤)
 وتباهت منابر الدين بالخطبة به لهايمي في أرض مصر

(١) أضيف هذا البيت عن (الديوان) .

(٢) في س (١٣٦) : « العاضل والقاصر بالقصر » .

(٣) في الأصل وفي س (١٣٦) : « بدعى » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ،

ص ١٩٨) .

(٤) في الأصل « وخسر » ، وما هنا عن : (الروضتين) .

وَلَدَيْنَا تَضَاعَفَتْ نِعْمُ اللَّهِ
 وَاعْتَدَى الدِّينُ ثَابِتَ الرُّكْنِ فِي مِثْرٍ
 وَاسْتَنَارَتْ عَزَائِمُ الْمَلِكِ الْعَا
 فَبَنُو الْأَصْفَرِ الْقَوَائِمُ (١) مِنْهُ
 عَرَفَ الْحَقُّ أَهْلَ مِصْرَ ، وَكَانُوا
 هُوَ فَتَحَ بَكْرٌ ، وَدُونَ الْبَرَايَا
 وَحَصَلْنَا بِالْحَمْدِ وَالْأَجْرِ وَالنَّهْ
 وَنَشَرْنَا أَعْلَامَنَا السُّودَ ، قَهْرًا
 وَاسْتَعَدْنَا مِنْ أَدْعِيَاءِ حُقُوقًا
 وَالذِي يَدْعِي الْإِمَامَةَ بِالْقَا
 خَانَهُ الدَّهْرُ فِي مَنَاهُ ، وَلَا يَطُ
 مَا يُقَامُ الْإِمَامُ إِلَّا بِحَقِّ
 خُلَفَاءِ الْهَدَى ، سَرَاةُ بَنِي الْعَبَّ
 بِهِمُ الدِّينُ ظَافِرٌ مُسْتَقِيمٌ
 [١٣٢] كَشْمُوسِ الضُّحَى ، كَمِثْلِ بُدُورِ
 قَدْ بَلَّغْنَا بِالصَّبْرِ كُلَّ مُرَادٍ ،
 لَيْسَ مُثْرَى الرِّجَالِ مِنْ بَيْتِكَ الْمَا
 ، وَجَلَّتْ عَنْ كُلِّ عَدِيٍّ وَحَصْرٍ
 رَ مَحُوطَ الْجَمِيِّ ، مَصُونِ الثَّنِيرِ
 دِلِ نُورِ الدِّينِ الْكَرِيمِ الْأَغْرَ
 فِي وَجُوهٍ — مِنَ الْحَقَاقَةِ — صُفْرٍ
 قَبْلَهُ بَيْنَ مُنْكَرٍ وَمُفِرٍّ
 خَصْنَا اللَّهُ بِإِفْتِيحِ الْبِكْرِ
 مِ رِ وَطِيبِ الثَّنَا وَحُسْنِ الذِّكْرِ
 لِعِدَى الزُّرْقِ ، بِالْمَنَابَا الْحَمْرِ
 تَدْعَى بَيْنَهُمْ لَزِيدٍ وَعَمْرٍو
 هِرَّةً انْحَطَّ فِي حَضِيضِ الْقَهْرِ
 مَعَ ذُو اللَّبِّ فِي وَقَاءِ الدَّهْرِ
 مَا تُحَازُ (٢) الْحَسَنَاءُ إِلَّا بِمَهْرٍ
 لَسِ ، وَالطَّيِّبُونَ أَهْلُ الظَّهِرِ
 ظَاهِرٌ قُوَّةً ، قَوِيٌّ الظَّهِرِ
 سَمٌ ، كَالشَّجْبِ ، كَالنُّجُومِ الزُّهْرِ
 وَبُلُوغُ الْمُرَادِ عُقْبَى الصَّبْرِ
 لَ ، وَلَكِنَّمَا أَخُو اللَّبِّ مُثْرَى

(١) كذا في الأصل وفي الروضتين ؛ وهي في س (٣٦ ب) : « الفواجر » .

(٢) في الأصل وفي س : « بخار » ، وما هنا عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٨) .

ولهذا لم يَنْتَقِعْ صَاحِبُ الْقَصْرِ وقد شَارَفَ الدُّورَ بِدُفْرِ
دَامَ نَصْرُ الْهُدَى بِمَلِكِ بْنِ الْعَبَّاسِ حَتَّى يَقُومَ يَوْمَ الْحَشْرِ

ولما وصلت البشارة إلى الديوان العزيز النبوي قوبلت بالإكرام والإعظام
والإينعام التام ؛ وكان وصول البشارة بذلك يوم السبت ثمانين بقين من المحرم من هذه
السنة - أعني سنة سبع وستين وخمسمائة - ، فجلس الوزير عضد الدولة ابن رئيس
الرؤساء في الديوان ، واستحضر أرباب المناصب والدولة والخواص والأمراء وأشار
إلى كاتب الإنشاء أبي الفرج ابن الأنباري (١) ، بقراءة مکتوب الملك المادل
نور الدين ، ثم تلى بمکتوب بَرَزَ بِحِطِّ الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَضَى بِنُورِ اللَّهِ ، يتضمن الشكر لله
على ما أباحه من عودة الحق إلى مستقره .

وكان مبدأ انقطاع الخطبة العباسية بها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وعادت
الخطبة العباسية بها سنة سبع وستين وخمسمائة ، فكان مدة انقطاع الخطبة العباسية
بمصر نحو من مائتي سنة وتسع (٢) سنين .

ووصل إلى الشام جواب البشارة مع عماد الدين صندل (٣) المقتفوي ، وهو إذ
ذاك أستاذ الدار العزيزة ، ولم يرد من بغداد رسول مثله في جلالته وعظمة قدره ؛
وورد صحبته الشريف الشريف لنور الدين مكملاً بالأهبة (٤) السود والحلل الموشية ،
والطوق الذهب الثقيل ، واللواء (٥) الجليل ؛ وحضر الرسول عند نور الدين ،
وحضر أكابر الدولة والخواص ، وكان يوماً مشهوداً ؛ وقرأ موفق الدين خالد

(١) انظر ما فات هنا ، ص ٥٨ ، هامش ٣

(٢) في س : « سبع » ، وهو خطأ .

(٣) في (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٩) : « عماد الدين بن صندل » .

(٤) أهبة الحرب عدتها ، والجمع أهب . (اللسان) .

(٥) في س (١٣٧) : « الأوأؤ » وما هنا هو الصحيح ، انظر : الروضتين ، ج ١ ،

ابن محمد بن صغير القيسراني (١) كتاب الديوان ، ثم لبس نور الدين الفرجية (٢) ،
وتقلد بالسيفين (٣) ، ووضع في عنقه الطوق (٤) ، وخرج راكباً من داخل القلعة
والواء الأسود منشور على رأسه ، وقُدِّم له مركوبان ، أحدهما ركبه ، والآخر
كان جنياً [١٣٣] بين يديه ، محلى بحليته ، وجمع له بين تقليدي السيفين
الإشعار بتقليده الاقليمين : الشام والديار المصرية ، وخرج إلى ظاهر دمشق ،
ونثر عليه الذهب ، وانتهى في تسييره إلى الميدان الأخضر ، ثم عاد إلى القاعة .

وكان صحبة الرسول تشریفٌ للملك الناصر صلاح الدين جليل كثير ، لكنه
دون تشریف نور الدين ، فسبّره نور الدين — رحمه الله — إليه ، وسبّراً أيضاً
خلعاً من عنده برسم الأمراء من أصحابه .

(١) القيسراني نسبة إلى قيسارية بليدة بالشام على ساحل البحر ، وقد ذكر صاحب
الروضتين — نقلاً عن البرق الشامي للمهنا — أن خالداً كان بمثابة الوزير لنور الدين ، ولم
أعثر له على ترجمة وإنما ترجم (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٨٢ — ٨٥) لآبيه ٤٤
ابن نصر بن صغير القيسراني ، وكان شاعراً مشهوراً ، وتوفي سنة ٥٥٤٨ هـ .

(٢) عرفها : (Dozy : *Dictionnaire Détaillé des Noms des Vêtements*.
p. p. 327—334 ; *Supp. Dict. Arab*). بأنها « نوع من القباء المسترسل ، ويصنع
غالبا اليوم من الجوخ وله أكمام واسعة طويلة تتعدى أطراف الأصابع ، وهي غير مفتوحة
او مشقوقة ، "est une robe flottante, faite ordinairement aujourd'hui de drap,
à manches amples et longues qui dépassent un peu l'extrémité des doigts,
et qui ne sont point fendues".

(٣) ذكر صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ١٩٩) — نقلاً عن البرق الشامي للمهنا الكاتب —
أن معنى إرسال الخليفة سيفين لنور الدين إنما هو رمز لتقليده ولاية مصر والشام مما فقد
كان المهنا حاضراً الحفل الذي قدمت فيه هذه الخاتم وانتشاريف إلى نور الدين ، قال — فيما
رواه عنه صاحب الروضتين — : « وسألت عن معنى تقليده السيفين ، فقيل لي : هما للشام
ومصر ، ولجمع بين البلادين » وهو ما يؤكد التثنية هنا بعد سطور قليلة .

(٤) ذكر صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ١٩٩) — نقلاً عن البرق الشامي للمهنا —
أن وزن هذا الطوق مع أكرته كان ألف دينار من الذهب الأحمر ، وهذا وتشابه النص هنا
وفي الروضتين يدل دلالة واضحة على أن مصدرهما الذي ينقلان عنه واحد ، وهو البرق الشامي
للمهنا الأصفهاني ، وقد اعترف أبو شامة صراحة بالنقل عنه ، أما ابن واصل فقد نقل دون
النص على مرجعه .

ولما وصل الشريف الخليفة إلى مصر لبسه الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله — وركب به ، وذلك في الحادى والعشرين من رجب من السنة المذكورة ، وهى أول خلع عباسية دخلت مصر بعد انقراض دولة العلوية ، ووصل أيضاً إلى مصر أعلام ورايات سود ، وأهَبَ عباسية للخطباء بسائر الأعمال المصرية ، ففرقتها صلاح الدين على الجوامع والمساجد والقضاة والعلماء ، واستقر قدم بنى أيوب بمصر ، واستنبت الملك لهم ، فى ذلك يقول عرقلة الدمشقى :

أَصْبَحَ الْمَلِكُ بَعْدَ آلِ عَلِيٍّ مُشْرِقًا بِالْمُلُوكِ مِنْ آلِ شَاذِي
وَعَدَا الشَّرْقُ يَحْمِيدُ الْغَرْبَ لِلْقَوِّمِ ، وَمَصْرُ تَزْهُوٍ عَلَى بَغْدَادِ
مَا حَوَّوْهَا إِلَّا بِعَزْمٍ وَحَزْمٍ وَصَلِيلِ الْفَوْلَادِ فِي الْفَوْلَادِ
لَا كَفِرْعَوْنَ وَالْعَزِيزِ ، وَمَنْ كَانَتْ بِهَا كَانَطِيبِ وَالْأُسْتَاذِ

وفى هذه السنة — أعنى سنة سبع وستين وخمسةائة — خرجت من مصر مراكب ، إلى الشام فأخذ الفرنج فى اللاذقية منها مركبتين مملوءتين من الأمتعة (١) والتجار ، وغدروا بالمسلمين ، وكانوا قد هادنوا نور الدين — رحمه الله — ونكثوا ، ولما بلغ ذلك نور الدين راسلهم فى إعادة المركبتين فمالظوه ، واحتجوا بأن المركبتين كان قد دخلهما ماء البحر (٢) الكسر فيها (٢) ، وكانت العادة جارية بأخذ كل مركب يدخله الماء ، وكذبوا فى ذلك ، فلم يقبل مغالطتهم ، وجمع العسكر من الشام والموصل والجزيرة ، ووصل ابن أخيه سيف الدين غازى بن مودود إلى خدمته ، ثم بثَّ السرايا نحو أنطاكية وطرابلس ، وحصر هو [١٣٤] حصن عرقا ، وأخرب ريبضه ، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصن صافيتا وعزيمة ، فأخذوها

(١) فى الأصل : « أمتة التجارة » ، وفى س (٢٧ ب) : « الأمتة والتجار » وما هنا

عن : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٤٠) .

(٢) هذان اللفظان غير موجودين فى س .

عنوة، [وقتل كل من فيها وسبي^(١)]، وخرب، وغنم المسلمون غنائم كثيرة،
وعادوا إليه وهو بعرة .

وسار [نور الدين] بالمساكر نحو طرابلس فراسله الفرنج وبذلوا له إعادة^(٢)
ما أخذوه من المركين، وطلبوا تجديد الهدنة، فأجابهم إلى ذلك، [وردت المركبان
بما فيها إليه ولم ينفذ منها شيء^(٣)] .

ذكر ابتداء الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين

— رحمهما الله تعالى —

وفي هذه السنة أرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بجمع المساكر المصرية
والمصير بها إلى بلاد الفرنج، والتزول بها على الكرك ومحاصرتة، ويجتمعها هناك
على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم، فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين
من المحرم من [هذه^(٣)] السنة، وكتب إلى نور الدين أن رحيله لا يتأخر،
وكان نور الدين قد جمع المساكر وتجهز^(٤)، فأقام ينتظر ورود^(٥) الخبر من صلاح الدين
ورحيله ليرحل هو، فلما أتاه^(٥) الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكرك،
فوصل إليه، وأقام ينتظر صلاح الدين، فأناه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال
أحوال البلاد^(٦)، وأنه يخاف عليها من البعد عنها، فعاد إليها، فلم يقبل نور الدين
عذره ورجع .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٣٨)، ومكان هذه الجملة في الأصل: « وكذك
غيرها » .

(٢) هذا اللفظ غير موجود في س

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات عن س (١٣٨) .

(٤) في س: « وتجهزوا » .

(٥) هذه الجملة ساقطة من س .

(٦) في س (١٣٨): « باختلال البلاد وأحوالها » .

قلت : هكذا ذكر بعضه المؤرخين ، ولم يذكر غيره أن نور الدين نازل الكرك في هذه السنة ، بل كلهم ذكر أن نور الدين كاتب صلاح الدين بالمسير إلى الكرك ، فخرج متوجهاً إليها ، ثم عاد ، وكان السبب في عود صلاح الدين أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين (١) .

ولما لم يمثل صلاح الدين أمر نور الدين عظم ذلك عليه ، وعزم على الدخول إلى الديار المصرية وإخراج صلاح الدين عنها ، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب ، وخاله شهاب الدين الحارثي ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم بما قد عزم عليه نور الدين في قصد وأخذ مصر منه ، واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء ، فقام ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه [١٣٥] بن نجم الدين أيوب ، وقال : « إذا جاء قاتلنا وصددناه عن البلاد » ، ووافقته غيره من أهله ، فشتهم نجم الدين أيوب ، وأنكر ذلك عليهم غاية الإنكار ، وقال لصلاح الدين : « أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك ، أتظن في هؤلاء كلهم من بحك ويريد لك الخير مثلنا ؟ » فقال : « لا » ، فقال : « والله لو رأيتُ أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل إليه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا ؟ وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ، ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها ، فإن أراد عزك عزك (٢) ، وأى حاجة له إلى الحجى ؟ يأمر بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ، ويولى بلاده من يريد » ، وقال للجماعة كلهم : « قوموا عنا فنحن

(١) صيغة س مختلف قليلا ، وهي : « بنور الدين فناد إلى مصر ولم يمثل أمر نور الدين ، فلما بلغ نور الدين ذلك عظم عليه . . . إلخ » .

(٢) في س (٣٨ ب) : « فان أراد عزك فأى حاجة . . . إلخ » .

ممالك نور الدين وعبيد: يفعل بنا ما يريد ، ، وتفرقوا على هذا الحال ، وكتب
أكثرهم إلى نور الدين بالخبر ، ولما خلا نجم الدين بابنه صلاح الدين قال له :
« أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك ، فإذا
سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك من أهم أموره وأولاهما بالقصد ،
ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً ، وكانوا يسلمونك إليه ، وأما الآن بعد
هذا المجلس سيكتبون إليه ويعرفونه قولي ، فتكتب إليه وترسل في هذا المعنى ،
وتقول : « أى حاجة إلى قصدي ؟ نجاب يأخذني بجبل يضعه (١) في عنقي » ، فهو
إذا سمع هذا عدل عن قصدك (٢) واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تدرج ،
والله كل يوم في شأن » ، فلم صلاح الدين صحة ما أشار به والده [ففعل ما أمره
به (٣)] ، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا عدل عن قصده ، واندرجت الأيام
— كما قال نجم الدين (٤) — وكان ما سذكروه إن شاء الله تعالى .

(١) في س : « يصوره » .

(٢) في س : « قصده اليك » .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (١٣٩) .

(٤) المصدر الأصلي لهذه القصة هو (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٩) وقد نقلها
عنه مع تغييرات طفيفة (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤) ، ونص
ابن واصل هنا متفق مع نص أبي شامة . والأستاذ محمد فريد أبو حديد رأى مخالف في هذا
الموضوع . أنظر كتابه : (صلاح الدين الأيوبي وعصره ، ص ٧٣ — ٨١) . والذي نراه
أن ابن الأثير يتلمس المناسبات أحياناً لغمز صلاح الدين ونقده وخاصة عند المقارنة بينه
وبين نور الدين ، وقد يكون لنشأته في الموصل — موطن نور الدين والبيت الأتابكي عموماً —
أثر في هذا . أنظر رأى الأستاذ جب في هذا الموضوع في : (H.A.H, Gibb : The
Arabic Sources for the Life of Saladin. Speculum. vol. XXV. No. 1 January
19٠0. pp. 58-74).

ذكر منازلة السلطان الملك الناصر صلاح الدين

— رحمه الله — السكر والشوبك

وفي سنة ثمان وستين وخمسمائة خرج صلاح الدين — رحمه الله — في النصف من شوال قاصداً الغزاة ، ومعه ما هو [١٣٦] برسم الهدية إلى نور الدين ، وهو : الفيل والحجارة العتائية (١) وذخائر وأمتعة من القصر مستحسنة ، وآلات مئنة ، وقطع بلور (٢) ويشم (٣) ، وأوان لا يتصور وجود مثلها ، وثلاث قطع بلخش (٤) أكبرها نيف وثلاثون مثقالا ، والثانية ثمانية عشر ، والأخرى دونها ، ومعها لؤلؤ نفيس ، وستون ألف دينار ، وغرائب من المصنوعات ، وطيب وعطر ، وغير ذلك ؛ فوصل (٥) إلى بلاد السكر والشوبك ، فنازلها ونازل غيرها من الحصون ، فأخرب عماراتها ، وشن الغارات على أعمالها .

(١) المقصود هنا أن هذه واحدة من حمر الوحش المخططة ، وقد ذكر (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٢٢ — ٢٣) و (ابن الأثير : الباب في تهذيب الأنساب) أن «العتابي» نسبة إلى «العتابين» وهي إحدى محال بندااه في الجانب الغربي منها ، وكانت إقطاعاً لكتاب — أحد رجال بني أمية — فسميت باسمه ، وقد اشتهرت هذه المحلة بانتاج نوع من النسيج المخطط ومن هنا كان يوصف هذا النوع من الحمر بأنه عتابي تشبهاً له بهذا النسيج . انظر أيضاً (Dozy : Supp Dict. Arab).

(٢) وترسم أيضا « بلور » وهي مصرية عن اليونانية « Beryllos » لخذف منها سين الاعراب ، ثم وقع فيها القلب . انظر : (ابن الأكفاني : نخب الذخائر في أحوال الجواهر ، تعليقات الاب انستاس ماري الكرملي ، ص ٦٣ ، هامش ١) .

(٣) ويقال فيه « اليشب » وهو حجر ثمين قريب من الزبرجد ، ومنه الأبيض ، والأصفر والذهبي — وهو أفضلها — . انظر : (المرجع السابق ، ص ٧٢) و (البروني : كتاب الجواهر في معرفة الجواهر ، ص ١٩٨)

(٤) جوهر أحمر شفاف يضاهي فائق الياقوت في اللون والرواق ، سمي هكذا نسبة إلى موطنه « بلخشان » حيث يكثر وجوده ، وأهل إيران يسمونه « بذخشان » وهو إقليم يقع في أقصى شرق أفغانستان . انظر : (ابن الأكفاني : المرجع السابق ، ص ١٥ — ١٥)

(٥) في س (١٣٩) : « فتصد » .

ذكر وصول الهدية المصرية إلى نور الدين

وسير الهدية إلى نور الدين، وكتب إليه بالإشياء الفاضل: «سبب هذه الخدمة إلى مولانا السلطان الملك العادل أعز الله سلطانه، ومدّاً أبدأ إحسانه، ومكناً بالنصر إمكانه، وشيّد بالتأييد أركانه، ونصر أنصاره وأعان أعوانه: علم الملوك بما يؤثرونه المولى بأن يقصد الكفار بما يقص (١) أجنحتهم، ويقتل (٢) أسلحتهم، ويقطع موادهم، ويخرب بلادهم؛ وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أن لا يبقى في بلادهم أحد من العربان، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان، ومما اجتهد فيه عامة (٣) الاجتهاد، وعدّه من أفضل (٤) أسباب الجهاد، ترحيل كثير من أنفاسهم، والحرص في تبديل دارهم، إلى أن صار (٥) العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلاً (٦).

-
- (١) في الأصل: «بعض»، وقد صححت بعد مراجعة س والروضتين .
(٢) في الأصل، وفي س (١٣٩): «يقتل»، وفي (الروضتين، ج ١، ص ٢٠٦): «يقتل»، وما هنا قراءة ترجيحية يقتضيا المعنى .
(٣) كذا في الأصل، وفي س (١٣٩): «من الاجتهاد»، وفي (الروضتين، ج ١، ص ٢٠٦): «غاية الاجتهاد» .
(٤) كذا في الأصل وفي س، وفي (الروضتين): «أعظم» .
(٥) في س: «إلى أن يصير العدو إذا نهض... الخ» .
(٦) هذه قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين ليبيّن له فيها القصد من خروجه لمهاجمة الكرك والشوبك، وكانت هذه أول غزوة غزاها صلاح الدين من مصر في أوائل سنة ٥٥٦٨ هـ وقد أوضح (بهاء الدين بن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٦) الغرض من هذه الغزوة وأهميتها بقوله: «وإنما بدأ بها - أي الكرك والشوبك - لأنها كانت أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يبرها بلاد العدو، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض، وتسهل على السابلة، فخرج قاصداً لها لمخاصرها، وجري بينه وبين الأفرنج وقعات، وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء» .

ولما وصلت الهدية والرسول إلى نور الدين استقل الهدية واستنزلها ، ولم تقع منه بموقع ، ولكنه أظهر شكر صلاح الدين ، ووصف فضيلته ، وقال : « ما كان بنا حاجة إلى هذا المال ، وهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر وبنا فقر إلى هذا الذهب ، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جدنا به مقدار ، [وتمثل بقول أبي تمام (١)] :

لم يُنْفِقِ الذهبَ المُربى بِكثْرتهِ على الحِصا وبه فقَرُ إلى الذهبِ

لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى وفور العدد من الجند ، وقد عمّ البلاء بالفرنج ، فينبغي أن تقع المساعدة والمعاونة بالأمداد ، ثم أخذ يفكر فيما يفعله من هذا المهم .

[١٣٧] قال عماد الدين الأتقي في البرق : « وصلت الحمار ، وكثرت

لها النظارة ، والفيل وصل إلينا [في سنة تسع وستين (٢)] ونحن بحلب في الميدان الأخضر ، فأهداه نور الدين إلى ابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود — صاحب الموصل — مع شيء من الثياب والعود والعنبر ، فسيره سيف الدين إلى الخليفة مع تحف وهدايا (٣) ، وسير نور الدين الحمار العنابية إلى الخليفة مع هدايا وتحف سنوية (٤) .

وفي هذه السنة أغار العدو على الجولان (٥) ونزلوا محسكين (٦) ، وبلغ ذلك

(١) أضفنا ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٦) وذلك للايضاح .

(٢) أضفنا ما بين الحاصرتين من : (الروضتين ، نفس الجزء والصفحة) .

(٣) في س (٣٩ ب) : « مع هدايا وتحف سنوية » .

(٤) في س : « مع هدايا عظيمة » .

(٥) في س (٣٩ ب) : « الحولان » ، والجولان قرية . وقيل جبل ، من نواحي دمشق ،

ثم من عمل حوران ؛ (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٦) كذا في الأصل ، وفي س ، وفي (الروضتين) ، وفي : (ياقوت : معجم البلدان) :

« محسكين ناحية من أعمال دمشق من جهة حوران » .

نور الدين وهو نازل بالكسوة فرحل إليهم بمساكره ، فرحلوا إلى الفوار (١) ،
ثم إلى الشلالة (٢) ، ونزل نور الدين عشرا ، وبمث عسكرياً إلى أعمال طبرية ،
فأغارت عليها ، ولما عادت لحقتها الفرنج عند المخاضة ، فوقفت المقاتلة في مقابلتهم
إلى أن عبرت السرية (٣) ونجت ، ثم رحل نور الدين من عشرا ، ونزل بظاهر زرا ،
وامتدحه عماد الدين بقصيدة أولها :

رُفِعَتْ (٤) بِنَصْرِكَ رَايَةَ الْإِيمَانِ وَبَدَّتْ لِمَعْرِكَ آيَةَ الْإِحْسَانِ
يَا غَالِبَ (٥) الْغَلْبِ الْمُلُوكِ وَصَائِدَ الْـ صَيْدِ اللَّيْثِ وَفَارِسِ الْفُرْسَانِ
يَا صَالِبَ التَّيْجَانِ مِنْ أَرْبَابِهَا حُزَّتْ الْفَخَّارَ عَلَى ذَوِي التَّيْجَانِ
[ومنها يقول (٦)] :

كم وقعة لك في الفرنج ، حديثها
قصت (٧) قومصهم رداءً من ردى
وملكت ريق ملوكهم وثركتهم
وجعلت في أعناقهم أغلالهم
قد سار في الآفاق والبُلدانِ
وضربت رأس برنيسهم يسنانِ
بالذل في الأقياد والأشجان (٨)
وسحبتهم هوناً على الأذقان (٩)

(١) في س : « الفرات » .

(٢) في س « اللاكه » وفي الأصل : « السلاة » ، وما هنا عن (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٧) .

(٣) في س : « البرية » .

(٤) كذا في الأصل ، وفي س ؛ وفي : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٧) : « عقدت » .

(٥) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين) ، وفي س (٣٩ ب) : « يا غالباً غلب الملوك » .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س ، والقصيدة كاملة موجودة في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨) .

(٧) في س (١٤٠) : « قومصت قومصهم ردى من ردى » .

(٨) في الأصل ، وفي س : « الأشجان » ، والتصحيح عن : (الروضتين) .

(٩) في س : « الأذقان » و « السلطاني » .

وعلى غناء المشرقية في الطلي والمهام رقص عوامل (١) المران
وكان بين النقع لعم حديدتها نار تالتق في خلال دخان
في مازق ورد الوريد مكفل (٢) فيه برى الصارم الظمان (٣)

ومنها :

غطى (٥) العجاج به نجوم ممائه لتنوب عنه أنجم الخوصان
أنت الذي دون الملوك وجدته ملان من عرف ومن أيمان (٣)
[١٣٨] في بأس عمرو، في بسالة حيدر، في نطق قس، (٤) في تقي (٥) سلطان
سير لو ان الوحي ينزل أنزات في شأنها سور من القرآن
فاسلم طويل المرر ممتد المدى (٦) صافي الحياة محمد السلطان (٧)

ذكر غزوة النوبة

وفي جادى الأولى من هذه السنة — أعنى سنة ثمان وستين وخمسة —
غزا الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين توران شاه بن أيوب — آخر السلطان —

-
- (١) كذا في الأصل وفي س ، وفي (الروضتين) : « عوالي » .
(٢) يقابل هذا في س : « وكفل فيه يروي الصادى الضمان » .
(٣) كذا في الأصل : وفي س ؛ وفي (الروضتين) : « عرفان » .
(٤) في س « قيس »
(٥) في الأصل : « غطا » و « تقا » .
(٦) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين) ، وفي س : « الندى » .
(٧) في س : « السلطاني » .

بلاد النوبة (١) ، وفتح حصناً لهم يدعى إبريم ، وسبى وغنم ، فوجدها بلاداً قليلة
الجدوى ، فجمع السبي وعاد به إلى أسوان ، وفرّق الغنائم في أصحابه .

(١) أورد صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩) — نقلاً عن ابن أبي طي
المؤرخ الحلبي — حديثاً منصلاً عن حملة توراتشاه إلى بلاد اليمن ، وهذا الحديث يتضمن
معلومات فريدة وهامة جداً ، ولهذا آثرنا نقله هنا ، قال : « وفيها اجتمع السودان والصيد
من بلاد النوبة ، وخرجوا في أم عظيمة قاصدين ملك مصر ، وصاروا إلى أعماك الصيد ، وصمموا
على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها ، وكان بها الأمير كثر الدولة ، فأنفذ يلم الملك الناصر ،
وطالب منه مجدة ، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكي ، فلما وصل إلى أسوان وجد الصيد
قد طادوا عنها بعد أن أخرجوا أرضها فأتبهم الشجاع والسكز ، لمرت حرب عظيمة قتل فيها
من الفريقين طم عظيم ، ورجع الشجاع إلى القاهرة وأخبر بفعال الصيد وتمكنهم من بلاد
الصيد ، فأنفذ الملك الناصر اخاه شمس الدولة في عسكر كثيف ، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة ،
فسار قاصداً بلادهم ، وشحن سراكب كثيرة في البحر بالرجاء والميرة ، وأمرها بلعاقه إلى بلاد
النوبة ، وسار إليها ، وتزل على قلعة إبريم ، وافتتحها بعد ثلاثة أيام وغنم جميع ما كان فيها
من المال والسكر والميرة ، وخلص جماعة من الأسرى ، وأسر من وجده فيها ، وهرب صاحبها ،
وكتب إلى السلطان بذلك . . . ثم رجع شمس الدولة إلى أسوان ثم إلى قوص ، وكان في صحبته
امير يقات له إبراهيم الكردي ، فطلب من شمس الدولة قلعة إبريم ، فأقطعه إيها ، وأنفذ معه
جماعة من الأكراد البطالين ، فلما حصلوا فيها تفرقوا فرقا ، وكانوا يشنون الغارة على بلاد
النوبة حتى برحوا بهم ، واكتسبوا أموالاً كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم ، وانفق
انهم عدوا إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة فبدان (٢) ففرق أمير إبراهيم وجماعة
من أصحابه ، ورجع من بقي منهم إلى قلعة إبريم ، وأخذوا جميع ما كان فيها واخلوها بعد مقامهم
بها سنتين ، فناد النوبة إليها وملكوها ، وأنفذ ملك النوبة رسولا إلى شمس الدولة وهو مقيم
بقوص ، ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هدية — عبد وجارية — فكتب له جواب
كتابه ، وأعطاه زوجي نشاب ، وقال : « مالك عندي جواب إلا هذا » ، وجيز معه رسولا
يعرف بمسعود الحلبي ، وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها ، فسار الحلبي مع الرسول
حتى وصل دنقة — وهي مدينة الملك — قال مسعود : فوجدت بلاداً ضيقة ، ليس لهم زرع
إلا القدر ، وعندهم نخل صغار ، منه أدامهم » ، ووصف ملكهم بأوصاف منها أن قال :
« خرج علينا يوماً وهو عريان ، قد ركب فرساً عربياً ، وقد التف في ثوب أطلس ، وهو أقرع ،
ليس على رأسه شعر ، فأتيت فسلمت عليه ، فضحك وتفاشى ، وأمرني أن تكوي يدي فكوي
عليها هيئة صليب ، وأسرى بقدر خمسين رجلاً من الدقيق ، ثم صرفني » ، قال : « وأما دنقة
فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط وباقيا أخصاص » . انظر أيضا :

(P. Casanova : Les Derniers Fatimides. Memoires de la Mission Archeologique Francaise du Caire. Tome VI, 3, p.p. 415-445).

ذكر وفاة الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذي

والد الملوك (١) — رحمه الله —

وفي يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة من هذه السنة ركب الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي — والد الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله — بالقاهرة ، فشبَّ به فرسه وتقنطر به ، فحمل عن فرسه ، وعاش ثمانية أيام ثم توفي يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذي الحجة من السنة ؛ وكان ولده صلاح الدين إذ ذاك غائباً في بلاد الكرك والشوبك على ما ذكرناه ، فبلغه وفاة والده قبل وصوله إلى الديار المصرية ، فاشتد حزنه ، وتأسف حيث لم يحضر وفاته ، وكان [نجم الدين] مولعاً باللعب بالكرة وشدة الركض ، فكان كل من رآه على هذه الصفة يقضى أنه لا يموت إلا [من وقوعه (٢)] عن ظهر الفرس .

ذكر سيرته — رحمه الله (٣) —

كان رحباً جواداً ، كثير البذل ، حسن النية ، جميل الطوية ، وله صدقات وءمروف كثير ، واتفقت له سعادة عظيمة ، وما مات حتى رأى في ذريته ما أحب من الملك لهم والسلطان ، ثم عظم ملكهم بعده وانتشر صيتهم ، ولم يملك أحد في عصرهم مثل ما ملكوا ؛ ولما توفي دفن إلى جانب أخيه أسد الدين شيركوه في بيت بالدار السلطانية ، ثم نقلوا بعد سنتين إلى مدرسة بنيت لها [بالمدينة (٤)]

(١) في س : « والد الملك الناصر صلاح الدين » .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٩) .

(٣) هذا العنوان غير موجود في س .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (٤٠ ب) .

بازاء حجرة النبي — صلى الله عليه وسلم — وسعدا بجوار النبي — عليه السلام —
قم لها بذلك سعادة الآخرة مضافة إلى ما نالاه [١٣٩] من سعادة الدنيا .

ولما (١) حجبت سنة تسع وأربعين وستمائة وقدمت المدينة — على ساكنها
أفضل الصلاة والسلام — رأيت قبريهما بهذه المدرسة .

ورثي (٢) عمارة بن علي البيني — الشاعر — نجم الدين أيوب بقصيدة أولها (٢) :

هي الصدمة الأولى فمن بان صبره	على هولٍ ملقأها تضاعف أجره
ولا بدء من موت وفوتٍ وفرقة	ووجدٍ بماء العينِ يُوقدُ بجره
وما يتسلى من يموت حبيبه	بشيء ، ولا يخلو من الهمِّ فكره
ولكنه جرحٌ يعزُّ اندماله	وكسرٌ زجاجٍ لا يؤهلُ جبره
أذمُّ صباحَ الأربعاءِ فإنه	تبسمٌ عن ثغرِ المنيةِ فجره
أصابَ الهدى في تجهيه بمصيبة	تداعى سماك الجوّ فيه ونسره
وأقرَّ أهلُ الأرضِ من باذلِ الغنى	إذا قنطَ (٣) المحتاجُ واشتدَّ فقره
عدينا أبا الإسلامِ والمُلكِ والندى	وفارقنا فردُ الزمانِ ووتره
فلا تعذُّونا واعذرونا ، فمن بكى	على فقدِ أيوبٍ فقد بانَ عذره
رعى (٤) اللهُ نجماً تعرفُ الشمسُ أنه	أبوها ونورُ البدرِ منها وزهره
وأبقى (٤) المقامَ الناصريَّ فإنه	لدولتكم كثرُ الرجاءِ وذخره

(١) قبل هذا اللفظ في س : « قال القاضي جاك الدين » . وهذه جملة من الجمل الكثيرة المتناثرة في هذا الكتاب والتي يعرفنا فيها المؤلف ببعض أخباره ، ومنها نعلم أنه حج إلى مكة وزار المدينة في سنة ٦٤٩ هـ .

(٢) مقابل هذه الجملة في س : « ورثاها على بن عمارة الشاعر بهذه الأبيات وهي من قصيدة طويلة أولها يقول » .

(٣) في س : « قبض » .

(٤) في الأصل : « رعا » و « ابقا » .

أخلص على الأيام أحسن سيرة يموت بها جورُ الزمانِ وغدْرُهُ
إذا كانت البلوى من الله فليكن من الحزمِ حمدُ الله فيها وشكرُهُ (١)

ذكر المراسلة بين نور الدين وصلاح الدين

— رحمهما الله تعالى (٢) —

كان نور الدين — رحمه الله — من حين ملكت الديار المصرية يؤثر أن يقرر له حمل يحمل إليه منها يستعين به على كلف الجهاد ، والأيام تماطله ، وهو ينتظر من صلاح الدين — رحمه الله — أن يتديه ذلك من تلقاء نفسه ، ويفعل في ذلك ما يؤثره ويريده ، فلما حمل صلاح الدين ما تقدم ذكره استقله ولم يعجبه ، فتقدم حينئذ نور الدين إلى موفق الدين خالد بن القيسراني متولى ديوان الاستيفاء (٣) أن يمضى إلى الديار المصرية ، ويتقاضى صلاح الدين ، ويعمل أوراقاً بارتفاع الأعمال المصرية ، ولا يترك في النفس حزازة (٤) من [١٤٠] أمرها ، ثم سار الملك نور الدين إلى بلبك ثم إلى حمص ثم إلى حلب .

(١) في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٢) أبيات أخرى من هذه القصيدة .

(٢) هذا العنوان غير موجود في س .

(٣) في س : « الانشاء » .

(٤) في س : « حرارة » . وابن واصل ينقل هنا عن (البرق الشامى لعلماء الأصفهاني) .

انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٦) ، ونص العمد يفسر معنى هذا اللفظ وهو : « وتقدم إلى موفق خالد بن القيسراني أن يمضى ويطلب ويقتضى ويميل أيضاً بالأعمال المصرية جزازة ، ولا يبقى في نفوس ديوانه من أمرها حزازة . . الخ » .

ذكر قصد نور الدين — رحمه الله —

بلاد قليج أرسلان

ثم سار نور الدين إلى مملكة السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود ابن قليج أرسلان بن سليمان [بن (١)] قُطْلَيْش السلجوقي — صاحب قونية — عازماً على حربه وأخذ البلاد منه ، وسبب ذلك أن ذا النون بن الدانشمند (٢) — صاحب ملطية — قصده عز الدين ، وأخذ بلاده منه ، فسار ابن الدانشمند صاحب ملطية إلى نور الدين مستجيراً به ، وملتجئاً إليه ، فأكرم [نور الدين (١)] نزله ، وأحسن إليه ، وحمل إليه ما يليق أن يُحمل إلى الملك ، وراسل (٣) قليج أرسلان يشفع في إعادة بلاد ذي النون إليه ، فلم يجبه إلى ذلك ، فسار نور الدين وابتدأ بكيسون (٤) ونهبه ، ومرعش (٥) ومرزبان فللكها وما بينها ، وكان ملكه لمرعش في ذي القعدة من هذه السنة (٥) ، ثم تَبَرَّ طائفة من عسكره إلى سيواس فللكوها .

فراسل قليج أرسلان نور الدين واستعطفه ، فوقع الصلح بينهما ، وشرط

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٤١) راجع أيضاً : (زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، ص ٢١٦ ، الترجمة العربية) .

(٢) في الأصل — هنا وفيما يلي — : « الدانشمند » وقد صحح الاسم بد مراجعة : (زامباور : معجم الأنساب ، الترجمة العربية ، ص ٢٢٠ — ٢٢١) وابن واصل ينقل هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٦ — ١٤٧) وكذلك فل صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢١٣ — ٢١٤) .

(٣) في س : « وأرسل إلى » .

(٤) كذا في الأصل ، وهي في س : « بلسون » وما هنا عن ابن الأثير والروضتين .

(٥) ما بين الرقبن ساقط من س .

[نور الدين عليه (١)] أن ينجده بعساكر إلى الفزاة ، ففعل (٢) ، وُسِّلت سيواس إلى ذى النون (٢) ، وبقى [ذو النون] فى خدمة نور الدين إلى أن مات نور الدين ، فحينئذ عاد قليج أرسلان إلى البلاد فملكها ، وهى مع ولده إلى اليوم .

والمرتب اليوم بالبلاد وله اسم السلطنة صبي صغير (٣) ، هو ابن ركن الدين ابن غياث الدين كيخسرو بن علا الدين كيخسرو بن كيخسرو بن قليج أرسلان المذكور ، وكان التتر الملاعين قد استولوا على البلاد ، وأبقوا بها ركن الدين والد هذا الصبي ، وهرب أخوه عز الدين كيكاؤس بن كيخسرو إلى ملك الروم صاحب قسطنطينية وهو عنده إلى اليوم ، واستولى على ركن الدين معين الدين [سليمان] البرواناه (٤) ، ثم قتل معين الدين ركن الدين ، وقام بأتابكية ولده الصبي المذكور ، وخطب له بالبلاد ، وملك (٥) البلاد فى الحقيقة التتر ، والبرواناه نائبهم بها (٥) .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٤١ ب) .

(٢) مقابل هذه الجملة فى س : « وتمطى سيواس وغيرها لدى النون ففعل ذلك » .

(٣) هذا الصبي الصغير هو غياث الدين كيخسرو الثالث ، وقد ولى الحكم فى سنة ٦٦٣ هـ وعمره سنتان ونصف سنة ، ولهذا الاستطراد أهمية خاصة فهو يحدد الوقت الذى كان المؤلف — ابن واصل — يكتب فيه هذا الجزء من الكتاب ، وواضح أنه كان يكتبه بعيد سنة ٦٦٣ هـ وهى السنة التى تولى فيها هذا الصبي . أنظر : (زامباور : معجم الأنساب ، الترجمة العربية ، ص ٢١٨)

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٧١ — ٥٧٢) والبرواناه لفظ فارسى معناه فى الأصل الحاجب ، وقد أطلق فى دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى على الوزير الأكبر . (تعليقات الدكتور زيادة فى نفس الصنعة من نفس المرجع) .

(٥) هذه الجملة فى س ناقصة ومضطربة المعنى ونصها : « وملك البلاد فى الحقيقة (٢)

والبرواناه نايه » .

ذكر الواقعة الكائنة بين مقدم الأرمن والروم

كان مليح بن لاون مقدم الأرمن قد التجأ إلى نور الدين ، وصار في طاعته ، وكانت الدروب وأذنة ومصيصة [وطرسوس ^(١)] بحميتها ملك الروم صاحب قسطنطينية ^(٢) [١٤١] ويضبطها بجنده ، فاستولى عليها مليح بن لاون ، وكسر الروم ، وقتل منهم وأسر ، وساق لنور الدين من مقدمي الروم ثلاثين أسيراً ، فسبهم نور الدين إلى الخليفة المستضيء بنور الله ، وكتب إليه كتاباً ، من جلته : « قسطنطينية ^(٢) والقدس بجريان إلى أمد الفتح في مضار المنافسة ، وكلاهما في وحشة ^(٣) ليل الظلام المدلم على انتظار صباح المؤانسة ، والله تعالى بكرمه يُدنى قطاف الفتحين لأهل الإسلام ، ويوفق الخادم لحيازة مرضى الإمام » .

[وفي آخره ^(٤)] : (فصل في فتح بلاد النوبة والمغرب) : « ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ما تيسر في هذه النوبة ، من افتتاح بمض بلاد النوبة ، والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنايك الخيل الإسلامية في العصور الخالية ، وكذلك استولى عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها ، ونجسكوا في محكم معاقلمها ومصونها ، حتى بلغوا إلى حدود المغرب ، فظفروا من السؤل بعنقاء مغرب » .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٤١ ب) .

(٢) في الأصل : « قسطنطينية » .

(٣) س : « وجه » ، والتصحيح عن (البرق الشامي للماد ، في : الروضتين ، ج ١ ،

ص ٢١٥) .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن المرجع السابق ، ولائباتها أهمية خاصة لأنها توضح

أن النص التالي الخاص بفتح النوبة وبرقة جزء من نفس الخطاب المرسل إلى الخليفة . هذا وفي الروضتين قطعة أخرى من هذا الخطاب مكتملة له .

ذكر دخول قراقوش التقوى بلاد المغرب (١)

وفي هذه السنة مضى قراقوش — غلام الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب — إلى المغرب في طائفة من الترك ، وانضم إليه جماعة من العرب ، واستولى على أطرابلس الغرب وكثير من بلاد إفريقية ، وانضم إلى قراقوش مسعود بن زمام — وهو من أعيان الغرب (٢) به هناك — وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن بن علي — خليفة المغرب — وأولاده ، فانفقا ، وكثر جمعها ، وحكم قراقوش على تلك البلاد ، وصار معه عسكر كثير ، وجرت (٣) بينهم وبين المغاربة حروب كثيرة ليس هذا موضع ذكرها (٣) ، وقد ذكرتها مفصلة في التاريخ الكبير (٤) .

(١) هذا العنوان غير موجود في س ، وقراقوش التقوى هذا هو غلام تقي الدين عمر بن شاهنشاه ، وهو غير بهاء الدين قراقوش الأسدی السابق ذكره .
(٢) س : « العرب » . ونص (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٦) — وهو المرجع الذي ينقل عنه ابن واصل هنا — : « مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط ، وهو من أعيان الأمراء هناك » .
(٣) ما بين الرقبن ساقط من س (١٤٢) .

(٤) ذكرنا سابقاً ان المعروف أن لابن واصل كتاباً آخر في التاريخ هو (التاريخ الصالح) وقد رجعت إليه فلم أجد هذه التفاصيل التي يشير إليها هنا بشأن فتوح قراقوش التقوى في بلاد الغرب ، وهذا يرجع أنه كان لابن واصل كتاب تاريخي ثالث ، يسميه هو هنا « التاريخ الكبير » غير أننا لا نعرف عنه حتى الآن شيئاً . أنظر ماكات هنا ص ٢٠٤ ، هامش ٣ هذا والثابت من المراجع الأخرى أن غزوات قراقوش التقوى للمغرب تعددت في السنوات ٥٧١ و ٥٧٢ و ٥٧٥ و ٥٧٦ و ٥٧٨ و ٥٨٢ ؛ وأن تقي الدين عمر بن شاهنشاه فكر أكثر من مرة في الخروج بنفسه إلى المغرب لإقامة ملك له هناك . لهذا وذاك انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ — ٢٧٠ ، ج ٢ ، ص ١٦ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ٧٠)

ذكر دخول الملك المعظم شمس الدولة نحر الدين توران شاه

ابن أيوب اليمن وتملكه لها (١)

وفي سنة تسع وستين وخمسة سبَّ الملك الناصر صلاح الدين أخاه الملك المعظم شمس الدولة نحر الدين توران شاه بن أيوب إلى بلاد اليمن ليملكها ؛ وكان السبب في ذلك أنه كان صلاح الدين هو وأهله من حين ملكوا مصر خائفين من نور الدين أن يدخل مصر فيأخذها منهم ، فشرعوا في تحصيل مملكة يقصدونها ويملكونها ، وتكون لهم عدة ، فإن أخرجهم نور الدين [١٤٢] من مصر ساروا إليها وأقاموا بها ، فاقضى رأى صلاح الدين أن يسبَّ أخاه إلى النوبة ليملكها ، فسار إليها ولم تعجبه كما ذكرنا ، فلما عاد إلى مصر اقتضى رأيه أن يسبَّ إلى اليمن (٢) ،

(١) هذا العنوان ساقط من س .

(٢) هذا الرأى القائل بأن السبب في فتح النوبة ثم اليمن إنما هو تخوف صلاح وأسرته من نور الدين أن يهاجمهم في مصر ويخرجهم منها . أقول إن هذا الرأى مصدره الأول ابن الأثير ، وابن الأثير — فيما يبدو — منهم في كثير مما يكتبه عن العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين . انظر ما فات : ص ٢٢٣ ، هامش ؛ وانظر أيضاً (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٥) فهو يقول عند حديثه عن مسير شمس الدولة تورانشاه إلى النوبة : « وكان سبب ذلك أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون أن نور الدين كان على هزم الدخول إلى مصر ، فاستقر الرأى بينهم أنهم يتملكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن ، حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد ، فإن قروا على منعه أقاموا بمصر ، وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي انتصروها » . وفي رأى أن هذا لا يتفق مع ما ذكره ابن الأثير نفسه في موضع آخر (ص ١٤٨) من أن تورانشاه « استأذن نور الدين في أن يسير إلى اليمن لقصد عبد النبي صاحب زيد لأجل قطع الخطبة العباسية فأذن في ذلك » وقد أكد هذه الحقيقة ابن واصل هنا في المتن بعد سطرين اثنين وإنما ذكر أن الذي استأذن نور الدين هو صلاح الدين . أما الأسباب الحقيقية لفتح اليمن فتجدها في النصوص الكثيرة التي نقلها (أبوشامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٦ — ٢١٧ و ٢٢٠) عن الهامد الأصفهاني وابن شداد ، وابن أبي طى . وفي : (بدر الدين محمد بن حاتم : السمط الغالى الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن) والكتاب الأخير لازال مخطوطاً ، وتوجد منه نسخة في دار الكتب المصرية رقم ٢٤٠١ .

وكان بها خارجي يقال له عبد النبي ، واسمه فيما ذكر أبو الحسن عمارة :
« علي بن مهدي (١) » ، [و] قد ملك زبيد ، وقطع الخطبة العباسية ، وخطب
لنفسه ، فاستأذن صلاح الدين نور الدين في أن يسير عسكرياً إلى اليمن ويفتحها ،
فأذن له في ذلك .

وكان بمصر عمارة بن علي اليمني — المقدم ذكره — فحسن الملك المعظم قصده
اليمن ، ووصف بلادها له ، وعظماها في عينه ، فزاده ذلك رغبة فيها ، فشرع بتجهز
ويعد (٢) الروايا والسلاح ، وغير ذلك من الآلات ، وجند الأجناد ، وجمع وحشد ،
وكان لعمارة مدائح في الملك المعظم ، فما امتدحه به ، وحرصه فيه على ملك اليمن
قصيده التي أولها :

العِلْمُ مُدٌّ كَانَ مَحْتَاجٌ (٣) إِلَى الْعِلْمِ وَشَفْرَةُ السَّيْفِ تَسْتَفِي عَنِ الْقَلَمِ

= هذا وقد انفرد مؤرخ يمني آخر (باخرمة : تاريخ ثمرمدن ، ج ١ ، ص ١٢٧—١٢٨)
بذكر سبب هام من أسباب الفتح الأيوبي لليمن ، وخلاصته أن بعض أمراء اليمن استغاثوا
بالخليفة العباسي من اعتداءات عبد النبي بن مهدي ؛ قال : « خرج (عبد النبي بن علي بن مهدي
صاحب زبيد) في أصحابه إلى جهة أبين ، لخرق أبين ، وقتل أهلها ، وذلك في سنة ٥٥٩ ،
ثم رجع إلى زبيد ، ثم خرج في سنة ٥٦١ في عسكر جرار نحو الخلف السليمانى ، فقاتلهم
قتالا شديداً ، وقتل منهم طائفة ظالمهم من الأشراف ، وفي جملة من قتله وهاس بن ظالم بن يحيى
ابن حمزة بن وهاس السليمانى — أحد أمراء الأشراف وسادتهم — . . . ويقال إنه لما قتل
الشريف وهاس خرج أحد أخوته إلى بغداد مستنصراً بالخليفة علي عبد النبي بن مهدي ، فيقال
إن الخليفة كتب له إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بأن يجرد في نصرته عسكرياً
لقاتل ابن مهدي ، لجرد الملك الناصر أخاه شمس الدولة توران شاه بن أيوب ، وأن ذلك كان سبب
دخول الفزاليين . . الخ » .

(١) الهديون أسرة حكمت زبيد بين سنتي (٥٥٤ — ٥٦٩ = ١١٥٩ — ١١٧٣) ،
وحكم من هذه الأسرة ثلاثة فقط : علي بن مهدي ، ومهدي بن علي ، وعبد النبي بن علي — وهذا
هو اسمه الصحيح — انظر : (St. Lane-Poole : *Mohammadan Dynasties* p. 96)
(٢) س : « يدل » .

(٣) في الاصل : « محتاجا » والتصحيح عن س و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٦)
النكت المصرية ، ص ٣٥٢ .

ومنها :

تُرَى مَسَامِعُ فخر الدين تَسْمَعُ مَا
فَإِنْ أَصَبْتُ فلي حظُّ المصِيبِ ، وإِنْ
كَمْ (١) تترك البيضَ في الأَجْفَانِ ظَامِئَةً
(٢) وَمَقَلَّةُ الجِدِّ نحو العزمِ شَاخِصَةٌ
فَعَمَّكَ المَلِكُ المنصورُ سَوَمَهَا
أَمَامَكَ الفَتْحُ مِنْ شَامٍ وَمِنْ بَمَنْ
فَاخْلُقْ لِنَفْسِكَ مُلْكًا لَا تُضَافُ بِهِ
وَأَنَّهُ المُشِيرِينَ إِنْ نَجَّيْتُمْ نَصِيحَتَهُمْ
وَاعْزِمُ (٤) وَصَمَّ فَقَدْ طَالَتْ وَقَدْ شَمَخَتْ (٥)
طَالَ التَّرْدُدُ فِي إِبْرَامٍ مُنْتَقِصٍ

أَمَلَاهُ خَاطِرُ أَفكَارِي عَلَى قَلَمِي ؟
أَخْطَأْتُ قَصْدَكَ فَاعْذِرْنِي وَلَا تَلْمِ
إِلَى المَوَارِدِ فِي الأَعْنَاقِ وَالقِصَمِ (٢)
فَاتَرَكَ قُودَكَ عَنْ إِذْرَا كَمَا وَقَمِ
مِنْ العِرَاقِ إِلَى مِصْرٍ بِلَا تَأْمِ
فَلَا تَرُدُّ رُؤْسَ الخَيْلِ بِأَلْجَمِ
إِلَى سِوَاكَ ، وَأَوْرِ (٣) النَّارَ فِي العِلْمِ
أَوْ إِلَّا فَانِعِمْ عَلَى العِمْيَانِ بِالصَّمِ
قَضِيَّةٌ كَفَطَّمَا أَلْسُنُ الأُمَمِ
فِي (٦) هَذِهِ الحَالِ أَوْ فِي نَقْضِ مُنْبَرِمِ

ومنها :

قَرُبَ أَمْرٌ يَخَافُ النَّاسُ غَايَتَهُ
وَالأَمْرُ أَهْوَنُ فِيهِ مِنْ يَدِ لِقَمِ

- (١) في الأصل : « لا » وفي س : « لم » والتصحيح عن الروضتين .
(٢) خط صاحب النسخة الأصلية فوضع الشطر الثاني من البيت الثاني أمام الشطر الأول من البيت الأول وبذلك جعل البيتين بيتاً واحداً بعد أن أقطب الشطرين المرقبين ، وقد صححنا الوضع فيهما بعد مراجعة س (٤٢ ب) .
(٣) في الأصل : « واورى » وفي س : « واورى » وقد صححت بعد مراجعة : (الروضتين ج ١ ، ص ٢١٧) و (ديوان عمارة ، ص ٦١٩) .
(٤) في الأصل : « وانم » ، وما هنا عن س (٤٢ ب) و (عمارة : النكت المصرية ، ص ٦٢٠) .
(٥) في الأصل : « سمجت » وما هنا عن س ، والنكت المصرية .
(٦) في الأصل : « من » وما هنا عن (س) والنكت المصرية .

هذا ابنُ نُومِرْتٍ قد كانتِ بِدَايَتُهُ
 [١٤٣] والنَيْثُ وهو كما قد قيلُ أَوْلُهُ
 والبدر يبدو هلالاً ثم يَكْشِفُ بالِ
 تنمو قُوَى الشئ بالتدرِيجِ إن رُزِقَتْ
 حَاسِبُ ضَيْرِكَ عن رَأْيِ (٣) أَتَاكَ وَقُلْ
 أَقْسَمْتُ مَا أَنْتَ مِنِّي جُلُّ هِمَّتِي
 وإنما أنت مَرَجُوٌّ لِوَاحِدَةٍ
 كَأَنِّي بِاللِيَالِيِ وَهِيَ هَاتِفَةٌ
 وبِالْعَلَى كَلِمًا لَأَقْتِكَ (٤) قَائِلَةٌ
 — كما يقولُ الوري — نَحْمًا عَلَى وَضْمِ
 فَطْرٌ ، وَمِنْهُ خَرَابُ السَّدِّ بِالْعَرَمِ
 أَنْوَارٍ مَا سَمَّرَتْهُ قَمَلَةٌ الظُّلْمِ
 لَفْظِي (١) وَيَقْوَى شَرَارُ الزُّنْدِ (٢) بِالضَّرْمِ
 نَصِيحَةٌ وَرَدَّتْ مِنْ غَيْرِ مُنْهَمٍ
 مَا رَاقَ مِنْ نَعْمٍ أَوْ رَقَ مِنْ نَعْمٍ
 بنى بها الدهرُ مَجْدًا غَيْرَ مُنْهَمٍ
 مُذْ صَمَّ تَمَعُ رِجَالِ دُونَهَا وَعَمِي
 أَهْلًا بِمُنْشِرِ آمَالِي مِنَ الرَّمَمِ

ثم سار الملك المعظم شمس الدولة من مصر مستهل رجب من هذه السنة فوصل
 إلى مكة (٥) — حرسها الله تعالى — ومنها إلى زيد ، فلما قرب منها قال عبد النبي

- (١) في الأصل : « لظفا » ، وما هنا عن : (النكت المصرية ، ص ٢٥٤) .
 (٢) في الأصل : « النار » وما هنا عن (س) والنكت .
 (٣) في الأصل : « أمر » وما هنا عن النكت والروضتين .
 (٤) في الأصل : « لاقيك » وما هنا عن س والنكت المصرية . هذا والتصيدة أطول
 مما ورد هنا بكثير ، والآيات المكلمة يوجد بعضها في : (محارة : النكت المصرية ،
 ص ٣٥٢ — ٣٥٥ و ٦١٩ — ٦٢٠) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٦ — ٢١٧) .
 (٥) أورد (سبط ابن الجوزي : سرة الزمان ، الجزء الثامن ، القسم الأول ،
 ص ٣٠٠ — ٣٠١) وصفا شائقا لما فعله توران شاه أثناء مقامه بمكة ولخطوات حملة اليمن بوجه عام ،
 وقد آثرنا نقل هذا الوصف هنا لأهميته ، ولأن روايه — سبط ابن الجوزي — يعتبر المؤرخ
 الثاني — بعد ابن واصل — المعاصر للأيوبيين ، قال : وقفت على تاريخ بمصر ، فرأيت أن شمس
 الدولة لما سار إلى اليمن ، وكان أعيانها قد كتبوا إلى صلاح الدين يسألونه أن يبعث إليهم بعض
 أهله ، فلما وصل شمس الدولة إلى مكة سعد صاحبها إلى أبي قبيس ، فتحصن عليه بقلعة بناها ،
 وأغلق باب الكعبة ، وأخذ الفاتح ، فجاء شمس الدولة فطاف بالبيت ، وصلى ركعتين ، وسعد
 إلى باب الكعبة وقال : اللهم إن كنت تعلم أني جئت إلى هذه البلاد لاصلاح العباد وتمهدا ، =

لاهل زبيد : « كأنكم بهؤلاء وقد حمى عليهم الحرُّ فهلكوا ، وما هم إلا أكلة رأس (١) » ، فخرج إليهم بمسكروه ، فقاتلهم الملك المظلم ومن معه ، فلم يثبت أهل زبيد وانهمزوا ، ووصل المصريون إلى سور زبيد فلم يجدوا من يمنعهم ، فنصبوا السلام ، وصعدوا السور ، فملكوا البلد عنوة ، ونهبوه وأكثروا النهب ، وأخذوا عبد النبي أسيراً وزوجته المدعوة بالحرّة (٢) ، وكانت امرأة صالحه

= فيسر على فتح الباب ، وإن كنت تعلم أني جئت لغير ذلك ، فلا تفتحه ، ومد يده لجذب القفل فانفتح ، فدخل شمس الدولة إلى البيت ، وصلى ودعا ، فلما بلغ أمير مكة ذلك نزل إلى خدمته ، وحمل المفاتيح واعتذر ؛ وقال : خفت منك ، والآل فأنا تحت طاعتك ، فقال : إذا أخذت منك مفاتيح مكة فمن أعطيتها ؟ ثم خلع عليه وعلى أصحابه ، وطيب قلوبهم . وسار إلى اليمن ، فانهمز عبد النبي بين يديه إلى زبيد ، وكان أبوه المسمى بالمهدى قد فتح البلاد وقتل خلقا كثيرا ، وبقى بطون الحوامل ، وذبح الأطفال على صدورهن ؛ وكان يرى رأي القرامطة ، ويظهر أنه داعية لأهل مصر ، ويستتر باليمن ، وكان قد مات قبل دخول شمس الدولة اليمن بسنين ، وملك بعده ولده عبد النبي ، فقتل باليمن ما فعله أبوه ، وسبي نساءه ، واستبدم . وكان أبوه لما مات بنى عليه قبة عظيمة ، وصفح حيطانها بالذهب الأحمر والجواهر ، ظاهرا وباطنا بحيث لم يعمل في الدنيا مثالا ، وجعل فيها قناديل الذهب وستور الحرير ، ومنع أهل البلد من زبيد إلى حضرموت أن يجيئوا إلى الكعبة ، وأمرم بلحج إلى قبر أبيه ، وكانوا يحملون إليها من الأموال في كل سنة مالا يحد ولا يحصى ، ويطوفون حولها مثلما يطوفون بالكعبة ، ومن لم يحمل مالا قتله ، وكانوا يقصدونها من الشعر ، فاجتمع فيها أموال عظيمة ، وأقام عبد النبي على الظلم والفسق والنجور ، وذبح الأطفال ، وسفك الدماء ، وسبي النساء إلى أن دخل شمس الدولة اليمن ، وجاء إلى زبيد ، فيقال إنه حصر عبد النبي فيها وابنه ، وقيدته وقتله . . . ، ويقال إنه انهمز بين يديه ، وجاء إلى قبة أبيه فهدمها ، وأخذ ما فيها من المال والجواهر والفضة ، وكان على ستائة رجل ، ونبس القبر ، وأحرق عظام أبيه وذراها في الريح ، ومضى إلى صنعاء ، لحثف شمس الدولة : لا ينتهي عنه حق يقتله ويحرقه كما فعل بأبيه ، وسار خلفه ، فرجع إلى زبيد ، وطاد شمس الدولة إليها ، فظفر به ، فأخذ ما كان معه ، وقتله وصلبه وحرقه ، كما فعل بعظام أبيه .

(١) المؤلف ينقل هنا عن ابن الأثير ، والنص في (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٩) : « كأنكم بهؤلاء وقد حمى عليهم الحرُّ فهلكوا إلا أكلة رام » وهو خطأ مطبعي ، وما بالمتن هنا هو الصحيح ، فقد جاء في (اللسان) : « ويقال : ما من إلا أكلة رأس أي م قليل ، يشبههم رأس واحد » .

(٢) في الأصل : « حرّة » والتصحيح عن ابن الأثير . ويبدو أن لفظ « الحرّة » كان لقباً تلقب به الأسرات الحاكمة في اليمن ، فقد ظهرت بين نساء الصليبيين باليمن قبل هذا أكثر من سيدة كانت تلقب « بالحرّة » أو « بالسيدة الحرّة » .

كثيرة الصدقة ، وكانت إذا حجت وجد عندها فقراء (١) الحاج صدقة دارة
ومعروفاً كثيراً .

ولما أمر الملك المعظم عبد النبي بن محمد صلته إلى الأمير سيف الدولة مبارك
ابن كامل بن منقذ (٢) ، وأمره أن يستخرج منه الأموال ، فأعطاه منها شيئاً
كثيراً ؛ ثم إنه دلم على قبر كان قد صنعه لوالده ، وبني عليه بنية عظيمة ،
وله هناك دفائن كثيرة ، وأعلمهم بها ، فاستخرجت الأموال من هناك ، وكانت
جلية المقدار ؛ وداتهم [زوجته (٣)] الحرة على ودائع لها ، فأخذ منها مال كثير ؛
ولما ملكت زبيد أقيمت بها . [١٤٤] الخطبة العباسية .

ثم سار العسكر إلى عدن ، وهي على البحر ولها مرسى عظيم ، وهي فرضة الهند
والزنج والحبشة وثمان وكرمان وكيش وفارس وغير ذلك ، وهي منيعة جداً
من جانب البحر والبر ، وكان التغلب عليها رجل يقال له ياسر ، ولو (٤) امتنع
بها لم يقدروا على أخذها (٤) ، لكنه لحينه خرج إلى العسكر ، فباشر قتالهم ،
فانهزم ، وسبقه بعض عسكر الملك المعظم فدخلوا البلد قبل أهله ، وملكوه ، وأخذوا
صاحبه ياسر أسيراً ، وأرادوا نهب البلد فمنعهم الملك المعظم ، وقال : « ما جئنا
لنخرب البلاد ، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها » .

ولما دخلوا عدن كان معهم عبد النبي [صاحب زبيد (٥)] مأسوراً ، فقال :

(١) في الأصل : « لفقراء » وما هنا عن س (١٤٣) .

(٢) في س : (. . . بن كامل بن مسعد) ، وما هنا هو الصحيح .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س .

(٤) مقابل هذا في س : « وقد امتنع بها ولم يقدر أحد على أخذها منه » ، وما في الأصل

يقضيه السياق فهو الصحيح .

(٥) ما بين الحاصرتين عن س (٤٣ ب) .

« سبحان الله ! قد كُتبتُ أعلمتُ أني أدخل عدن في موكب عظيم ، فأنا أنتظر ذلك وأسرُّ به ، ولم أكن أعلم أنني أدخلها على هذه الحالة . »

ولما فرغ الملك المعظم من أمر عدن عاد إلى زبيد ، وحصر ما في الجبل من الحصون ، فملك قلعة تعز ، وهي من أحصن القلاع ، وبها تكون خزائن صاحب (١) زبيد ، وملك الجبل وغيرها من المعامل والحصون (٢) ، واستناب بعدن الأمير عز الدين عثمان (٣) بن الزنجبيلي ، وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ ، وهلك عبد النبي [ويأسر (٤)] في أمره ، وجعل [الملك المعظم] في كل قلعة نائباً من أصحابه ، وأحسن إلى أهل البلاد ، وعدل فيهم ، فعمرت البلاد وأمنت ، [وأما الحرة زوجة عبد النبي فبلغه كثرة صدقتها وخيرها ، فأحسن إليها وأطلقها ، وأقطعها إقطاعاً يقوم بأودها وأود من معها (٥)] .

ذكر عزم جماعة من المصريين على إقامة الدعوة المصرية

وما آل إليه أمرهم

وفي هذه السنة أراد جماعة من شيعة القصر الوثوب بمصر وإقامة الدعوة العلوية ، وردّها إلى ما كانت عليه ؛ وكان منهم عمارة بن علي اليمني ، وعبد الصمد الكاتب ،

(١) س : « أصحاب » .

(٢) نص س : « وملك ما في الجبل من القلاع والحصون » . وفي (ابن الاثير) : « وملك أيضا قلعة التمكر والجند وغيرها من المعامل والحصون » .

(٣) س : « الأمير عثمان عز الدين » فقط ؛ هذا ويوجد القارىء وصفا تفصيلا شائقا لخط سير الحملة الايوبية في اليمن وقتوحها هناك فيما رواه ابن أبي طي في (الروضتين ، ج ١ ص ٢١٧) وفي مخطوطة : (السمط العالي الثمن ، ص ١٣ — ٦ ب) .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (٤٣ ب) .

(٥) ما بين الحاصرتين عن س (٤٣ ب) ، وهذا مثل واضح يدل على أن نسخة س — رغم عيوبها الكثيرة ، أفادت بعض الأحيان في إقامة النص وتصحيحه وإكمال ما به من نقص .

والقاضي العويرس ، وداعي الدعاة ابن عبد القوي ، وغيرهم من جند المصريين ورجالهم السودان ، وحاشية القصر ، وواقفهم على ذلك جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده ، فاطلعوا على أسرارهم ؛ وعينوا [١٤٥] الخليفة والوزير ، وتكاسموا الدور والأملاك ، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية والشام إلى مصر ، وبذلوا لهم شيئاً (١) من المال والبلاط ، وكان مقصودهم وما انطوت عليه نيتهم الرديئة أن الفرنج إذا قصدوا البلاد وخرج إليهم صلاح الدين بنفسه نارواهم بالقاهرة ومصر ، وأعادوا الدعوة العلوية ، وعاد من معه من المسكر الذين واقفهم عليه ، فلا يبقى لهم مقام مقابل الفرنج ، وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر إليهم ، ناروا به ، وأخذوه أخذاً باليد ، لعدم الناصر له والمساعد ، وقال لهم عمارة : « أنا قد أبعدت (٢) أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسده (٣) ، وتجتمع الكلمة عليه بعده » ؛ فأرسلوا إلى الفرنج بصقلية والشام ، وتقررت القواعد بينهم ، ولم يبق إلا إتمام أمرهم ، فكان ما قدره الله من فضيحتهم وانتهاك سر نيتهم (٤) ، — لما أراد الله تعالى من سعادة صلاح الدين وظهور أمره — ، أن الفقيه الواعظ زين الدين علي بن نجا (٥) أدخلوه معهم في سرهم ، فداخلهم وأظهر لهم أنه على رأيهم ، فاطلع على جميع أمورهم ، وجاء إلى صلاح الدين وأظهره على جميع أمورهم ، وكشفها له ، وطلب

(١) في الاصل : « شيء » ، وما هنا عن س .

(٢) س : « انقدت » .

(٣) س : « أن يشد عتيده » والمؤلف ينقل هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ،

س ١٤٩ — ١٥٠) .

(٤) س : « ستر سرهم » .

(٥) هو زين الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا الدمشقي الحنبلي الواعظ ، توفي بمصر

في رمضان سنة ٦٠٠ هـ عن إحدى وتسعين سنة ، انظر ترجمته في : (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ،

س ١٨٣ — ١٨٤) و (ابن العباد : شذرات الذهب) .

منه ما لابن كامل (١) الداعي من الدور والمقار وكلما له من الموجود والمذخور ،
فبذل له صلاح كل ما طلبه ، وأمره بمخاطبتهم ومواطنهم (٢) على ما يريدون
أن يفعلوه ، وتعريفه بالمتجدد من أمورهم أولاً فأولاً ، فصار يعلمه بكل (٣) ما يتجدد
لهم ، ثم اتفق وصول رسول الفرنج بالساحل إلى صلاح الدين بهدية ورسالة ،
وهو في الظاهر إليه ، وفي الباطن إلى أولئك الجماعة ، فكان يرسل إليهم بعض
النصارى ، وتأتيه رسالهم .

وأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجملة الحال ، فوضع صلاح الدين
على الرسول بعض (٤) من يثق إليه من النصارى ، فدخله ، فأخبره الرسول بالخبر
على الحقيقة .

وقد ذكر في انكشاف [١٤٦] أمرهم أن عبد الصمد الكاتب كان إذا لقي
القاضي الفاضل - رحمه الله - بخدمة ويتقرب إليه ، ويبالغ في التواضع له ، فلقبه
يوماً فلم يلتفت إليه ، فقال القاضي الفاضل : « ما هذا إلا لسبب » ، وخاف أن يكون
قد صار له باطن مع (٥) صلاح الدين ، فأحضر [زين الدين] علي بن نجا الواعظ

(١) هو أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل داعي الدعاة ؛ ترجمته في : (المعاد الأصفهاني :
الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١٨٦ - ١٨٧) و (ابن المعاد : شذرات الذهب ،
ج ٤ ، ص ٢٣٥) .

(٢) س : « وموافقهم » ، والمؤلف هنا ينقل عن (البرق الشامي للمعاد الأصفهاني) أنظر :
(الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩) .

(٣) س : « يعلم صلاح الدين بما يتجدد لهم » .

(٤) هذا اللفظ ساقط من س ؛ والمؤلف يختصر هنا عن رسالة بقلم القاضي الفاضل - أوردتها
ابن أبي طي - رسالة من صلاح الدين إلى نور الدين يشرح له فيها قصة المؤامرة في تفصيل
شيق هام ، انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢١) .

(٥) في الأصل : « من » وما هنا عن س (٤٤ ب) والمؤلف يعود هنا فينقل عن (ابن
الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٠) .

وأخبره الحال ، وقال : « أريد أن تكشف الأمر لي » ، فسمى (١) في كشفه فلم يرَ له من جانب صلاح الدين شيئاً ، فعدل إلى الجانب الآخر ، فكشف الحال إليه ، فحضر عند القاضي الفاضل فأعلمه ، فقال له : « تحضر الساعة عند صلاح الدين وتُهيء الحال إليه » ، فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع ، وذكر الحال ، فأخذ الجماعة وقرروهم ، فأقروا ، فحينئذ قبض عليهم ، وأمر بصلبهم .

وكان عمارة بينه وبين القاضي الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها ، فلما أراد صلاح الدين صلبه قام القاضي الفاضل وخاطب صلاح الدين في إطلاقه ، فظن عمارة أنه يُحرض على هلاكه ، فقال لصلاح الدين : « يا مولانا ، لا تسمع منه في حقي » ، فغضب القاضي الفاضل وخرج ، وقال صلاح الدين لعمارة : إنه كان [والله (٢)] يشفع لك » ، فندم .

وأخرج عمارة ليصلب ، فطلب أن يمرَّ به على مجلس القاضي الفاضل ، فاجتازوا به عليه ، فأغلق بابه ، ولم يجتمع به ، فقال :

عبد الرحيم قد احتجب إن الخلاص من العجب

ثم صُلب هو والجماعة بين القصرين ، وذلك يوم السبت لليلتين مضتا من شهر رمضان من هذه السنة — أعني سنة تسع وستين وخمسمائة — وأفنى (٣) [صلاح الدين] بعد ذلك من بقي منهم .

قال عمارة الدين الأصفهاني : « وكان فيهم داعي الدعاة ابن عبد القوي ، وكان عارفاً بنجبايا القصر وكنوزه ، فباد (٤) ولم يسمح بإبدائها ، وبقيت تلك الدفاتن مخزونة ،

(١) في الأصل : « فسمى » .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) في الأصل : « وأفنى » .

(٤) س : « فباد » .

وتلك الخزان مدفونة (١) ، قد دفن دافنها ، وخزن تحت الثرى (١) خازنها ،
إلى أن يأذن الله تعالى في الوصول إليها ، والاطلاع عليها .

واحتيط على ولد العاخذ وغيرهم (٢) من أهله ، وأما الذين ناقوا على صلاح الدين
[١٤٧] من جنده فلم يعرض لهم ، ولا أعلمهم أنه علم بحالهم ، وجمع من أموال الذين
قبض عليهم ما يحمل إلى الشام ليستعين به نور الدين — رحمه الله — على الجهاد ؛
[وكان شيئاً كثيراً من الذهب والفضة وغير ذلك (٣)] .

وكان من جملة الذين أمر صلاح الدين بصلبهم قبالة القصر الموريس وكان قاضي

(١) سن : «مخزونة» و«التراب» ، وما بالمتن يتفق ونس الجهاد ، أنظر : (الروضتين ، ج ١
ص ١٢٠) .

(٢) في الأصل : «غيره» وما هنا عن (١٤٥) .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س بعد تصحيحه لغويا ، والذي نلاحظه أن ابن واصل يعتمد هنا
في حديثه عن هذه المؤامرة الخطيرة على العهد الأصمغاني ، وابن الأثير ، وأبي شامة ؛ وهؤلاء
جميعاً مؤرخون سنيون . ولان أبي طي — وهو مؤرخ شيعي — رواية أخرى تتضمن حقائق
وتفاصيل جديدة هامة عن هذه المؤامرة ، ولهذا آثرنا نقل روايته هنا ، قال : «وفي هذه السنة
اجتمع جماعة من دعاة الصريين والموام ، وتآمروا فيما بينهم خفية ، وبكوا على انقراض دولة
الصريين ، وما صاروا إليه من الذل والفقر ، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيرا ،
والمجموعوا وجماعة عينوم من الأمراء وغيرهم ، وأن يكتبوا الفرنج ، وأن يثبوا بالملك النصر ،
وأدخلوا معهم في هذا الأمر ، ابن مصاك ، وأعدوا جماعة من شيعة الصريين آيلة دينوما ، وكتبوا
الفرنج بذلك ، وقرروا معهم الوصول إليهم في ذلك الزمان المقرر ، فخانهم ابن مصاك فيما طأهدم عليه ،
ونكث في اليمن وكفر عنها ، وصار إلى الملك الناصر وعرفه بحيلة ماجرى ؛ قال : فأحضر واحداً
واحداً وقرروا على هذه الحالة ، فأقروا واعترفوا ، واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم وأخذت
أموالهم ، فأحضر السلطان النساء واستفهام في أمرهم ، فأفتوه بقضائهم وصائبهم وغيرهم ، فأمر بصلبهم ؛
وقيل بأن القدي أذاع سزم زين الدين على الواعظ ، وطلب جميع مالابن الداعي (كذا) من المقار
والطال ، فأعطاه جميع ذلك ؛ وكان القدي صلبوا منهم : الفضل بن كامل القاضي ، وابن عبد القوي
الداهي ، والموريس وكان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك ، وشيخ ما كاتب السر ، وعبد الصمد
القشة — أحد الأمراء الصريين — وبجاح الحماي ، ورجل منجم نصراني أرمني كان قال لهم
إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم ، وعمارة البني الشاعر .

القضاة لهم ، فحكى لى (١) القاضى تاج الدين — المعروف بابن بنت الأعز — قاضى القضاة بالديار المصرية — رحمه الله (٢) — قال : « كان العوريس رأى فى منامه كأن المسيح عيسى بن مريم — عليه السلام — أخرج رأسه له من السماء ، فقال له العوريس : الصلب حق ؟ فقال المسيح — عليه السلام — : نعم الصلب حق ؛ فقصّ العوريس رؤياه على معبر ، فقال المعبر : الذى رأى هذه الرؤيا يُصلب ، لأن المسيح معصوم ، فلا يقول إلا حقا ، ولا يمكن كون ذلك راجعاً إلى المسيح عليه السلام ، لأن القرآن العظيم قد نصّ بأنه لم يُصلب ولم يُقتل ، فبقى أن يكون ذلك راجعاً إلى الرأى ، فهو الذى يُصاب ، فكان الأمر كما قال المعبر . »

وسبّر صلاح الدين كتاباً إلى نور الدين يتضمن ذكر القضية (٣) بخط المرتضى ابن قريش ، فاتفق وصول الكتاب إلى دمشق يوم وفاة نور الدين — رحمه الله —
فمنه فصل يقول فيه :

« لم نزل نتوسم من جند مصر ، ومن أهل القصر ، بعد ما أزال [الله (٤)] من بدعتهم ، ونقض من عرى دولتهم ، وخفض من مرفوع كلمتهم ، أنهم أعداء وإن قعدت بهم الأيام ، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام . »

(١) المتحدث هنا هو المؤلف ابن واصل ، لأن القاضى ابن بنت الأعز لم يكن معاصراً لصلاح الدين أول هذه المؤامرة ، وإنما ولد سنة ٥٦١٤هـ وتوفى سنة ٥٦٦٥هـ . انظر أخبار هذا القاضى وترجمته فى : (ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧) و (ابن السمان : شذرات الذهب ، وفيات ٥٦٦٥هـ) .

(٢) هذا الدطاء يدل على أن ابن واصل كان يكتب هذا الجزء من تاريخه بعد سنة ٥٦٦٥هـ ، وهى السنة التى توفى فيها ابن بنت الأعز .

(٣) س : « القصة » .

(٤) ما بين الحاصرتين هن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٥) ، وقد أورد أبو شامة هناك فصلاً من هذا الخطاب أطول بكثير مما أوردته ابن واصل هنا .

ثم ذكر مكاتبتهم للفرنج وزدد رسالهم إليهم (١) .

فصل : « والمولى عالم أن عادة أوليائه الاستفادة من أدبه أن لا يسيطوا عقاباً (٢) . مؤلماً ، ولا يعذبوا عذاباً محكماً ، وهؤلاء القوم لا يزيدهم العفو إلا ضراوة ولا الرأفة عليهم إلا قساوة (٣) ، فقبضنا على طائفة مفسدة ، وجماعة من هذا الجنس متمردة ، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة ، والسرير المناقفة ، فكلاً أخذ الله [تعالى] بذنبه ، فمنهم من أقر طائماً [١٤٨] عند إحضاره ، ومنهم من أقر عند ضربه ولم يقيم على إصراره ، فانكشفت لنا تقارير مختلفة في المراد ، متفقة في الفساد ، فمنهم من أقام رجلاً من بني عم العاضد ، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد ، واختاف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له ، وأما بنو رزبك وبنو شاور فكل منهم أراد الوزارة لينهم (٤) من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة . »

فصل : « وفي أثناء هذه المدة كتبوا سناناً (٥) صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحدة ، والكلمة جامعة ، وأنه ما بين أهلها خلاف يجب به قعود عن نصره ، واستدعوا منه من يقيم على الملوك غيلة ، ويثب عليه مكيدة وحيلة ، فقتل الله بسيف

(١) في الأصل : « إليه » وما هنا عن س (٤٥ ب) .

(٢) في الأصل : « عذاباً » ، وما هنا من (الروضتين) ؛ هذا والنص يختلف هنا أحياناً مما أورده أبو شامة في الروضتين ، لأن المؤلف هنا يختصر ، أما أبو شامة فيورد الفقرات التي ينقلها من نص الرسالة كاملة غير منقوطة .

(٣) س : « خسارة » .

(٤) س : « لبيتهم » وهو موافق لما في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢١) .

(٥) هو راشد الدين سنان بن سامان مقدم إمامية الشام وكان يلقب بالشيخ أو شيخ الجبل ومعنى « الشيخ » هنا السيد أو الرئيس لا الرجل المسن . وقد عرفت هذه الفرقة « بالحشيشية » لأن أتباعها كانوا يتعاطون « الحشيش » . انظر : (محمد عبد الله هنان :

تراجم إسلامية ، ص ٥٥ — ٦٠) و (Casanova : Les Derniers Fatimides. Mémoires de la Mission Archéologique Française du Caire. Tome VI, 3, P. P. 415-445.) .

الشرع المطهر جماعة من الفوارة الفلاة ، الدعاة إلى النار ، الحاميين لاثقالهم وأثقال
من أضلوه من الفجار ، وشنقوا على أبواب قصورهم ، وصلبوا على الجذوع المواجهة
لدورهم ، ووقع التابع لاتباعهم ، وشرد طائفة الاسماعيلية ونفوا ، ونودي أن يرحل
طائفة كافة الأجناد وحاشية القصر ، وراجل (١) السودان إلى أقصى الصعيد ،
وأما من في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم ، ورأى المملوك إخراجهم من القصر
فإنهم مها بقوا (٢) فيه بقيت مادة لا تنحسم الاطماع عنها ، فإنه قبلة (٣) للضلالة
منصوبة ، وبيعة للبدع محجوجة (٤) .

« ومما يطرف به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب السنة فيه ،
اطلع البحث أن فيه داعية خبيثاً أمره ، محتقراً شخصه ، عظيماً كفره ، يسمى
قديماً القفاص ، وأن المذكور مع خوله في الدير المصرية قد فشت في الشام (٥)
دعوته ، وطبقت عقول أهل مصر فنتته ، وأن أرباب المعاش فيها يحملون إليه
جزءاً من كسبهم ، والنساء يبعثن إليه شطرا [وافيا (٦)] من أموالهن ، ووُجدت
في منزلة بالإسكندرية عند القبض عليه والهجوم إليه ، كتب مجردة (٧) ، فيها خلع
المدار ، وضريح الكفر الذي ما عنه اندفاع واعتذار [١٤٩] [ورقاع (٨)]

(١) في الأصل : « ورجل » والتصحيح عن : س (١٤٦) و (الروضتين ، نفس
الجزء والصفحة) .

(٢) في الأصل : « بقوا » والتصحيح عن س والروضتين .

(٣) في الروضتين : « قبالة » .

(٤) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢١) : « وقد عاق عابها أبو شامة
بقوله : « ولعلها محجوبة » .

(٥) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين) : « وفي س (١٤٦) : « في اليد » .

(٦) ما بين الحاصرتين عن (الروضتين) .

(٧) هذا اللفظ ساقط من (س) .

(٨) ما بين الحاصرتين عن (الروضتين) .

يُخاطب فيها بما تقشعر منه الجلود ؛ وكان^(١) يدعى النسب إلى أهل القصر ،
وأنه خرج منه طفلاً صغيراً ، ونشأ على الضلالة كبيراً^(٢) ، وبالجملة فقد كفى الإسلام
أمره ، وحق به مكره ، وصرعه كفره .

ذكر شيء من خبر عمارة وشعره

كان عمارة بن علي البيني من الشعراء الفحول المجيدين ، ولم يكن شيعياً ،
وإنما كان فقيهاً على مذهب الإمام الشافعي — رحمه الله — وقتله وفاقوه وحسن
عهده لمن أحسن إليه ، وقد ذكر مباينته لمذهب القوم من قصيدة [يقول^(٣)] :

أفأعبلهم في الجودِ أفعالُ سنَّةِ وإِن خالفوني في اعتقادِ التشيعِ

وذكر هو عن نفسه في كتاب سنته^(٤) : أنه أقام يزيد ثلاث سنين ، يُقرأ
عليه^(٥) مذهب الشافعي ، قال : « ولي في الفرائض مصنف يقرأ باليمن » ، وذكر أنه
قدم مكة بعد ذلك في سنة تسع وأربعين وخمسة ، قال : « وفي موسم هذه السنة
توفي أمير الحرمين الشريف هاشم بن قُلَيْبَةَ^(٥) ، وولي ولده القاسم بن هاشم ،
وألزمني السفارة عنه والرسالة منه إلى الديار المصرية ، فقدمتها في شهر ربيع الأول

(١) هذه الجملة انفرد بها النص هنا ، ولا توجد في (الروضتين) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س . ومن الفيد أن نشير هنا إلى أن المستشرق « Derenbourg » قد ذيل كتاب (النكت المصرية) لعمارة بمقتبسات عن عمارة وحياته وشعره نقلها عن المرجع التاريخي المختلفة ، ومن بين هذه المقتبسات صفحات من (مفرج الكروب) وينتهي في نقله عن ابن واصل بهذا البيت من الشعر . انظر : (عمارة النكت المصرية ، ص ٦٠٧ — ٦٢٩)

(٣) الإشارة هنا إلى كتابه « النكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية » .

(٤) النص في (النكت ، ص ٢٣) : « وأفت في زيد ثلاث سنين وجماعة من الطلبة يقرؤون عندي مذهب الشافعي والفرائض في المواريت » .

(٥) حكم بين سنتي ١١٣٢ و ١١٥٤ م ، وحكم ابنه القاسم بين سنتي ١١٥٤ و ١٦١١ م .

انظر : (Gerald de Gaury : *Rulers of Mecca* PP. 62, 66) .

سنة خمسين وخمسة ، والخليفة بها يومئذ الفاترين الظافر ، والوزير له الملك الصالح
 طلّاع بن رُزَيْك ، فلما حضرت لاسلام عليهما في قاعة الذهب (١) من قصر الخليفة
 أنشدتها [قصيدة أولها (٢)] :

الحمدُ لايس بعد العزمِ والهيمِ حمدًا يقومُ بما أوأت من النعمِ
 لا أجدُ الحقَّ ، عندي للركابِ يدٌ تمت اللّجُمُ فيها رتبة الخُطمِ
 قرّبنَ بُعدَ مزارِ العزِّ من نظري حتى رأيتُ إمامَ العصرِ من أمِّ
 ورُحنَ من كعبةِ البطحاءِ والحرمِ (٣) وفدأ إلى كعبةِ المعروفِ والكرمِ (٤)
 فهل درى (٥) البيتُ أنى بعد فرقة (٦) ما سرتُ عن (٧) حرمِ إلا إلى حرمِ
 حيث الخلافةُ مضروبٌ (٨) سرادقها بين النقيضين من عفو (٩) ومن نقمِ
 وللإمامةِ أنوارٌ مقدسةٌ تجلو البغيضين من ظلمٍ ومن ظلمِ

(١) قاعة الذهب ، ويقال لها أيضاً « قصر الذهب » ، ذكر (ابن تفرى بردى : النجوم
 الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١١٣) أن الذى بناها هو الخليفة العزيز باقة ، وهى إحدى قاعات القصر
 العرقى الكبير ، وكان يدخل إليه من باب الذهب ومن باب البحر . وموضع هذه القاعة الآن
 — تبأ لتعقيقات الرحوم محمد رمزى ، هامش ٢ من نفس الصفحة بالمرجع السابق — مجموعة
 المباني الواقعة خلف مدرسة النحاسين الأميرية التى بشارع بين القصرين بين شارع بيت القاضى
 وحارة بيت القاضى فى الجزء الواقع خلف المدرسة المذكورة .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن : (النكت المصرية ، ص ٣٢)

(٣) س : « الحرمى » .

(٤) س : « المعروف بالكرم » .

(٥) فى الاصل : « وهل درا » ، وفى س : « فهكذا البيت » ، والتصحيح عن :

(النكت ، ص ٣٢) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٥)

(٦) كذا فى الاصل وفى (النكت) ، ونص (الروضتين) : « زورته » .

(٧) كذا فى الاصل ، وهى فى (النكت) و (الروضتين) : « من » .

(٨) فى س (٤٦ ب) : « مفرق » .

(٩) فى الاصل : « عمر » وفى س : « عم » ، والتصحيح عن (النكت ، ص ٣٢)

(الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٥) .

[١٥٠] وللنبوة آياتٌ تنصُّ (١) لنا
وللمكارمِ أعلامٌ تعلمنا
وللعلی السنُّ تُثني بحامدِها
ورايةُ الشرفِ البذاخُ ترتفعُها
أقسمتُ بالفائزِ المعصومِ معتقداً
لقد حمى الدينَ والدنيا وأهلها
اللابسُ الفخرَ لم تنسجْ غلائلهُ
وجودهُ أوجدَ الأيامَ ما اقترحتُ
قد ملكتهُ العوالي رِقَّ مملكةِ
أرى مقاماً (٥) عظيمَ الشأنِ أو همي
يومٌ من العُمُرِ لم يخطرُ على أُملي
ليتَ الكواكبَ تدنو لي فانظما
تري الوزارَةَ فيه وهي باذلةٌ
عواطفٌ علمتنا (٦) أن يبينها

على الخلفيين (٢) من حُكْمٍ ومن حِكْمٍ
مدحَ الجزيلين من بأسي ومن كرمٍ
على الحميدين من فعلٍ ومن شيمٍ
يدُ الرفيعين من مجدٍ ومن هممٍ
فوزَ النجاةِ ، وأجرَ البرِّ في القسمِ
وزيرهُ الصالحُ الفراجُ للفهمِ
إلا يدُ الصنعين (٣) السيفِ والقلمِ
وجودهُ أعدمَ الشاكينَ للعدمِ
تعبيرُ أنفِ الثريا عِزَّة (٤) الشممِ
في بَقْطَى أنها من جُملةِ الحلمِ
ولا ترتتُ إليه رغبةُ المهتمِ
عقودَ مدحٍ ، فما أَرْضَى لكم كَلِمِي
عند الخِلافةِ نُصْحاً غَيْرَ مُتَمِّمِ
قِرابَةً من جميلِ الرأى لا الرِحمِ

- (١) كذا في الأصل وفي س وفي (النكت) ؛ وفي الروضتين : « تفيء » .
(٢) كذا في الأصل ، وفي الروضتين والنكت ، وفي س : « الخلفين » .
(٣) في الأصل وفي الروضتين : « الصنعين » ، وما هنا عن : (النكت ، ص ٣٣)
(٤) في الأصل ، وفي الروضتين ، (ج ١ ، ص ٢٢٦) : « غرة » ، وما هنا عن : (النكت ، ص ٣٣) .
(٥) في الأصل : « مقام » والتصحيح عن س (١٤٧) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٦)
(٦) كذا في الأصل وفي (النكت) ؛ وهي في (س) و (الروضتين) : « أعلمنا » .

خليفةٌ ووزيرٌ مدَّ عندهما ظلًّا على مفريقِ الإسلامِ والأُممِ
زيادةُ النيلِ نقصٌ عندَ فيضِهما فما عسى تتعاطى مِنَّةَ الدِّيمِ

قال : « وعهدى بالملك الصالح وهو يستعيدها في حال النشيد مرارا ، والأستاذون
والأمراء (١) يذهبون (٢) في الاستحسان كل مذهب ، ثم أفيضت على الخلع
من ثياب الخلافة مُذهبة ، ودفع إلى الصالح خمسمائة دينار ، وإذا بمض الأستاذين (٣)
قد خرج من عند السيدة بنت الإمام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى ، وحمل المال معي
إلى منزلي ، وأطلقت لي من دار الضيافة (٤) رسوم لم تُطلق لأحد قبلي ، ونهادتني
أمراء الدولة [١٥١] إلى منازلهم للولائم ، واستحضرني الصالح للمجالسة ، ونظمني
في سلك [أهل (٥)] المؤانسة ، وانتالت على صلواته ، وغمرني برُّه ، ووجدتُ
بمحضرته من أعيان أهل الأدب : الشيخ الجليل أبا المعالي بن الحباب (٦) ، والموفق

(١) النص في (النسك ، ص ٣٤) : « وأعيان الأمراء والكبراء » .

(٢) هذا اللفظ ساقط من س .

(٣) كان كبار القواد من خواص الخليفة في العصر الفاطمي يسمون « بالأستاذين » ، يقول
صاحب (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٧) : « وأجلهم المحكون وم الذين يدورون معهم
على أحناءهم كما تفعل العرب والغاربة ، وهم أقربهم إليه ، وأخصهم به ، وكانت عدتهم تزيد
على ألف » .

(٤) ذكر (القريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣٨) أن هذه الدار كانت بحارة برجوان
وتعرف بدار الأستاذ برجوان ، وفيها كان يسكن ، ولما قدم بدر الجمالي إلى مصر بنى هناك
دارا عظيمة سكنها ، ثم سكنها من بعده ابنه الظفر أبو محمد جعفر ، فمرفت بدار الظفر ، وبعد
موته اتخذت دار ضيافة يرسم الرسل الواردين من الملوك ، واستمرت كذلك إلى أن انقرضت
الدولة ، فأُزيل بها السلطان صلاح الدين أولاد العاضد . انظر أيضا (نفس المرجع ، ص ٣٤٣ —
٣٤٤)

(٥) ما بين الحاصرتين عن س و (النسك ، ص ٣٤)

(٦) هو القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأنجلي السعدي
التميمي ، سمي بالجليس لأنه كان جليس الخلفاء الفاطميين مقربا إليهم ، وهو من ذرية بني الأغلب
التميمين أصحاب إفريقية ، تولى ديوان الانشاء بالاشتراك مع الموفق بن الخلال في عهد الخليفة
الفائر ووزارة الصالح طلائع بن رزبك ، وذكر حمارة في (النسك ، ص ٥٩٥) أنه دخل =

أبا الحجاج يوسف بن الخلال [صاحب ديوان الإنشاء^(١)] ، والمهذب أبا محمد الحسن^(٢) بن الزبير ، وما من هذه الحلبة [أحد^(٣)] إلا ويضرب في الفضائل النفسانية والرئاسة الإنسانية^(٤) بأوفر نصيب ، وما زلت أأخذو على طرائقهم حتى نظمتني^(٥) في سلك فرائدكم .

= اليمن . وتوفي سنة ٥٦١ هـ . انظر ترجمته في : (المهذب : الخريدة ، ج ١ ص ١٨٩ — ٢٠٠) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤١) و (ابن قلاؤنس : الديوان ص ١٠٠ و ١١٥) و (ابن شاعر الكنتي : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٥٧٧ — ٥٧٩) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٥١) و (ابن تفرى بردى : النجوم ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ و ٣٧١) و (السبوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣٢٤) و (الدكتور محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، ص ٢١٥ — ٢١٨) .

(١) ما بين الحاصرتين (عن عمارة : النكت ، ص ٣٥) . والموفق أبو الحجاج يوسف ابن محمد بن الخلال كان آخر رؤساء ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي ، وعليه تخرج القاضي القاضل ثم خلفه على رئاسة هذا الديوان . وقد لبث ابن الخلال متوليا لديوان الإنشاء إلى أن طمن في السن فلزم بيته ، وكان ذلك في عهد وزارة أسد الدين شيركوه للخليفة العاضد . وتوفي ابن الخلال سنة ٥٦٦ هـ . انظر ترجمته وأخباره في : (المهذب : الخريدة ، ج ١ ، ص ٢٣٥ — ٢٧٥) و (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٦ ، ص ٢١٩ — ٢٢٤) و (ابن المهذب : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢١٩) و (السبوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣٢٤) و (الدكتور محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، ص ٣٤٤ — ٣٤٧) .

(٢) في الأصل : «الحسين» والتصحيح من : س (٤٧ ب) و (المهذب : الخريدة ، ج ١ ، ص ٢٠٤) . وهو المهذب أبو محمد الحسن بن علي بن الزبير ، وقد كان هو وأخوه القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير من أشهر شعراء مصر في العصر الفاطمي . وموطنهما الأصلي أسوان ، وسافر كل منهما إلى اليمن . توفي سنة ٥٦١ هـ . انظر ترجمته في : (المهذب : الخريدة ، ج ١ ، ص ٢٠٤ — ٢٢٥) و (ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٩ ، ص ٤٧) و (ابن شاعر الكنتي : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٨) و (الادفوى : الطالع السعيد ، ص ١٠٠) و (الدكتور محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، ص ٢٠٣ — ٢١٠) .

(٣) ما بين الحاصرتين من س و (النكت ، ص ٣٤) .

(٤) هذا اللفظ ساقط من س .

(٥) س : « . . على طريقهم حتى نظمتني » .

قال [عمارة] : وأنشدت الصالح وهو بالقبو (١) من دار الوزارة قصيدة منها
[أقول (٢)] .

دعوا كلَّ برقي شتمم غيرَ بارقي يلوحُ على الفسطاطِ صادقُ بشره
وزوروا المقامَ (٣) الصالحى فكلُّ من على الأرضِ ينسى (٤) ذكره عند ذكره
ولا تجعلوا مقصودكم طلبَ الغنى فتجنوا (٥) على مجد الزمانِ وفخره
ولكن سلوا منه العلى (٤) تظفروا بها فكل امرءٍ يرعى (٦) على قدرِ قدره

قال : ولما جلس شاور في دار الذهب قام الشعراء والخطباء ولفيف الناس
إلا الأقل شاكون (٧) من بني رزيك ، وضرغام نائب الباب ، وبجى بن الخياط (٨)
اسفهلار (٩) ، فأنشدته :

زالت ليالى بني رزيك وانصرمت والحمد والدم فيها غير منصرم
كان صالحهم يوماً وعادتهم فى صدرِ ذا اللست لم يقعد ولم يقم
كنا نظن — وبعض الظن مائة — بأن ذلك جمع غير منهم
فقد وقعت وقوع النسر (١٠) خانهم من كان مجتمعاً فى ذلك الرخم

(١) س : « بالقرب » وما هنا يتفق مع (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٦) و (النكت ، ص ٣٥)

(٢) ما بين الحاصرتين عن س و (النكت ، ص ٣٤) .

(٣) س (٤٧ ب) : « مقام » ، وما هنا يتفق ونس الروضتين و (النكت ، ص ٣٦)

(٤) فى الأصل : « ينسا » و « الملا » .

(٥) فى س : « يقصر » ، وفى الروضتين : « فتجنوا » ، وما هنا يتفق ونس النكت

(٦) س : « يجرى » وما هنا يتفق ونس (الروضتين) و (النكت ص ٣٦) .

(٧) كذا فى الاصل ، وفى (النكت ، ص ٦٩) : « ينالون » .

(٨) انظر ماقات ص ١٥٦ ، هامش ٢

(٩) انظر ماقات ص ٢ ، هامش ١

(١٠) س (٤٧ ب) : « الفر » . وما هنا يتفق ونس (الروضتين) و (النكت ، ص ٦٩)

ولم يكونوا عدوًّا ذلَّ جانبه (١) وإنما غرقوا في سبيلك العريم
وما قصدتُ بتعظيمي عداك (٢) سوى تعظيم شأنك ، فاعذرنى ولا تلم
ولو شكرتُ لياლებهم محافظةً لعمدها لم يكن بالهدر من قديم
ولو فتحتُ فى يوماً بدمهم لم يرضَ فضلكَ إلا أن يسدَّ فى
والله يأمر (٣) بالإحسانِ عارفةً منه ، وينهى عن الفحشاء فى الكليم

[١٥٢] قال : فشكرنى شاور وأبناءؤه على الوفاء لبني رزيك .

ذكر ورود الرسالة النورية إلى صلاح الدين

كنا قد ذكرنا (٤) أن نور الدين — رحمه الله — سبّر موفق الدين خالد بن
القيسرانى إلى صلاح الدين فى معنى الحمل إلى الشام ورفع (٥) أوراق بالأعمال المصرية ،
ولما وصل (٦) إلى صلاح الدين ، وأنهى (٧) إليه رسالة نور الدين أطلعه
[صلاح الدين] (٨) على أحوال البلد ، وقال (٩) : « هؤلاء الأجناد ، فأعرضهم وأثبت

(١) س : « جانبهم » وما هنا يتفق ونس (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٦) و (النكت ، ص ٦٩) .

(٢) س : « عداك » وما هنا يتفق ونس (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧) ، و (النكت ، ص ٧٠) : « سواك - سوى » .

(٣) فى الاصل : « وفى س : « ماسر » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧) و (النكت ، ص ٧٠) .

(٤) أنظر ما فات هنا ، ص ٢٢٢

(٥) س (١٤٨) : « ووقع » .

(٦) س : « ورد » .

(٧) فى الأصل : « وفى س : « أنها » بالألف .

(٨) ما بين الحاصرتين عن س .

(٩) ينقل ابن واصل هنا باختصار عن (البرق الشامى للمهنا) أنظر نصه لى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩) . وفى نفس المرجع والصفحة رواية أخرى لأبن أبى طى ، آثرنا نقلها هنا لأهميتها والمقارنة ، وهى : « قال ابن أبى طى : وفى هذه السنة وصل رسول نور الدين -

أخبارهم ، وما يُضبط مثلُ هذا الإقليم العظيم إلا بالمال العظيم ، ثم أنت تعرف مصر وعظماؤها ، وأنهم معتادون النعمة الواسعة ، وقد تصرفوا في أماكن لا يمكن انتزاعها منهم ، ولا يسمحون بأن يُنقص من ارتفاعها ، ثم أخذ [صلاح الدين] ^(١) في جمع مال يرفعه [إلى نور الدين] ^(١) ، وحصل لخالد من الأموال ما لم يكن في خلدته . ثم اتفقت وفاة نور الدين — رحمه الله — فكان ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة الملك العادل نور الدين

ابن زنكي بن آق سنقر — رحمه الله تعالى —

كنا ذكرنا أن نور الدين كان قد عزم على التجهز للسجود إلى الديار المصرية لأخذها من صلاح الدين ، فإنه رأى منه فتوراً في قصد الفرنج من ناحيته ، ^(٢) وكان يعلم ^(٢) أنه إنما يتمتع صلاح الدين من الغزو للخوف منه والاجتماع به ، وأنه يؤثر

= الوفاق بن القيسرائي إلى الديار المصرية ، واجتمع بالسلطان الملك الناصر ، وأنهى إليه رسالة نور الدين ، وطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من الغل فصعب ذلك على السلطان ، وأراد شق العصى ، لولا ما تاب إليه من السكينة والعقل ، فأمر بعمل الحساب ، وعرضه على ابن القيسرائي ، وأداء جرائد الأجناد بمبالغ إنطاعهم ، وتمييز جاكباتهم ، ورواتب نقاتهم ، فلما حصل عنده جميع ذلك أرسل معه هدية إلى نور الدين مع الفقيه عيسى . الخ . ثم نقل ابن أبي طي بعد ذلك ثبنا بمفردات هذه الهدية التي أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين ، ولهذا الثبث أمرته لأن ابن أبي طي نقله كما ذكر من « خط الوفاق بن القيسرائي » ، ثم عقب عليه بقوله : « وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين ، لأنهم اتصل بهم وقاته ، فنها ما أعيد ، ومنها ما استهلك ، لأن الفقيه عيسى وابن القيسرائي وضعوا عليهم من نومهم ، واستبدوا بأكثرها ، وقيل إنها وصلت جميعها إلى السلطان ، لأنه اتصل به خبر موت نور الدين ، فأنقذ من ردها ، قال : وحدثني من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالا لم يعلم مقدارها » : انظر (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩) .

(١) ما بين الحاصرتين عن س .

(٢) مكان هذين الفظين في س : « وذلك » — والمؤلف ينقل هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥١) ، ولاحظ أن المصدر الأول لأخبار الفترة بين نور الدين وصلاح الدين هو ابن الأثير ، وهو يكرر الفكرة ويؤكد ما كلما سنحت له فرصة .

كون الفرنج (١) في الطريق ليجتمع بهم على نور الدين ، فأرسل نور الدين إلى الموصل وبلاد الجزيرة وديار بكر وغيرها يطلب المساكن للفزاة ، وكان عزمه أن يترك (٢) الصاكر مع ابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي — صاحب الموصل والشام (٣) — ، ويسير هو بعسكره إلى مصر ، فعاقه القدر المحتوم عن قصده .

ولما كان يوم عيد الفطر من هذه السنة — أعنى سنة تسع وستين وخمسة — أمر نور الدين — رحمه الله — بتطهير ولده الملك الصالح إسماعيل ، فاحتفل لهذا الأمر ، وزينت دمشق أياما ، وهناه كاتبه عماد الدين الأصفهاني بتصيدة أولها :

عيدان : فِطْرٌ وَطَهْرٌ فَتَحَ قَرِيبٌ وَنَصْرٌ
 كلاهما لك فيه حَقًّا هِنَاءٌ (٤) وَأَجْرٌ
 [١٥٣] تَجَلَّى عَلَى الطُّهْرِ نَامُ زَكَ لَهُ مِنْكَ نَجْرٌ (٥)
 محمودُ الملكُ العَادُ لُ الكَرِيمُ الأَعْرُ
 وبابنه (٦) الملكِ الصَّادِ لِح العَبِيونِ (٧) تَقَرُّ
 مولى به اشتدَّ للدينِ والشَّرِيعَةِ أَزْرُ
 نورٌ تَجَلَّى (٨) عَيَانًا مَا دَوَّنَهُ اليَوْمَ مِثْرُ

- (١) صيغة س : « وأنه يؤثر الفرنج كونهم في الطريق » .
 (٢) في الأصل : « ينزل » والتصحيح عن المرجع الذي ينقل عنه هنا حرفيا وهو (الكامل لابن الأثير) .
 (٣) في الأصل : « بالشام » والتصحيح عن ابن الأثير .
 (٤) في الأصل ، ولى س : « حق هناك » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧) .
 (٥) كذا في الأصل وفي الروضتين ؛ ولى س : « لحر » .
 (٦) س : « ونابيه » .
 (٧) في الأصل : « للبيون » ولى س : « به البيون » والتصحيح عن الروضتين .
 (٨) في الأصل ولى س : « تجلا » .

أَضَحَّتْ مَسَاعِيكَ غُرًّا كَمَا أَيَادِيكَ غُرُّرُ (١)
 وَكَلُّ قَصْدِكَ رُشْدٌ وَكَلُّ فِعْلِكَ بَرٌّ
 وَإِنَّ حُبَّكَ دِينٌ وَإِنْ بُغْضُكَ كُفْرٌ
 إِنَّا بِيَمِينِنَاكَ بَيْنٌ كَمَا بِيَسْرَاكَ يُسْرٌ
 وَلِلْمَوَالِسِينَ نَفْعٌ وَلِلْمَعَادِينَ ضُرٌّ

[ومنها يقول] (٢) :

تَمَلَّ تَطْهِيرَ (٣) مَلِكٍ لَهُ الْمُلُوكُ تَخْرِيءٌ (٤)
 وَكَيْفَ يُعْمَلُ لِلطَّا هَرِ الْمُطَهَّرِ طُهُرٌ
 يُزْهِى سَرِيْرٌ وَتَاجٌ بِهِ وَدَسْتُ وَصَدْرٌ
 هَذَا الطُّهُورُ ظُهُورٌ (٥) عَلَى الزَّمَانِ وَأَمْرٌ
 وَذَا الْخَلْقَانُ (٦) خِتَامٌ بِمَسِيكِ طَابَ نَشْرٌ
 رُزِقْتَ عُمْرًا طَوِيْلًا مَا طَالَ لِلدَّهْرِ عُمْرٌ

وفي يوم العيد — وهو في يوم الأحد — ركب نور الدين على الرسم المعتاد إلى الميدان الأخضر الشمالي بدمشق لطمن (٧) الخلق ، ورمى القيق (٨) ، وأمر فضربت

- (١) في الأصل ، وفي س : « غر » ، وما هنا عن الروضتين .
 (٢) ما بين الحاصرتين عن س ؛ وانظر القصيدة كاملة في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧)
 (٣) س : « بتطهير » .
 (٤) س : « تخر » .
 (٥) في الأصل : « ظهور » وفي س : « ظهوراً » والتصحيح عن الروضتين .
 (٦) س : « الختام » .
 (٧) في الأصل . وفي س (١٤٩) : « ليطمن » والتصحيح عن الروضتين ، وقد نقل صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٢٧) خبر هذا اليوم عن المهاد الكاتب بألفاظه ووجه المسجوعة ، وابن واصل مختصر هنا نص المهاد .
 (٨) القيق : أو القياق — لفظ تركي ، معناه لفة نبات القرعة المسلية (une courgette) ومعناه اصطلاحاً الهدف الذي كان يستعمل في اللعبة التي عرفت في الشرق في العصور الو-طى =

له خيمة في الميدان القبلي الأخضر ، وأمر بوضع المنبر ، وخطب القاضي شمس الدين ابن الفرائش (١) — قاضي المعسكر — بعد أن صلى به ، ثم مدَّ السباط العام ، وأنهب على عادة الترك ، وعاد [نور الدين] إلى القلعة ، ومدَّ خوانه الخاص .

وفي غد هذا اليوم — وهو يوم الاثنين [١٥٤] ثاني شوال — ركب في خواصه وأصحابه ، ودخل الميدان والأمير همام الدين مودود (٢) — وهو من أكبر أمرائه — يسايره ، فقال لنور الدين : « هل نكون هنا في مثل هذا اليوم في العام القابل ؟ » . فقال نور الدين : « قل هل نكون هنا بعد شهر ؟ فإن السنة بعيدة » فجرى على منطقتها (٣) ما جرى به القدر السابق ، فإن نور الدين لم يصل إلى آخر الشهر ، وهمام الدين لم يصل إلى آخر العام .

= بنفس الاسم — القبق — ، وكان طريقة لعب القبق كما وصفها (Dosy: Supp. Dict. Arab) أن ينصب صار طويل من خشب ، يكون في رأسه شكل قرعة من ذهب أو فضة بمثابة الهدف ، ويكون في القرعة طير حمام ، ثم يأتي اللاعبون المباراة في رمي الهدف بالشباب أو السهام وهم على ظهور الخيل ، فمن أصاب منهم القرعة وأطار الحمام حاز السباق وأخذ القرعة المدنية لنفسه ، غير أن (القريزي : الخطاط ، ج ٣ ، ص ١٨٠) وصف هذه اللعبة وصفا يختلف عن الوصف السابق بعض الشيء ، ويبدو أن وصف القريزي هو الذي يعنيه المتن هنا ، فنس المتن : « اطمن الحلق ، ورمى القبق » . والقريزي يقول : « والقبق عبارة عن خشبة طالية جدا ، تنصب في براح من الأرض ، ويعمل بأعلامها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسبها وترمي بالسهام جوف الدائرة لكي تمر من داخلها إلى غرض هناك ، تمرينا لهم على إحكام الرمي ، ويدبر عن هذا بالقبق في لغة الترك » . ثم تحدث بعد ذلك في نفس الجزء والصفحة عن الميدان الذي كان بالقاهرة في العصر المملوك لهذه اللعبة ، ويسمى « ميدان القبق » . انظر أيضا (القريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٨ ، حاشية رقم ٦ للدكتور زيادة) .

(١) كذا في الأصل ، وفي س ، وفي الروضتين نقلًا عن الهامد : « ابن المقدم » .

(٢) عرف به صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٢٨) نقلًا عن الهامد ، قال : « وكان قديما

في أول دولته (أي دولة نور الدين) وإلى حلب » .

(٣) س : « منطقه » ، وما هنا يتفق ونس (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٨) وهو

الصحيح كما يدل عليه المتن فيما يلي .

ثم شرع نور الدين باللعب بالكرة مع خواصه ، فاعترضه يرتقش — أمير آخر —
وقال له : « باش » ، فحصل عنده غيظ على خلاف عادته في الكرم والحلم ، فزجره وزيره ،
ثم ساق ودخل القاعة ، ولم يخرج منها إلا ميتا ، وأصابته (١) علة الخوانيق ، فبقي أسبوعاً
في منزله مشغولاً بالنازلة التي نزلت به ، والناس مشغولون بزينة الختان والفرح ،
والبلد مزين لظهور الملك الصالح ، فما انتهت الأفراح إلا بحلول المصيبة به رحمه الله .

وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع ، وكان مهيباً فما روجع ، وحكى الطبيب
جمال الدين الرحبي (٢) الدمشقي قال : « استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه
مع غيري من الأطباء ، فدخلنا عليه وهو في بيت صغير بقاعة دمشق ، وقد تمكنت
الخوانيق به وقارب الهلاك ، فلا يكاد يُسمع صوته ، فقلت له : كان ينبغي
أن لا يؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض إلى هذا الحد ، فالآن ينبغي أن تنتقل
إلى مكان فسيح فله أثر في هذا المرض ، وشرعنا في علاجه فلم ينفع فيه الدواء ،
وعظم الداء ، ومات عن قريب » .

قال عمار الربيع الكاتب (٣) : « كان لنور الدين — رحمه الله — صفة (٤)

(١) س (١٤٩) : « وكان سببه أنه أصابته . . الخ » .
(٢) هو جمال الدين عثمان بن يوسف بن حيدرة الرحبي ، ولد ونشأ في دمشق ، وكان كما
يذكر (ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٢٠١) : أوحده زمانه ، اشتغل
بصناعة الطب على والده وعلى غيره ، وأتقنها إتقاناً لا مزيد عليه ، وخدم في البيمارستان الكبير
الذي أنشأه نور الدين وبقي به سنين ، وكان بحم التجارة وبعانها ويسافر بها في بعض
الأوقات إلى مصر ، ويأتي من مصر بتجارة ، ولما وصلت التتر إلى الشام في سنة ٦٥٧ هـ توجه
إلى مصر وأقام فيها ، ثم مرض وتوفي بالقاهرة في سنة ٦٥٨ هـ .

(٣) روى هذا الخبر أيضاً عن المهاد صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٢٨) .
(٤) جاء في (اللسان) : صفة البنيان طرته ، ومن معانيها في (محيط المحيط) : السطبة
المرتفعة تستعمل للجلوس عليها ، وهذا هو المعنى المقصود هنا ، ومن هذا اللفظ أخذت الكلمة
الانجليزية (sofa) فقد ذكرت المعاجم الإنجليزية أنها من أصل عربي وأن معناها الأريكة أو المقعد
الطويل ذي الظهر واليدين (a long seat with stuffed bottom, back, and arms) .
انظر أيضاً : (المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٧ ، هامش ٢ و Twentieth Century
Dictionary .

في دار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال، وكان جلوسه على تلك الصفة في أكثر (١) الاوقات، فلما جاءت سنة الزلزلة بني بإزاء تلك الصفة بيتاً من الأخشاب، وهو بيت فيه [١٥٤] ويصبح، ويخلو بعبادته، فُدفن في ذلك البيت الذي اتخذته هي من الحمام، وكانت وفاته يوم الأربعاء حادي عشر شوال من هذه السنة — أعني سنة تسع وستين وخمسةائة — .

وكان صلاح الدين قد استنصر به قصد نور الدين له، فحكى عنه القاضي بهاء الدين ابن سُرَاد — قاضي حلب رحمه الله — قال : « كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن (٢) فكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده (٢) إذا تحقق قصده، وكنت أنا وحدي أخالفهم وأقول : لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى ورد الخبر بوفاته — رحمه الله — . »

قلتُ : ودفن نور الدين — رحمه الله — بالقلعة مدة، ثم نقل إلى مدرسته التي أنشأها بدمشق، ودفن بها (٣)، وقبره بها معروف بزار .

صفته وسيرته — رحمه الله —

كان أسمى طويلاً [القامة (٤)] ليس له لحية إلا في حنكه (٥)، وكان واسع الجبهة، حسن الصورة، حلو البينين .

(١) س : « جميع الأوقات » ، والروضتين : « جميع الأحوال » .
(٢) الأصل : « يكاشف ونخالف ويشق عصاه ويلقى عسكره بمصاف نرده » ، والتصحيح عن (ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٧) .
(٣) هذان اللفظان ساقطان من س .
(٤) ما بين الحاصرتين عن س ؛ وهذا الوصف منقول عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٥١) ، وعنه نقل أيضاً صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩) .
(٥) س : « إلا قليل شمرات في ذقنه » ، وما هنا يتفق مع الأصل المنقول عنه ، وهو ابن الأثير ، كما أنه يتفق أيضاً ونص الروضتين .

وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، فكان عمره قريباً من ثمان وخمسين سنة .

وأما سيرته — رحمه الله — في عدله وزهده^(١) ، وخوفه من الله تعالى ، وجهاده لعدو الدين ، وصدقاته ومعروفه وإحسانه ، وابتغائه لثواب الله تعالى ولدار الآخرة ، فهو أشهر من أن يذكر ، فإني لا أعلم ملكاً بعد الخلفاء الراشدين اجتمع فيه من الصفات الجميلة مثل ما اجتمع فيه — رحمه الله — ؛ ولندكر ما نُقل إلينا من أخباره مما يستدل به على ما ذكرناه ، وإن كان قد بلغ في الوضوح والشهرة إلى حد التواتر .

وأما زهده فالمشهور عنه أنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا فيما يخصه من ملك كان قد اشتراه من سهمه من الغنينة ، ومن الأموال المرصدة لصالح المسلمين ، يُحضر الفقهاء ويستفتيهم في أخذ ما يحمل له من ذلك ، فيأخذ ما يفتونه بحله ، ولا يتعداه إلى غيره ، ولم يلبس حريراً ولا ذهباً ولا فضة ، ومنع من شرب الخمر في جميع بلاده ، ومن إدخالها إلى بلادها ، وكان يحد^(٢) [١٥٦] شاربها الحد الشرعي ، وكل الناس عنده فيه سواء .

وحدث شخص كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين أنر زوجة نور الدين — وكان وزيرها — ، قال : «^(٣) كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختص به ، وتقوم في خدمته لا تتقدم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه ، ثم تعزل عنه إلى المكان الذي يختص بها ، وينفرد هو ، تارة يطالع رقع أصحاب الأشغال ، أو مطالعة

(١) في الأصل : « ورفده » وما هنا من س (٤٩ ب) .

(٢) س : « بجلده » .

(٣) هذه الأخبار عن نور الدين وسيرته منقولة عن : (الروضتين ، ص ٦ وما بعدها) .

انظر أيضاً : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥١ — ١٥٢) و (سبط ابن الجوزي :

مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٠٧ وما بعدها) .

كتاب أناه ويحبب عنه ، ويصلي ويطيل الصلاة ، وله أورد في النهار ، فإذا جاء الليل وصلى العشاء ونام يستيقظ نصف الليل ، ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة ، فيظهر للركوب ويشغل بمهام الدولة ، قال : فإنها قلت عليها النفقة ، ولم يكفها ما كان قرره لها ، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها ، فلما قلت له تنكر واحمر وجهه ثم إنه قال : من أين أعطيها ، أما يكفها مالها (١) ؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها ، وإن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هو لي فبئس الظن ، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتح إن كان من عدو الإسلام ، وأنا خازن (٢) عليها فلا أخونهم فيها ، ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاثة (٣) دكاكين ملكا (٤) قد وهبتها إياها ، فلتأخذها ، وكان يحصل منها قدر قليل .

وكان (٥) له صديق بالجزيرة من الصالحين ، وكان نور الدين يكتابه ويراسله ويرجع إلى قوله ، فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة ، فكتب إليه يقول له : « ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعدب الخيل لغير فائدة دينية » فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول له : « والله ما حملني على اللعب بالكرة اللهو والبظر ، إنما نحن في ثغر ، والعدو قريب منا ، وبيننا نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب ، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً ، شتاءً وصيفاً ، إذ لا بد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً لا قدرة لها على إدمان

(١) في الأصل : « ما يكفها » والتصحيح من س بدد مراجعة الروضتين .

(٢) كذا في الأصل ، وفي س (٥٠ ب) ولي الروضتين : « خازنهم » .

(٣) في الأصل : « ستة » ، والتصحيح عن س ، و (الروضتين ، ص ٦) و (مرآة

الزمان ، ص ٣٠٧) .

(٤) في الأصل ، وفي س : « ملك » والتصحيح عن الروضتين .

(٥) قبل هذا الخبر في س : « وكان أيضاً هذا الشخص ، وكان رضيع زوجة نور الدين ووزيرها » ، مما يفيد أنه ينقل هذا الخبر عن رضيع زوجة نور الدين ، أما صاحب الروضتين فيرويه ملحوباً إلى ابن الأثير وإنما مع اختلاف يسير في النص .

السير في الطلب ، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب عنها جامها ، وتعود [١٥٧] سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب ، فهذا والله هو الذي يبعثنى على اللعب بالكرة .
وحمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة ، فلم يحضرها عنده ، فوصفت له ، فلم يلتفت إليها ، وبينما هم معه في حديثها إذ قد جاءه رجل صوفي ، فأمر بها له ، فقيل له : « إنها لا تصاح لهذا الرجل ، ولو أعطى غيرها كان أنفع له (١) » ، فقال : أعطوها له ، فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة ، فسلمت إليه ، فسار بها إلى بغداد ، فأباعها بستمائة دينار مصرية (٢) ، أو سبعمائة دينار (٣) .

وأما (٤) عدله فذكر أنه كان بدمشق يأعب بالكرة فرأى إنسانا يتحدث آخر ويشير بيده (٥) إليه ، فأرسل إليه وسأله عن حاله ، فقال : « لي مع الملك العادل حكومة ، هذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم بما كنى على الملك الفلاني » ،

(١) كذا في الاصل ، وفي الروضتين ، وفي س : « كل أصوب » .

(٢) كذا في الاصل ، وفي س ؛ وفي الروضتين : « أميري » .

(٣) وقد عقب صاحب الروضتين (س ٦) على هذا الخبر بقوله : « قلت : قرأت في حاشية هذا المكان من كتاب ابن الأثير بخط ابن العلى إياها ، قال أعطاها الشيخ الصوفية حماد الدين أبي الفتح ابن حموية بنير طلب ولا رغبة ، فبشها إلى همدان فبيعت بألف دينار » . انظر أيضاً : (مرآة الزمان ، س ٣٠٨) .

(٤) روى صاحب الروضتين (س ٧) هذا الخبر وغيره منسوبا إلى ابن الأثير ، وقد رجعنا إلى تاريخه الكامل فلم نجد هذه الأخبار به ، والرجح أنها نقلت عن كتاب آخر لابن الأثير عن نور الدين ودواته عنوانه « الباهر » فقد قال ابن الأثير عند ترجمته لنور الدين في الكامل : « وقد طالمت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بمد الحفاء الراشدين وهم بن عبد العزيز أحسن من سيرته ، ولا أكثر محريامته لذلك ، وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب (الباهر) من أخبار دواتهم ، ولذا كررنا هنا نبذة لعل يقف هايتها من له حكم فيقتدى به . . . الخ » . والذي أرجحه أن (الباهر) عنوان آخر لكتاب ابن الأثير المعروف « تاريخ أتابكة الموصل » .
(٥) كذا في الأصل ، وفي س « به » ، والتصحيح عن (الروضتين) .

فعاد إليه ، ولم يتجاسر يعرفه ما قال ذلك الرجل ، وكتبه ذلك الأمر ، فلم يقبل منه [نور الدين] غير الحق ، فذكر له قوله ، فألقى الجوكان (١) من يده ، وخرج من الميدان ، وسار إلى القاضي ، وهو إذ ذاك كمال الدين بن الشهرزوري ، وأرسل [نور الدين] إلى القاضي يقول له : « إني قد جئت محاكماً ، فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري » ، فلما حضر ساوي خصمه وحاكمه ، فلم يثبت عليه حق ، وثبت الملك لنور الدين ، فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن معه : « هل ثبت له عندي حق ؟ » . فقالوا : « لا » ، قال : « اشهدوا أنني قد أوهبته هذا الملك الذي حاكمني عليه ، وهو له دوني ، وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي ، وإنما حضرت معه لئلا يظن أنني ظلمته ، فحين ظهر أن الحق لي وهبته له » .

وذكر (٢) أنه دخل يوماً إلى خزانة بيت المال ، فرأى فيها مالاً أنكره ، فسأل عنه ، فقيل : إن القاضي كمال الدين أرسله ، وهو من جهة كذا ، فقال : « إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء » ، وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه ، فأرسله متولى الخزانة إلى كمال الدين ، فردّه إلى الخزانة ، وقال : « إذا سألك الملك العادل عنه فقل (٣) له عنى إنه له » ، فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى ، فرآه ، فأنكره على الثواب (٤) ، وقال : « ألم أقل

(١) الجوكان كلمة فارسية معناها المحجن أو العصا أو الصولجان الذي تضرب به الكرة في اللعبة التي كانت تعرف باسم « الكرة والصوالة » والتي تعرف الآن باسم « البولو Polo » ؛ وكانت الجوكان عصي مدهونة طولها نحو من أربعة أذرع ، وبرأسها خشبة مخروطية معقوفة تزيد نصف ذراع . وكان حامل الجوكان للسلطان يسمى « الجوكندار » . أنظر : (أحمد تيمور باشا : لعب العرب ، ص ٥٥) و (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٨) و (المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٥ ، هامش ١) و (Dozy : Supp. Dict. Arab) .

(٢) هذا الخبر يرويه أبو شامة في (الروضتين ، ص ٧) أيضاً عن ابن الأثير ، ولا وجود له في الكامل .

(٣) في الأصل : « نقول » .

(٤) كذا في الأصل ، وفي الروضتين ، وفي س : « على متولى الخزانة » .

لكم إن المال [١٥٨] يعاد إلى أصحابه ؟ فذكروا له قول كمال الدين ، فرده إليه ، وقال للرسول : « قل لكمال الدين : أنت تقدر على حمل هذا ، وأما أنا فرقتي رقيقة لا أطيق حمله والمخاصة عليه بين يدي الله تعالى ، يُعاد ، قولاً واحداً » . فأعاده (١) .

ونور الدين — رحمه الله — أول من بنى دار الكشف ، ومماها دار العدل ، وكان سبب بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق ، وأقام [بها] (٢) أمراؤه — وفيهم أسد الدين شيركوه بن شاذي ، وكان قد عظم شأنه حتى صار كأنه شريك له في الملك — ، فاقنوا الأملاك ، وأكثروا ، وتعدى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها ، فكثر الشكاوى إلى القاضي كمال الدين ، فأُنفذ بعضهم من بعض ، ولم يقدم (٣) على الإيصال من أسد الدين شيركوه ، فأنهى الحال إلى نور الدين ، فأمر حينئذ ببناء دار العدل ، فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نوابه جميعهم ، وقال : « اعلّموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا ببني وحدي ، وإلا من هو الذي يمتنع على كمال الدين ؟ والله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لاصلبته ، فامضوا إلى من كان بينكم وبينه منازعة في ملك (٤) ، فانصلوا الحال معه وأرضوا بأي شيء أمكن ، ولو أتى ذلك على جميع ما أملاك » ، فقالوا له : « إن الناس إذا علموا بهذا اشتطوا في الطلب » ، فقال : « خروج أملاكى عن يدي أسهل على من أن يرانى نور الدين بعين أذى ظالم ، ويساوى بيني وبين آحاد العامة في الحكومة » ، فخرج أصحابه من عنده وفعّلوا ما أمرهم ، وأرضوا خصائهم ، وأشهدوا عليهم .

(١) كذا في الأصل ، وفي الروضتين ، وفي س (٥١ ب) : « فأعاده إلى القاضي ، فرده القاضي على من أخذ منه » .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س و (الروضتين ، ج ١ ، س ٨) ، وقد ذكر صاحب الروضتين أنه نقل هذا الخبر عن ابن الأثير .

(٣) كذا في الأصل ، وفي الروضتين ، وفي س : « بقدر » .

(٤) في الأصل : « ذلك » وما هنا صيغة س (٥١ ب) ، والروضتين .

فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل [الحكومات و] (١) الخصومات ، وكان يجلس في الأسبوع يومين (٢) وعند القاضي والفقهاء ، وبقى كذلك مدة فلم يحضر أحد يشكو من أسد الدين ، (٣) فقال نور الدين لكمال الدين : « مالي لا أرى أحداً يشكو من شيركوه ؟ » فعرفه الحال (٣) ، فسجد شكراً لله تعالى ، وقال : « الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا » .

وحكى (٤) مدين الدين محمد بن أحمد بن خالد بن محمد بن القيسراني ، قال : « انكسر على ضامن (٥) دار الزكاة [١٥٩] مال جم ، وكان الضامن المذكور يُعرف بابن شمام (٦) المحالي ، فحبس ، فباع ما كان يملكه من عقار بما مبلغه ثمانية آلاف دينار سورية (٧) ، وحمله إلى الخزانة ، وبقى في الحبس مطالباً بما بقي عليه .

(١) في الأصل : « لفصل الخصومات » ، وفي الروضتين « لفصل الحكومات » وما هنا صيغة تنوين .
(٢) النص في : (صبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١) : « فكان نور الدين يقعد في دار العدل في كل أسبوع أربعة أيام أو خمسة ، ويحضر عنده العلماء والفقهاء ، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب ، ويوصل إليه الشيخ الضيف والمعجوز الكبيرة ، ويسأل الفقهاء عما أشكل عليه » .

(٣) ما بين الرقبن ساقط من س ، وإنما اختصره بقوله : « فلم الحان ، فسجد شكراً . . . الخ » .

(٤) أوجز صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ١١) هذه القصة في كلمات قليلة جداً ، قال : « ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني الشاعر في منامه أنه ينسل ثيابه ، وقص ذلك عليه ففكر ساعة ، ثم أمره بكتابة إسقاط المسكوس ، وقال : هذا تفسير منامك » . وهذا مثل يجعل لفرج الكروب مكانة خاصة لما يرويه من أخبار مفصلة عن مراجع سابقة لم تصلنا ، وقد أهملت المراجع المطبوعة ذكر هذه الأخبار أو نقلتها باختصار لا يفيد الباحث كثيراً .

(٥) انظر التعريف بوظيفة الضامن في : (ابن عماني : قوانين الدواوين ، طبعة الوطن ، ص ١٠) .

(٦) في س : (١٥٢) « شمام » .

(٧) لعل التصود بالدينار السورية : الدينار الصورة ، وقد عرفها (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٣٧) بأنها دنانير يوثق بها من البلاد الافرنجية والروم ، وهي دنانير مشخصة على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه ، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين ، ويظهر عنها أيضاً : بالافرنجية — جمع إفرنتي — ، وربما قيل « إفرنجية » .

قال [معين الدين] (١) : وكان جدى خالد بن محمد قريب المنزلة من نور الدين إلى الغاية ، وإليه استيفاء دوايينه بأسرها ، وكتابة الإنشاء ، وإمرة مجلسه (٢) ، وهو المشير والوزير ، والامور كلها عائدة إليه ، فاتفق أنه حضر بين يدي نور الدين — رحمه الله — يوما بدمشق ، وقال : يا مولانا ، رأيت البارحة في نومي كأن المولى قد نزع ثيابه ودفنهما إلي ، وقال : اغسماها ، فأخذتها وغسلتها ، قال : فأطرق (٣) طويلا ، ولم يرفع رأسه إلي ، فندمت على ما قلت ، وخفت أن يكون قد تطير مني ، ونوم من مذامى ، فخرجت من بين يديه وأنا كئيب ضيق الصدر ، فبقيت بعد ذلك ثمانية أيام لا يطلبني ولا يسأل عني ، فسأه [عند ذلك] (٤) ظني ، وفرح من كان يحسدني ، وظن العدو أنه قد ظفرت بي ، فدخل على نور الدين وجل من خواصه يعرف بالشيخ إسماعيل المكبس (٥) ، وكان نور الدين يحبه ويقربه كثيرا ، فقال : يا مولانا ، قد حضر من زاد في دار الزكاة خمسة آلاف دينار في السنة ، فأنهروه ، وقال : قد أصبحت على سجادتي بعد أداء فريضتي أذكر الله تعالى ، واستفتحت أنت النهار تبشرني بزيادة مكس ، فوجم الشيخ إسماعيل وبقى ساكنا ، ثم قال : اطلبوا لي خالدا ، قال : فحضرت لديه (٦) ، فالتفت إلي متبسما ، وقال لي : قد تفسر منامك ، فقلت بخير إن شاء الله ، فقال [هو خير (٧)] لا تظن تركي لك وعدم استحضاري إياك في هذه الأيام لموجدة عليك أو لوهم حصل عندي من منامك ، بل كنت مفكرا في المذام حتى فتح الله سبحانه وتعالى علي بتأويله ، اعلم أن غسل

(١) ما بين الحاصرتين عن س .

(٢) في س : « وأسره . يجلس نور الدين نافذ » .

(٣) س : « فأطرق نور الدين ساعة لما سمع هذا المنام ساعة طويلة » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (١١٥٢) .

(٥) في س : « اللبس » .

(٦) في س (٥٢ ج) : « فحضرت من يديه وأنا خائبا » .

(٧) ما بين الحاصرتين عن س (١٥٢) .

التياب غسل أوساخ الذنوب، ولا ذنب أوسخ (١) من تناول أموال المكوس ، فلا تترك من يومنا هذا في بلد من بلادى مكماً ولا درهماً تلم أنه يؤخذ بغير حق إلا أسمعته ، واكتب بذلك توابع تكون مخلدة في البلاد المذكورة ، والتفت إلى الشيخ إسماعيل وقال له : مر أطاق ابن شمام المحالى من محبسه ، ومر (٢) بإعادة كل ما أخذ منه إليه واسترجاع أملاكه ، [فنقل ذلك (٣)] ولما عرف ابن شمام المحالى بذلك [١٦٠] اقترح بأن يجعل الذهب الذى أخذ منه فى أطباق ويزف بالطبول والبوقات والمغنين فى الأسواق ، ليعلم الناس كلهم ذلك ، وقيل ذلك لنور الدين فأجابه إلى ملتسه ، وأن يخام عليه ، فلبس الخلعة ، وزف المال بين يديه على ما اقترح .

قال معين الدين : وكتب جدى خالد بذلك توابع ، وجهازها إلى البلاد ، ونسخها كلها :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله فأنح أبواب الخيرات بعد إغلاقها ، وناهج سبل النجاة لطلابها وطرائقها ، وفارج الكريات بعد ارتاجها (٤) وإطباقتها ، الذى منح أوليائه التوفيق وأوضح لهم دليبه ، ونصر أهل الحق وأعان قبيله ، نحمده على جزيل مواهبه وجليل رغائبه ، وبالغ هدايته وسابغ وقايته ، ونسأله أن يصل على سيدنا محمد الذى أوضح الطرائق ، وفرج المضائق ، وأنجب (٥) المحجة ، وأوجب الحجية ، وخفف الله بيعته كل إصر ، وجعل أمته خير أمة وعصره خير عصر ، وعلى آله الأكرمين ما أسفر بدر وأنار فجر .

(١) س : « أوسخ » .

(٢) س : « وأسر » .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س .

(٤) فى الأصل : « ارتجاجها » ، وما هنا صبغة س .

(٥) س : « وأوضح » .

وبعد ، فقد اتضح على الأفهام ، وصح عند الخالص والعام ، ما نفاديه ونراوحه ،
ونماسيه ونصابجه ، ونشتغل به عامة أوقاتنا ، ونعمل فيه رويتنا وأفكارنا ،
ونستنفذ بالاهتمام به ساعاتنا ولحظاتنا من الاجتهاد في إحياء سنة حسنة (١) ، يكون
لنا أجرها وأجر من عمل بها ، وإماتة سنة سيئة نخاص من عظيم وزرها ووخيم
خزيبها ، وإزالة مظلمة مظلمة وظلمة جور أسامها ، ومحو سيرة مؤلمة أبرم الحيف
أمر اسمها ، ليعم الرعايا لباس (٢) الفضل والامتنان ، ويفيض على البرايا سجال العدل
والإحسان ، ليصبحوا من حياض الأمن دارعين (٣) ، وفي رياض الدعوة وادعين ،
لا يجدون للنعم عندهم تبديلا ولا تغييرا ، ولا يروون لصافي شربهم تصريداً ولا تكديرا
ولا يُظلمون فقيرا ، فما يسفر صبح ، ولا يعتكر جنح ، إلا والله علينا نعمة لا نستطيع
الإحاطة بشكرها ، ولا نطبق قدرها لحق قدرها ، فيما يوقنا له من فعل الخيرات ،
ويلهمنا إياه من إزالة المنكرات ، ويهدينا إليه من الأعمال الصالحات ، وينقذنا به من
الموارد المهلكات ، ويوضحه لنا من الطريق إلى رضاه (٤) ، ويبعثنا (٥) به على الجهد
في عبادته [١٦١] وتقاه ، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا
أن هدانا الله .

وقد علمت معاشر الرعايا — وفقكم الله ورعاكم — ما كان مرتبا من المظالم
المجحفة بأحوالكم ، والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم المضيقية عليكم في
أرزاقكم ، والمؤن التي (٦) تساهمكم في منافع أملاككم ، واستمرار ذلك عليكم

(١) هذا اللفظ ساقط من س .

(٢) س : « بالناس » .

(٣) س : « دارعين » .

(٤) س : « لنا إلى طريق ضارة » .

(٥) س : « ويبعثنا به على عبادته ونفاه » .

(٦) س : (٥٣ ب) : « الذي » .

إلى أن فوض الله عز وجل إلينا تدبير أموالكم (١) ، واسترعانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولاً فأولاً ، ولم نبتغ في إقراره على وجوهه شبهة ولا تأولاً (٢) ، وقد كان بقي من رسوم الظلم ومعالم الجور في سائر الأعمال بولايتنا ما أمرنا بإزالته الآن ، وأضفنا ذلك إلى ما كنا أسقطناه أولاً (٣) ، رأفة بكم ولطفاً ، وتحنناً عليكم وعظماً ، لأن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، وسندكر ما أزلناه من المظالم والمكوس أولاً وآخراً (٤) من سائر أعمال ولايتنا — عمرها الله — في هذا السجل من الديوان .

قال : ثم كتب بقلم دقيق ما صورته :

« ذكر ما أطلق من الرسوم والمؤون والمكوس والضرائب في سائر أعمال الولاية المحروسة — عمرها الله — شامياً وجزيرتها في تواريخ متقدمة (٥) وفي تاريخ هذا السجل ، ورسم إطلاق ذلك كله ، وتعفية آثاره ، وإخماد ناره .

ومبلغ ما يحصل من ذلك كل سنة : خمسمائة ألف وستة وثمانون ألفاً وأربعمائة وسبعون ديناراً نقداً ، الشام ، فمن ذلك :

دمشق — بتواريخ متقدمة [ما هي في هذا الإطلاق (٤)] : مائتا ألف ، وعشرون ألفاً ، وخمسمائة وثلاثة وثمانون ديناراً .

دمشق — في تاريخ هذا الكتاب — : خمسون ألفاً ، وسبعمائة وثلاثون ديناراً .

(١) س : « أموركم » .

(٢) في الأصل : « تأويلاً » وما هنا عن س .

(٣) لهذا السجل أهمية بالغة إذ لم أجده ذكره في المراجع الماصرة الأخرى ، وقد تضمن بياناً تفصيلياً هاماً بالمكوس التي أسقطها نور الدين في سنوات حكمه المختلفة ، وقد وردت في الروضتين إشارات متعددة لحركة إسقاط المكوس سنة بعد أخرى في عهد نور الدين ، انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١١٠ ، ١٥٠ ، ١٦٠) .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (٥٣ ب) .

تَدْمُرُ: (١) خمسمائة دينار.

صَرَخَد: سبعمائة وخمسون ديناراً.

الْقَرِيَّتَانِ (٢) والسُّخْنَةُ: خمسمائة دينار.

بَانِيَّاس: ألف ومائتا دينار.

بَعْلَبِكْ وَأَعْمَالُهَا: ستة آلاف وتسعمائة (٣) وعشرون ديناراً.

حَمَصْ وَأَعْمَالُهَا: ستة وعشرون ألفاً وأربعمائة وعشرون ديناراً.

حَمَاةٌ وَأَعْمَالُهَا: ستة وعشرون ألفاً ، واثنتان وتسعون (٤) ديناراً.

حَلَبْ وَأَعْمَالُهَا: ستة وتسعون ألفاً ، ومائة (٥) وستة وثمانون ديناراً (٦).

سَرْمِينِ (٧): ألفان ، وثلاثمائة وستون ديناراً (٦).

مَعْرَةَ النِّعْمَانِ: سبعة آلاف دينار.

[١٦٢] كَفْرَطَابِ (٨): ألفا دينار.

(١) هكذا ضبطها (ياقوت: معجم البلدان) وقال إنها مدينة قديمة مشهورة في بركة الشام بينها وبين حلب خمسة أيام.

(٢) قال (ياقوت) هي قرية كبيرة من أعمال حمص في طرف البرية، بينها وبين سبخة وأراك، وبينها وبين تدمر مرحلتان.

(٣) س: «سبعمائة».

(٤) س: «وسبعون».

(٥) س: «وما يقرب».

(٦) في الأصل: «دينار».

(٧) هكذا ضبطها (ياقوت) ولم يعرفها بأكثر من قوله: هي بلدة مشهورة من أعمال حلب.

(٨) بلدة بين المعرة ومدينة حلب (ياقوت).

- عَزَّاز (١) : ستة آلاف ، وخمسمائة دينار .
تل باشر (٢) : ألف وخمسمائة دينار .
عين باب : تسعة وثمانون دينار .
بَالِس (٣) : أربعة آلاف دينار .
مَنْبِج (٤) وأعمالها : ثمانية عشر ألفاً ، وخمسمائة وستة وستون ديناراً (٥) .
بُزَاعَة (٦) والباب : ثلاثة آلاف دينار .
قلعة بَجْم (٧) : ثلاثمائة دينار .
قلعة جَعْبَر (٨) : سبعة آلاف ، وستمائة وستة وتسعون (٩) ديناراً .
الرَّقَّة : ستة وعشرون ألفاً ، وسبعمائة وثلاثة وستون ديناراً .
الرُّهَا : ثمانية آلاف ، وخمسمائة دينار .

(١) انظر ماكات هنا ، ص ٤٠ ، هامش ٢

(٢) انظر ماكات هنا ، ص ٤٣ ، هامش ١

(٣) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بقوله : « هي بلدة بالشام بين حلب والرقه ، كانت على ضفة الفرات الغربية ، فلم يزل الفرات يشرق عنها قليلاً قليلاً حتى صار بينهما في أيامنا هذه أربعة أميال » .

(٤) انظر ماكات هنا ، ص ١٥٣ هامش ٢

(٥) في الأصل : « دينار » .

(٦) انظر ماكات هنا ، ص ١٥٥ هامش ١

(٧) عرفها (ياقوت) بأنها قلعة حصينة مطلة على الفرات نحو جبل تحنها ربحى طامر ، وعندما جسر يبر عليه ، وهي المروفة بجزر منبج ، ويبر على هذا الجسر القوافل من حران الى الشام وبينها وبين منبج أربعة فراسخ .

(٨) انظر ماكات هنا ، ص ١٧ ، هامش ٥

(٩) س : (١٥٤) : « وسبعون » .

- حرّان : ستة عشر (١) ألف ، وسبائة واحد وسبعون ديناراً .
سنجار (٢) : سبعة آلاف ، وثمانية دنانير .
الموصل وأعمالها : ثمانية وثلاثون ألفاً ، ومائة وستة وأربعون (٣) ديناراً .
نصيبين : عشرة آلاف ، وأربعمائة وستة (٤) وثمانون ديناراً .
عربان (٥) : خمسة آلاف وسبعمائة دينار .
بطنان (٦) — من أعمال الخابور (٧) — : مائتان وخمسون ديناراً .
تبنين (٨) والارسل (٩) : سبعمائة وخمسون ديناراً .
السسمانية (٩) — من أعمال الخابور — : ألف دينار .

(١) س : « ستة آلاف » .

(٢) انظر ما فات هنا ، ص ١١٨ ، هامش ١

(٣) س : « الموصل وأعمالها : ثلاثون ألف دينار ، وستة وأربعون ديناراً » .

(٤) س : « وأربعمائة وثمانون ديناراً » .

(٥) في الأصل : « عربان » ، وهذا الرسم والضبط عن (ياقوت) حيث عرفها بأنها بلدة بالخابور من أرض الجزيرة .

(٦) في الأصل : « بطانات » ، وهذا الرسم والضبط عن (ياقوت) حيث قال إنه اسم واد بين منبج وحلب وبينه وبين كل واحد من البلدين مرحلة خفيفة ، فيه أنهار جارية وقرى متصلة ، قصبتها بزاعة .

(٧) الخابور كما ورد في (ياقوت : معجم البلدان) اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ، ولاية واسعة وبلدان جمة فلب عليها اسمه ، فنسبت إليه ، من بلاد : قرقيسياه ، وما كين ، والمجدل ، وعربان .

(٨) في الأصل : « تبنين » ، والتصحيح عن (ياقوت) حيث ذكر أنها بلدة في جبال بني حاصر المطلّة على بلد بانياس بين دمشق وصور .

(٩) كذا في الأصل ، ولم أجد لها ذكراً عند ياقوت .

- قرقيسياه^(١) : ألفا دينار .
السكر^(٢) : مائتا دينار .
ما كسين^(٣) : خمسة آلاف دينار .
المجدل^(٤) : ثلاثة آلاف وخمسة دنانير .
الخصين^(٥) — بالخابور — : ستمائة وخمسة وثلاثون ديناراً .
الجحشية^(٦) — بالخابور — : مائة (٧) دينار .
المحولية^(٨) — بالخابور — : مائة وثلاثة وستون ديناراً .
الرحبة^(٩) : ستة عشر ألفاً ، وسبعمائة (١٠) وأربعون ديناراً .
[وغير ذلك ما عيناه خوفاً من الإطالة (١١)] .

- (١) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت) حيث ذكر أنها بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك ابن طوق على ستة فراسخ ، وعندها مصب الخابور في الفرات ، فهي في مثلث بين الخابور والفرات .
(٢) اسمها عند (ياقوت : معجم البلدان) : « سكر العباس » ، وهي بليدة صغيرة بالخابور فيها منبر وسوق .
(٣) أنظر ما فات هنا ، ص ١١٨ ، هامش ٢
(٤) أنظر الصفحة السابقة ، هامش ٧
(٥) هكذا ضبطها (ياقوت) : وقال إنها بليدة على نهر الخابور ، ولم يزد .
(٦) هكذا ضبطها (ياقوت) وقال إنها قرية كبيرة كالدبنة من قرى الخابور ، بينها وبين المجدل نحو أربعة أميال .
(٧) س : « مايتا » .
(٨) كذا في الأصل ، ولم يذكرها (ياقوت) .
(٩) ذكر (ياقوت) أن هذا اللفظ يطلق على أكثر من مكان ذكرها جميعاً في معجمه ، ويتضح من وصفه أن الرحبة المذكورة هنا هي رحبة مالك بن طوق ، وقد حدد موقعها بقوله : بينها وبين دمشق ثمانية أيام ، ومن حلب خمسة أيام ، وإلى بغداد مائة فرسخ ، وإلى الرقة ثيف وعشرون فرسخاً ، وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات ، أسفل من قرقيسيا .
(١٠) س : « وتسماية » .
(١١) ما بين الحاصرتين عن : س (١٣٥٤)

ثم كتب بعد ذلك بالقلم الجافى :

« نَحْفِيقًا لِلْحَقِّ ، وَنَمْحِيقًا لِلْبَاطِلِ ، وَنَشْرًا لِلْمَدْلِ ، وَتَقْدِيمًا لِلصَّلَاحِ الشَّامِلِ ، وَإِيثَارًا لِلثَّوَابِ الْآجِلِ عَلَى الْحَطَامِ الْعَاجِلِ ، وَتَأْمِيلًا لِحَسَنِ الْخَلْفِ مِنْ اللَّهِ الْكَافِي الْكَامِلِ ، وَنَخْلِيصًا لِلذِّمَّةِ مِنْ دَرَكِ الْمَظَالِمِ ، وَتَنْزِيهًا لِلنَّفْسِ مِنْ دَرَنِ الْمَأْتَمِّ ، وَاسْتِعْفَاءً مِنْ نَحْمَلِ الْأَوْزَارِ ، وَاسْتِعْفَاءً بِمَا أَوْلَاهُ اللَّهُ مِنْ سَابِغِ الْمَدَارِ (١) ، وَشُكْرًا لِمَا أَوْلَاهُ مِنَ الْفَضْلِ الْجَسِيمِ وَالْمَنْحِ الْعَمِيمِ ، وَهُدَايَةً إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

فَاعْلَمُوا رِعَاكُمُ اللَّهُ مَا أَمْرُنَا ، وَاسْكُنُوا إِلَى مَا قَرَّرْنَا ، وَاشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا سَمَّهَ وَسَنَاهُ ، وَأَجْزَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَسْنَاهُ ، [١٦٣] وَأَيُّقِنُوا أَنَّ ذَلِكَ [الْإِنْعَامِ] (٢) الْعَامِ مُسْتَمِرٌّ عَلَى الدَّهْرِ ، وَبَاقٍ إِلَى يَوْمِ النُّشُورِ ، « وَكُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةً طَيِّبَةً وَرَبُّ غُفُورٌ » (٣) ، وَسَبِيلُ كُلِّ وَاقِفٍ عَلَى هَذَا الْمَثَلِ مِنَ الْوَلَاةِ وَالنُّوَابِ وَالْأَصْحَابِ وَالْأَعْمَالِ (٤) وَالْعَمَالِ — أَعَزَّمُ اللَّهُ — حَذْفُ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَتَعْفِيَةُ رَسُومِهِ ، وَنَحْوُ آثَارِهِ ، وَدَحْضُ أَوْزَارِهِ ، وَإِزَالَةُ أَوْضَارِهِ ، وَصَوْنُ جَمَالِ الدَّوْلَةِ عَنْ شَيْنِ عَارِهِ ، وَإِطْلَاقُهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ مِنْ غَيْرِ تَبْدِيلٍ بِحُلِّ عَقْدِهِ ، وَلَا فِسْخٍ يَكْتَرُ وَرُدَّهُ ، « فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (٥) .

والتوقيع الأعلى : « حُجَّةٌ لِمُضْمُونِهِ وَمُقْتَضَاهُ ، وَلِيُمْتَثَلَ الْأَمْرُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(١) س (٥٤ ب) : « سَابِغِ الْإِدْرَارِ وَالْمَدْبَارِ » .

(٢) مَا بَيْنَ الْحَاصِرَتَيْنِ عَنْ س .

(٣) السورة ٣٤ (سبأ) ، الآية ١٥ (ك) .

(٤) هَذَا الْفِظُّ سَاقِطٌ مِنْ س .

(٥) السورة ٢ (البقرة) ، الآية ١٨١ (م) .

وكتب بالمشافهة الكريمة — شرفها الله تعالى — في مسهل شهر الله الأحب ،

وجب سنة سبع وستين وخمسةائة .

قال معين الدين — رحمه الله — : « وكل بلد من البلاد المذكورة فصلّ

في التوقيع جهات ما أطلق من مكوسه (١) ، ولكنني اقتصرت على ذكر الجمل طلباً للاختصار .

وأما (٢) شجاعته وبسالته : فكان من أقوى الناس بدناً وقلباً ورأياً ومكيدة ؛

وذكر أنه لم يُرَ على ظهر فرس أشد منه ، كأنما خلق عليه ، لا يتحرك

ولا يتزلزل ، وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة ، يجرى الفرس ويتناولها بيده

في الهواء ويرميها إلى آخر الميدان ، وكانت يده لا ترى والجوكان (٣) فيها ، بل تكون

في كم قبائه (٤) ، استهانة باللعب ، وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وترَ كَشَيْن (٥)

(١) حبذا لو كان معين الدين هذا قد أورد تفاصيل المكوس التي ألفت ولم يكتب بالجل ، فإنه كان يقدم للباحثين وثيقة من أندرو وأقيم الوثائق لدراسة هذا النوع من الفرائب في الشام قبل عصر نور الدين .

(٢) وردت أخبار شجاعته أيضا في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٨ وما بعدها) مع اختلاف يسير ، تقديماً أو تأخيراً ، إيجازاً أو إطناً ؛ وفي (سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٠٩ — ٣١٠) .

(٣) انظر ما فات ص ٢٦٧ ، هامش ١

(٤) جاء في (محيط المحيط) أن القباء ثوب يلبس فوق الثياب ، وقيل يلبس فوق القميص ، ويتمنطق عليه ، جمه أقبية ؛ والقباء المقدار ، وقد كان نخر الدين بن شيخ الشيوخ — أحد كبار رجال الدولة في عهد الملكين الكامل والصالح الأيوبيين — أول من ترك لبس الهامة ولبس الشربوش والقباء . انظر أيضا : (القرظي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٦١) و (القرظي : نحل عبر النحل ، نشر الشياخ ، ص ٨٥ هامش ٥) .

(٥) كذا في الأصل ، وهي في ص (١٥٥) : « تركاشين » ، والرمان صحيحان : « ترَ كَشَيْن » و « تركاش » ، والجمع « ترا كيش » . والتر كَش لفظ فارسي معناه الجمبة أو الكنانة التي توضع فيها النشاب أو القسي . انظر (Dozy : Supp. Dict. Arab) و (القرظي : السلوك ، تعليقات الدكتور زيادة ، ج ١ ، ص ٣٧١) . ويقال أيضا « جنود متر كشة » أي يحملون جبات النشاب .

يبشر القتال بنفسه ، فكان يقول : « طالما تعرّضتُ للشهادة فلم أدركها » ، وسمعه
الفقيه قطب الدين النيسابوري يقول ذلك ، فقال له : « بالله لا تخاطر بنفسك
وبالإسلام والمسلمين ، فإنك عمادهم ، ولئن أصبت والعياذ بالله في معركة ، لا يبقى
من المسلمين أحد إلا أخذ السيف ، وأخذت البلاد والإسلام » . قتل له :
« يا قطب الدين ، ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ قبل من حفظ البلاد والإسلام ؟
ذلك الله الذي لا إله إلا هو » .

ومن آرائه الحسنة ما كان يعتمد في أمر أجناده ؛ فإنه كان إذا توفي أحد
وخلف ولداً ذكراً أقرّ الإقطاع عليه ، فإن كان الولد كبيراً استبد بنفسه ،
وإن كان صغيراً رتبّ معه رجلاً عاقلاً يثق إليه ، فيتولى أمره إلى أن يكبر ،
فكان الأجناد يقولون : [١٦٤] « هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن
نقاتل عليها » ، وكان ذلك من أعظم الأسباب لصبر الجند في المشاهد والحروب
بين يديه ؛ وكان أيضاً يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانهم : دوابهم وسلاحهم
خوفاً من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله ذلك على أن يقتصر على بعض ما هو
مقرر عليه من العُدَد ، وكان يقول : « نحن كل وقت في النفير ، فإذا لم يكن أجناد
كافة الأمراء كالمُدَد دخل الوهن على الإسلام » (١) .

(٢) وأما صدقاته ومعروفه وإحسانه فذكر عماد الدين الطائِب ، قال : « حسبنا
ما تصدق به على الفقراء في شهر فزاد على ثلاثين ألف دينار » ، وكانت عادته في
الصدقة أن يحضر جماعة من أمثال البلد من كل محلة ويسألهم عن يعرفون في جوارم

(١) هذا نص هام وقيم لدراسة نظام الاقطاع ونظام الجيش في دولة الأتابكة بوجه عام ،
وفي دولة نور الدين بوجه خاص .

(٢) وردت أخبار صدقاته وإحسانه في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١١) نقلاً عن العهد
الكاتب وابن الأثير ؛ وفي (سبط ابن الجوزي ، المرجع السابق ، ص ٣١٢) .

من أهل الحاجة ، ثم يصرف إليهم صدقاتهم ، وكان يرسم نفقته الخاصة (١) في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس مصرية (٢) في كسوته ونفقته وحوائبه المهمة ، حتى أجرة خياطه ، وجامكية طباخه ، ويستفضل منه ما يتصدق به في آخر الشهر .

وأما ما كان يهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم ، فإنه كان لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير ، بل كان إذا اجتمع منه شيء يصرفه ، ويخرجه إلى مجلس القاضي ، فيحصل ثمنه (٣) ، ويصرف في عمارة المساجد المهجورة ؛ وتقدم بإحصاء ما في محال دمشق من المساجد [الخراب] (٤) فأناف على مائة مسجد ، فأمر بعمارة ذلك كله ، وعين له وقوفاً ، ولما أسقط نور الدين الجهات المحظورة (٥) والمكوس — غير السجن — وقال لكامل الدين القاضي : « انظر أنت في ذلك ، فأحمل أمور الناس فيها على الشريعة » ؛ ولم يكن نور الدين يحاسب القاضي كمال الدين على شيء من الوقوف ، ويقول : « أنا قد قللته أن يتصرف فيها بما يجب ، ثم ما فضل من مصارفها وشروط واقفيها يصرف في بناء الأسوار وحفظ الثغور » .

و بنى (٦) — رحمه الله — أسوار بلاده جميعها وقلاعها ، فمنها : حلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق ، وبارين ، وشيبر ، ومنبج ، وغيرها من القلاع والحصون ، وحصنها

(١) في الأصل : « نفقة الخاص » والتصحيح عن (امرأة الزمان ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣١٢)

(٢) هذا اللفظ غير موجود في س ولا في الروضتين .

(٣) س (٥٥ ب) : « فيبيبه ويحصل ثمنه » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ١١) و (امرأة الزمان ،

ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣١٢) : « المساجد المهجورة » .

(٥) في الأصل ، وفي س : « المحظورة » وما هنا عن الروضتين .

(٦) أخبار ما بناء من الحصون والقلاع واردة في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٩ — ١٠)

تقلا عن ابن الأثير .

وأحكم بناها، وأخرج عليها الأموال [١٦٥] الجليلة ، وبني المدارس الجليلة
للحنفية والشافعية ، فن ذلك :

المدرسة النورية (١) بدمشق التي فيها قبره (٢) .

وكذلك بحلب (٣) وبحمص (٤) ، وبحماة (٥) له مدرستان : إحداهما للحنفية ،
والأخرى للشافعية .

وبني الجوامع في أكثر البلاد . فجامعه بالموصل (٦) في نهاية الحسن والاتقان .

(١) ذكر (النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٦٠٦) هذه المدرسة
باسم المدرسة النورية الكبرى مميّزاً لها عن مدرسة أخرى أنشأها نور الدين كذلك في دمشق،
وتعرف باسم المدرسة النورية الصغرى (ص ٦٤٨) . وذكر النعمي أن نور الدين بنى
المدرسة الكبرى في سنة ٥٦٣ هـ ثم عقب على ذلك بقوله : « وفيه نظر ، إنما أنشأها ولده
المك الصالح إسماعيل ، ثم نقله من القلعة بعد فراغها ، ودفن بها » . وقال ناشر الكتاب
الأستاذ جعفر الحسني في تعليقاته إن هذه المدرسة لا تزال طامرة إلى يومنا ، وهي في سوق
الحياطين ، وفيها ضريح نور الدين . انظر أيضاً : (محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ،

ص ٩٧) و (Souvaget : *Monuments Historiques de Damas*. p. 53).

(٢) وصف (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٨٤) مدرسة نور الدين وقبره وصفاً طريفاً ،
قال : « ومن أحسن مدارس الدنيا مدرسة نور الدين — رحمه الله — ، وبها قبره
— نوره الله — وهي قصر من القصور الأنيقة ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم
ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار ، فتجار الأبخار في حسن
ذلك للنظر ، فكل من يبصره يجدد الدماء لنور الدين — رحمه الله — » .

(٣) كانت مدرسته في حلب تعرف كذلك باسم « النورية بناها سنة ٥٤٤ هـ (كرد علي :
خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٠٥) وأنظر أيضاً : (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٣) .

(٤) ذكر (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٨) أنه لم يكن بحمص أثناء زيارته لها غير مدرسة
واحدة فلعلها هذه .

(٥) انظر (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٧) و (كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ،
ص ١٢٧) .

(٦) قال (ابن جبير ، ص ٢٣٥) عند كلامه عن الموصل : « والمدينة جامعان ، أحدهما
جديد ، والآخر من عهد بني أمية » .

و بنى الجامع (١) الذى على شط العاصى بحجة — وهو جامع حسن — وإلى جانبه
بهارستان (٢) من إنشائه .

و بنى بدمشق وحلب بهارستانين (٣) فى غاية الحسن، ووقف عليهما الوقوف الجليلة .
و بنى الربط و الخانات للصوفية فى جميع البلاد ، وأدرّ عليهم الإدرات
الجليلة الكثيرة ، وكان يُحضر مشايخ الصوفية ويُقرّبهم ويُدنيهم ويتواضع لهم .
و بنى أيضاً الخانات فى الطرق ، فأمن الناس ، وحفظت أموالهم ، وباتوا فى الشتاء
فى كن من المطر .

و بنى أيضاً الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ،
ومعهم الطيور الهوادية ، فإذا رأوا من العدو أحداً أرسلوا الطيور ، فأخذ الناس
حذرهم ، واحتاطوا لأنفسهم ، ولم يبلغ العدو منهم غرضاً .

وكان — رحمه الله — عنده أهل العلم فى محل عظيم ، وكان يجمعهم عنده للبحث
والنظر ، واستقدمهم إليه من البلاد الشاسعة ، فمن جملة من قدم عليه : الفقيه
قطب الدين الشافى ، فبالغ فى إكرامه والاحسان إليه ، فحسبه بعض الأمراء عنده ،
فقال منه [يوماً عند نور الدين] (٤) ، فقال له نور الدين : « يا هذا إن صح ما تقول .
فله حسنة تغفر له كل زلة تذكرها ، وهى العلم والدين ، أما أنت وأصحابك ، فنيكم
أضعاف ما ذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت (٥) لشغلك عيبك

(١) انظر وصف هذا الجامع فى (كرد على : خطط الشام ، ج ٦ ص ٦١) .

(٢) قال (كرد على ، ج ٦ ، ص ١٦٦) عند كلامه عن هذا البارستان : « وهو الآن

شبيه بالمندرس يستعمله بعضهم لسكنى ، وذهبت أوقافه إلا قليلاً » .

(٣) انظر وصف البهارستان النورى بدمشق فى المرجع السابق (ص ١٦٢) ، ووصف

البهارستان النورى بحلب فى نفس المرجع (ص ١٦٥)

(٤) ما بين الحاصرتين عن الروضتين ، وقد أضفناه للإيضاح .

(٥) فى س : « ولو ثبت » .

عن غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا تحتمل سيئة هذا إن صححت مع وجود حسنته ؟ مع أنني والله لا أصدقك فيما تقول ، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء (١) لاوذيнок ، فكف عن أذيته .

وبني بدمشق داراً للحديث (٢) ، وأوقف عليها وقفاً كثيرة ، وهو أول من بني داراً للحديث فيما سمعنا به .

وبني في كثير من بلاده مكاتب للأيتام ، [١٦٦] وأجرى عليهم وعلى معلمهم الجرايات الوافرة .

وبني مساجد كثيرة ، ووقف عليها وعلى من يقرأ [بها] (٣) القرآن [وقوفاً جليلية] (٤) . وحكى ابن الأثير [في تاريخه الكامل] (٤) : أنه أحصيت أوقاف نور الدين فكانت في كل شهر تسعة (٥) آلاف دينار صورية ، ليس فيها غير ملك صحيح شرعى باطناً وظاهراً ، وأنه وقف ما انتقل إليه [من إرث والده] (٦) أو وزن عنه ، أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه .

(٧) وكان مع هذه الفضائل شديد الوقار ، عظيم الهيبة ، ضابطاً لناموس الملك مع أصحابه وأجناده إلى غاية لا مزيد عليها .

(١) هذا اللفظ ساقط من س .

(٢) أنظر أخبار هذه الدار في (النبمى : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٩٩ وما يليها) .

(٣) ما بين الحاصرتين هن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٠)

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (٥٦ ب) ، وانظر أيضاً : (ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٢) .

(٥) كذا في الأصل ، وفي : (ابن الأثير ، نفس الجزء والصفحة) ، وفي (الروضتين ص ١٠) ، أما س ففيها : « تسع عشر ألف دينار مصرية » .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س ، ولا وجود له في ابن الأثير أو في الروضتين .

(٧) وردت أخبار هيبته ووقاره في الروضتين (ص ١٠) نقلاً عن ابن الأثير ، ولا وجود

وكان إذا جلس لا يجلس أحد إلا بإذن ، إلا الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي — رحمه الله — ، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه ، ومجد الدين بن الداية ، وغيرها ، فإنهم كانوا يقفون بين يديه إلى أن يتقدم إليهم بالعود ، وكان (١) مجلسه — فيما روي — كصفة مجلس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مجلس حكم وحياء ، وهكذا كان مجاسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحوال (٢) الصالحين ، والمشورة في أمر الجهاد ، وقصد بلاد العدو .

ولو أخذنا نعدد ذكر مناقبه (٣) ومآثره لطال الكلام واتسع الشرح ، وفيما أوردناه من ذلك كفاية .

ولما توفي نور الدين — رحمه الله — رثاه عماد الدين الكاتب بقوله :

عجبتُ من الموت كيف اهتدى (٤) إلى ملكٍ في سجايا ملكٍ
وكيف نوى الفلكُ المستديرُ في الأرضِ ، والأرضُ وسطَ ذلكَ ؟

وبقوله :

يا ملكاً أيامه لم تزل لِنُضْلهِ فاضلةً فاخرة
غاصت بحورُ الجودِ منذُ غيبتُ أُنْمُكَ القابضةُ الزاخرة
ملكْتَ دنياك وخلفتها وميرتَ حتى تملكِ الآخرة

(١) وردت في هامش س (٥٦ ب) بخط مخالف لأحد قراء النسخة هذه الجملة : « أخطأ الناقل لهذا اللفظ ، فإن مجالس الأنبياء أجل وأعظم من أن تشبه بمجالس الملوك » .
(٢) س : « أقوال » .

(٣) توجد ترجمة طويلة وافية لنور الدين في (النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٦٠٦ — ٦١٦) وقد اعتمد فيها المؤلف على كثير من المؤرخين السابقين له ومنهم ابن واصل في كتابه هذا مفرج الكرب .

(٤) كذا في الأصل ، وفي س ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٨) : « أتى » .

وبقوله من قصيدة :

لقد الملك العا دل يبي الملك والعدل
وقد أظلمت الآفاق لا شمس ولا ظل
ولما غاب نور الدين عنا أظلم الحفل
[١٦٧] وزال الخصب والخير وزاد الشر والمحل
ومات البأس والجود وعاش اليأس والبخل
وعزّ النقص لما ن أهل الفضل والفضل
وهل ينفق ذو العلم إذا ما نفق الجهل
وما كان لنور الدين لولا كجبه (١) مثل

(١) كذا في الأصل، وفي: (الروضتين، ج ٩، ص ٢٣١)؛ وفي س (١٥٧)؛ «فقد» .

فهرس الموضوعات

للجزء الأول

من

كتاب مفرج الكروب في أقباء بني أبوب

لابن واصل

فهرس الموضوعات

صفحة	
٢— ١	مقدمة المؤلف
٦— ٣	ذكر نسب بنى أيوب
١٠— ٧	ذكر ابتداء أمر نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه
١٨— ١١	ذكر ابتداء الدولة الأتابكية
٢٠— ١٩	ذكر استيلاء الأمير قسيم الدولة آق سنقر الحاجب على مدينة حلب
٢٥— ٢٠	منازلة قسيم الدولة حمص واستيلاؤه عليها
٢٧— ٢٥	ذكر مقتل الأمير قسيم الدولة آق سنقر
٢٧	ذكر سيرة الأمير قسيم الدولة — رحمه الله —
٣١— ٢٨	ذكر أخبار عماد الدين زنكى بن قسيم الدولة آق سنقر — رحمه الله —
٣١	ذكر تولى الأمير عماد الدين زنكى شحنة بغداد
٣٤— ٣١	ذكر استيلاء عماد الدين زنكى على الموصل
٣٥— ٣٤	ذكر استيلاء عماد الدين على جزيرة ابن عمر
٣٦— ٣٥	استيلاء عماد الدين زنكى على نصيبين
٣٦	استيلاء عماد الدين زنكى على سنجار والخابور
٣٦	استيلاء عماد الدين زنكى على حران
٤٠— ٣٧	ذكر استيلاء الشهيد عماد الدين زنكى على مدينة حلب
٤٣— ٤١	ذكر استيلاء الأمير عماد الدين على مدينة حماة
٤٦— ٤٣	ذكر قبض الأمير عماد الدين على ديس بن صدقة المزدي صاحب الحلة
٥٢— ٤٧	ذكر الوقعة الكائنة بين الخليفة المسترشد بالله وبين عماد الدين زنكى
٥٣— ٥٢	ذكر منازلة الخليفة المسترشد بالله مدينة الموصل
٥٣	استيلاء شمس الملوك صاحب دمشق على حماة وأخذها من عماد الدين

صفحة	
	ذكر الواقعة بين عماد الدين وصاحب حصن كيفا سنة
٥٤	ثمان وعشرين وخمسة
٥٤	استيلاء عماد الدين على قلعة الصور
٥٥	استيلاء عماد الدين على قلاع الأكراد الحميدية
٥٧— ٥٥	استيلاء عماد الدين على قلاع الهكارية
٥٨— ٥٧	منازلة عماد الدين دمشق
٦٤— ٥٨	ذكر مقتل المسترشد وخلافة الراشد بالله
	ذكر قدوم السلطان محمود بن مسعود بن محمد إلى بغداد وهروب
٦٦— ٦٥	الراشد بالله وعماد الدين زنكي إلى الموصل
٧١— ٦٧	ذكر البيعة بالخلافة المقتنى لأمر الله بن المستظهر بالله
٧٢— ٧١	منازلة عماد الدين مدينة حصن
٧٤— ٧٢	ذكر فتح قلعة بارين وكسر الفرج — لعنهم الله —
٧٥— ٧٤	ذكر فتح المعرة وكفر طاب
٧٦	ذكر خروج ملك الروم إلى بلاد الاسلام
٧٧— ٧٦	ذكر استيلاء عماد الدين على حصن
٧٩— ٧٧	ذكر منازلة الروم حلب ثم شيزر
	ذكر توجه القاضي كمال الدين بن الشهرزوري إلى السلطان مسعود
٨١— ٧٩	في معنى الروم واستنجاهه به عليهم
٨٣— ٨١	ذكر تخذيل عماد الدين بين الفرج والروم حتى رحلوا خائبين
٨٤	ذكر استيلاء عماد الدين زنكي على حران ثانيا
٨٥— ٨٤	ذكر استيلاء عماد الدين زنكي على شهرزور وأعمالها
٨٦— ٨٥	ذكر استيلاء عماد الدين زنكي على بعلبك
٩٠— ٨٧	ذكر منازلة عماد الدين زنكي دمشق
٩٢— ٩٠	ذكر الاتفاق بين السلطان مسعود بن محمد وبين عماد الدين زنكي
٩٤— ٩٣	ذكر فتح الرها
٩٦— ٩٥	ذكر مقتل نصير الدين جعفر النائب بالموصل
٩٦	ذكر رحيل عماد الدين عن البيرة وتملك المسلمين لها

صفحة	
٩٧	ذكر استيلاء زين الدين على كوجك على اربيل
٩٨ — ٩٩	ذكر مناظرة عماد الدين قامة جمبر
٩٩ — ١٠٠	ذكر مقتل الشهيد عماد الدين اتابك زنكي بن آق سنقر — رحمه الله —
١٠٠ — ١٠٦	ذكر سيرته وصفته — رحمه الله —
١٠٦ — ١٠٩	ذكر ما كان من الملك ألب أرسلان الخفاجي ولد السلطان بعد قتل عماد الدين
١٠٩ — ١١٠	ذكر أخبار الأيام النورية
١١٠ — ١١٤	ذكر عصيان الرها وعودها إلى المسلمين
١١٤	ذكر استيلاء نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله — على حصن العزيزة
١١٤ — ١١٥	كسرة الفرنج بيفرى
١١٦	ذكر وفاة سيف الدين غازي بن زنكي بن آق سنقر — رحمه الله —
١١٦ — ١١٧	ذكر سيرة سيف الدين — رحمه الله —
١١٧ — ١١٨	ذكر استيلاء قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي على الموصل
١١٨ — ١١٩	ذكر استيلاء نور الدين محمود بن زنكي على سنجار
١١٩ — ١٢٠	ذكر الصلح بين قطب الدين وأخيه نور الدين ، ورد سنجار إلى قطب الدين
١٢٠ — ١٢٢	ذكر قتل البرلس صاحب الطاكية وكسرة الفرنج
١٢٢	ذكر فتح أقمية
١٢٣	ذكر انهزام نور الدين من الفرنج
١٢٣ — ١٢٤	ذكر وفوق جوسلين في أسر نور الدين — رحمه الله —
١٢٤ — ١٢٥	ذكر فتح تل باشر
١٢٥	ذكر كسرة الفرنج بدلوك وفتحها
١٢٥ — ١٢٧	ذكر استيلاء محمود بن زنكي على مدينة دمشق ، وخروج الملك عن بيت طفتكين
١٢٧ — ١٢٨	ذكر مناظرة نور الدين — رحمه الله — حارم
١٢٨ — ١٢٩	ذكر استيلاء نور الدين على بعلبك
١٢٩ — ١٣٠	ذكر استيلاء نور الدين على مدينتي بصرى وصرخد

صفحة	
١٣٠—١٣١	ذكر خروج أمير أميران بن زنكي على أخيه نور الدين
١٣١—١٣٣	ذكر وفاة المقتدى لأمر الله وسيرته
١٣٤	ذكر حصر نور الدين مدينة حارم
١٣٥—١٣٧	ذكر هزيمة نور الدين من الفرنج
١٣٧—١٣٩	ذكر مسير أسد الدين شيركوه الأول إلى مصر
١٣٩—١٤٠	ذكر وصول الفرنج إلى الديار المصرية، ومحاصرتهم أسد الدين بلبليس
١٤٠—١٤٣	ذكر وقوع الصلح بين أسد الدين والمصريين والفرنج
١٤٣—١٤٦	ذكر فتح حارم وكسر الفرنج
١٤٦—١٤٧	ذكر فتح بانياس
١٤٨	ذكر فتح حصن المنيطرة
١٤٨—١٤٩	ذكر مسير أسد الدين شيركوه بن شاذي المسير الثاني إلى مصر
١٥٠—١٥١	ذكر واقعة البابين
١٥١	ذكر استيلاء أسد الدين شيركوه على الاسكندرية
١٥١	ذكر محاصرة الفرنج لصلاح الدين يوسف بالاسكندرية
١٥٢	ذكر وقوع الصلح بين أسد الدين والفرنج والمصريين
١٥٢—١٥٤	ذكر فتح صافينا والعزيمة
١٥٤	ذكر فراق الأمير زين الدين على كوجك قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل
١٥٥	ذكر استيلاء الملك العادل نور الدين على قلعة جبر
١٥٥—١٥٦	ذكر مسير أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية المسير الثالث
١٥٧	ذكر منازلة الفرنج بلبليس وملكهم لها
١٥٧	ذكر منازلة الفرنج القاهرة
١٥٧	ذكر إحراق مصر
١٥٨—١٦٠	ذكر وقوع الصلح بين شاور والفرنج
١٦٠—١٦١	ذكر قدوم أسد الدين شيركوه مصر، ورحيل الفرنج عنها
١٦١—١٦٣	ذكر مقتل شاور
١٦٣—١٦٧	ذكر استيلاء أسد الدين شيركوه على الديار المصرية، وتقلده وزارة الغاضد

صفحة	
١٦٨—١٦٧	ذكر وفاة أسد الدين شيركوه بن شاذى — رحمه الله —
	ذكر استيلاء صلاح الدين يوسف بن أيوب — رحمه الله —
١٧٤—١٦٨	على الديار المصرية وتقلده وزارة العاضد
١٧٩—١٧٤	ذكر وقعة السودان بالقاهرة
١٨٤—١٧٩	ذكر مناظرة الفرنج دمياط ، وعودتهم عنها خائبين
	ذكر وصول الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذى — والد السلطان
١٨٨—١٨٥	— إلى مصر
١٨٨	ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل
١٩٠—١٨٩	ذكر سيرته — رحمه الله —
١٩١—١٩٠	ذكر استيلاء سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى على الموصل
	ذكر استيلاء الملك العادل نور الدين — رحمه الله — على الموصل ،
١٩٣—١٩١	وإقرار ابن أخيه سيف الدين عليها
١٩٥—١٩٣	ذكر وفاة الخليفة المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن المقتدى وسيرته
١٩٧—١٩٥	ذكر البيعة بالخلافة للمستضى بنور الله بن المستنجد بالله
	ذكر الأحداث الكائنة بمصر فى هذه السنة — أعنى سنة ست وستين
١٩٨—١٩٧	وخمسائة —
١٩٨	خروج الملك اناصر صلاح الدين إلى الفزاة
١٩٩	ذكر فتح قلعة أيلة
٢٠١—٢٠٠	ذكر إقامة الدعوة العباسية بمصر ، وانقراض الدولة العلوية بها
٢٢١—٢٠١	ذكر وفاة العاضد
٢٢٣—٢٢١	ذكر ابتداء الوحشة بين نور وصلاح الدين — رحمهما الله تعالى —
	ذكر مناظرة السلطان الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله —
٢٢٤	السكر والشوبك
٢٢٨—٢٢٥	ذكر وصول الهدية المصرية إلى نور الدين
٢٢٩—٢٢٨	ذكر غزوة النوبة
	ذكر وفاة الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذى والد الملوك
٢٣٠	— رحمه الله —

صفحة	
٢٣٠—٢٣٢	ذکر سیرته — رحمه الله —
٢٣٢	ذکر المراسلة بين نور الدين وصلاح الدين — رحمهما الله تعالى —
٢٣٣—٢٣٤	ذکر قصد نور الدين — رحمه الله — بلاد قلیج أرسلان .
٢٣٥	ذکر الواقعة الكائنة بين مقدم الأرمن والروم
٢٣٦	ذکر دخول قراقوش التقوى بلاد المغرب
٢٣٧—٢٤٣	ذکر دخول الملك المعظم شمس الدولة نحر الدين توران شاه ابن أيوب وتملكه لها
٢٤٣—٢٥١	ذکر عزم جماعة من المصريين على إقامة الدعوة المصرية وما آل إليه أمرهم
٢٥١—٢٥٧	ذکر شيء من خبر عمارة وشعره
٢٥٧—٢٥٨	ذکر ورود الرسالة النورية إلى صلاح الدين
٢٥٨—٢٦٢	ذکر وفاة الملك العادل نور الدين بن زنكي بن آق سنقر — رحمه الله —
٢٦٣—٢٨٦	صفته وسيرته — رحمه الله —
٢٨٩—٢٩٤	فهرس الموضوعات للجزء الأول من الكتاب

